بلزاك

الناعقون

روائع الروايات العالمية





ماريان

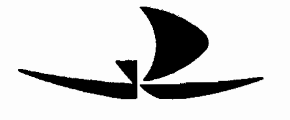
روائع الروايات العالمية

بلـــزاك

الناعقون

راجعها وقدّم لها

د. شكيب الجابري



عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

LES CHOUANS

BALZAC

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

مقدمة

كنت أظن انه سيفقد مع الأيام من قدره ، فإذا هو لم يزدد مع الأيام إلا مكانةً وقدرا .

وبلزاك اليوم ، عرضة لدراسات على النسق الحديث ، تحاول أن تجد شيئاً جديداً تقوله فيه ، فتكاد لا تجد ، لكثرة ما كُتب عنه وقيل فيه . وهذا من دلائل نبوغه وخلوده.

وان كانت بعض الدراسات الحديثة التي تدور اليوم حول بلزاك تبدو مبتكرة جديدة الموضوع لأول وهلة ، فما هي كذلك في الواقع . إن هي إلا تفصيل لما سبق أن قاله النقد في بلزاك ، وتوضيح موسّع لفكرة قديمة خيل للنقد الحديث انها مدخل لمقلع جديد يستثمره الناقد على حساب أدب بلزاك ليستهلكه ملايين القراء في العالم الذين فتنهم بلزاك ولا يزال ، جيلاً بعد جيل . وان خيل الى الناس أن آثار بلزاك لا بد لها ان تجري فيها سنة الكون التي قضت بأن يكون لكل شيء في العالم ، وبخاصة نتاج الفكر الأدبي ، مراحل طبيعية يمر بها ، شأنه كشأن كل شيء مخلوق ، وتنتهي كلها بمرحلة الانحدار وأهم دلائلها انصراف المعجبين وتطاول البغاث . لو خيل اليهم ان أدب بلزاك يعاني اليوم أعراض مرحلة الشيخوخة بالنسبة الى القراء ، فان الدلائل لتدل على ان الأدب البلزاكي لم يبلغ بعد مرحلة انفضاض القراء من حوله وتنكر النقاد له ولو اشتدت من حوله منافسة الأدب الحديث الذي لا يتأخر عن

الترويج لسلعته على حساب النتاج الجيد ، بكل نوع من انواع الزينة والبهرجة الجريئة التي يتقبلها مجتمع اليوم ، ويسيغها ، ويتلهف لهـا ، وهي في عهد بلزاك كانت تُعدّ من الكبائر التي كان يحل معها احراق الكتاب والرجم والتشهير.

وان بدا لقارىء السطور السابقة انها تحوي عدداً من الكلمات والتعابير التي تمت الى الاقتصاد اكثر منها الى الأدب الصرف فأغلب الظن انها جرت على القلم عفواً ومن غير تعمد ، متأثرةً بذلك السيل من الدراسات الاخيرة التي أخذت تتناول الأدب البلزاكي من ناحيته الاقتصادية ، وبكلمة اوضح ، تتناوله من تلك الناحية التي يكاد لا يخلو منهـا كتاب من كتب بلزاك الكثيرة ، وهي الناحيـة الماليـة او الاقتصادية . ففي كل رواية كتبها بلزاك لا بد ، في الحقيقة ، من دائن ومدين ، وفوائد فاحشة ومراب لعين ؛ وبيع وشراء ، وعمـل دائب لانسان ما من الناس العديدين الذين يشكلون المسرح البلزاكي باعدادهم الوفيرة ، وطبقاتهم المختلفة . بل قـد تجد في معظم آثار بلزاك خطوطـاً لمشروع من المشاريع الاقتصادية التي يمر بهـا القارىء المستعجل غير مهتم ولا مدرك، بينما أضحت اليوم ، هي وكل كلمة من كلمات بلزاك التي تمتّ بصلة قريبـة أو بعيدة الى شؤون المال والاقتصاد، حجارةَ الخاصة التي يعبر بها النقد الحديث الى حياة المؤلف الخاصة ، لا حياته المادية فحسب بل حياته النفسية بالذات ، وقد يذهب الغلو ببعض نقـاد اليوم الى القول بأن بلزاك ان ابقى في آثاره الضخمة شيئاً يعكس دخيلة نفسه ، وجلية اخلاقيته، وواقع عيشه، فانما هي تلك الانشودة الطويلة ، التي مـا فتئت روحه تتمتم بها منذ بدأ حتى انتهى، والتي كانت تنطلق بعض نبراتها الخافتة من آن لآخر، الى حيز الوجود الظاهر ، كلمـاتٍ وصوراً وتعابير مقتضبة ، ظاهرها قليل لكن ما خلفها من نزوع نحو المادة وتشوق الى المال هو الجزء الأكبر والأصدق من بلزاك الحقيقي كما عاش وشعر .

واني لأجدني قد انسقت مع هذه الفكرة وما كان في نيتي أن أفعل ، لبعد موضوعها عن هذه الرواية البديعة (الناعقون) التي طُلب إلي تقديمها الى قراء

العربية فقبلت العرض مبتهجاً مشوقاً لمظم ما احمله لبلزاك من اعجاب ومحبة . ولعلني جرفني التيار الذي انجرف فيه نقاد بلزاك اليوم ، دون الاستغراق في مثل غلوهم،واستهواني ان اعبر الى حياةالكاتب ، ومن ثم الى أدب الكاتب ، على معبر المخاضة ذاته الذي خفّت فوقه خطى الناقدين الحديثين، مكتفياً بحجر واحد لم يلتفت إليه أحد بعد ، وهو الكلمة الأولى التي افتتح بها بلزاك كتابه هذا ، اي كلمة الإهداء المقتضبة التي صدر بها روايته :

الى السيد تيودور دبلان

التاجر

الى الصديق الأول كتابي الأول.

واذا لم تخني الذاكرة فأغلب ظني أني رأيت هذا الاهداءعلى طبعةقديمة، مع توضيح أتمّ لمهنة التاجر المذكور ، الذي اعتبره بلزاك صديقه الاول فأهداه كتابه الاول . اذ جاء فيها : التاجر في الأوائل المطبخية .

فهل كان هذا التاجر بالأوائل المطبخية فعلاً هو الصديق الأول للروائي الفرنسي الأول حتى يهدي اليه كتابه الأول ؟ ذلك ما يمكن ان يُشكّ فيه . فالمعروفعن حياة بلزاك انها كانتملأى بالصحاب والأصدقاء ، بل بالصويحبات والصديقات المتفانيات، ولم يجر اسم هذا التاجر في أيٍ منالدراسات التي دارت حول حياة بلزاك وأدبه منذ نشأته حتى اليوم بينما جاء ذكر كثير من اصدقائه وخلانه وأقاربه ومعارفه .

وكذلك (الناعقون) . فما كانت هذه الرواية النفيسة هي كتاب بلزاك

الأول بل سبقها آثار كثيرة في القصص والرواية كتبها بلزاك في مستهل شبابه ، سالكاً زي ذلك العهد المولع بقصص المغامرات المعروفة باسم «القَصص الأسود». لكن هذه الرواية التي صدرت لأول مرة في شهر كانون الثاني ١٨٢٩ ، كانت هي الأثر الاول الذي أصدره بلزاك باسمه الصريح لا المستعار . وقبل ذلك كان يصدر قصصه باسم « هوراس دوسانت اوبان » أو باسم « اللورد ر، وون ». وعلى هذا اعتبرها بلزاك هي كتابه الاول إذ منحها اسمه، فكانت جديرة بالاهداء الى الصديق الاول ، التاجر بالأوائل المطبخية ... أفلا يحق للمتأمل ان يشتمّ من وراء هذا الاهداء رائحة سند لم يدفع بوقته ويرجو الكاتب تأجيله ، أو معاملة مالية من عشرات المعاملات المالية التي التفتّت بالروائي العظيم وأخذت بخناقه طوال سنوات الكدّ التي عرف فيها بلزاك من العسر ألواناً ، ومن ضيق ذات اليد والديون التي انتهت بشهر الافلاس ، ما أدى به الى طَرْق خمسين باباً من ابواب الاسترضاء والتمني والاستجداء حتى انتهى به المطاف الى باب صديقه البيّاع، فقايضه سنداً يرجو تأجيله او ديناً يرجو العون على قضائه بشهرةٍ واعلان وتخليد صداقة . وسيظل المسكين بلزاك هكذا ، تموج به الديون وتتقاذفه لجج العسر وتحف به المشاكل حتى اواخر عمره . فاذا كاد يسلم ذاته المنهكة الى لذائذ الراحة أدركه الموت عام ١٨٥٠ وهو في الحادية والخمسين من عمره ، بعد شهور معدودة من زواجه من الكونتس ايفلين هنسكا، بعد حب محرّم تساقياه سبعة عشر عاماً قبل ان يصل بينهما الرباط المقدس .

كان بلزاك ، كما قدمنا ، ينشر رواياته بأسماء مستعارة لشعوره بأنها لا تزال نتاج مرحلة التجربة والتمرين . فاذا كملت له العدة وأحس بأنه قد بلغ المرتبة التي تستأهل ان يكشف فيها عن هويته راح يعد العدة لوضع رواية تجري حوادثها في تلك المناطق الفرنسية بغرب فرنسا التي هبّت، بُعَيد الثورة الفرنسية، تدافع عن الملكية ، مستبسلة متفانية لما رأته من تنكر رجال الثورة للدين والاعراف وتقاليد الشهامة القديمة ، ولما روّع البلاد من تطرفهم الدموي وغدرِ بعضهم ببعض ، فلا يكاد طاغية منهم يرتفع حتى يطيح برأسه طاغية

من جماعته واخوانه أشد منه بغياً وأقسى. حتى عمت المجازر فرنسا بأسرها وعملت فيها المقصلة في سنين ما لم تفعل مثله في احقاب، وعمّ البلاد بؤس أنساها بؤسها الأسبق الذي قامت الثورة الفرنسية باسمه وبدوافعه ، وانقسم الوطن الواحد على نفسه ، وذهب الفرنسيون يروون سيوفهم ، بعضهم بدماء بعض، حتى طمع بهم الأعداء وأعملوا فيهم نيابهم من كل جانب . ثم لم تلبث الجمهورية أن غدت ألعوبة في يد طاغية فرد، حلا له ، فانقلبت الجمهورية بين عشية وضحاها امبراطورية ، لم تلبث بدورها ان عانت الاضطرابات والبأساء والضنك ، فعادت الى «البوربون» تارة اخرى، لكنها عادت مضعضعة منهكة لا تجدي لرفعها وسيلة . فقد عرفت الاضطراب ونشطت روح الفوضى . وبعد ان كانت فيما مضى البلد الأقوى أضحت هي بلد الفوضى والضعف والتشاكس والتشكك والقلق . وظلت تعاني من آثار ذلك زمناً طويلاً.

على ان المسرح الذي اتخذه بلزاك لروايته جعله في منطقة بريتانيا التي كانت لا تزال تعيش على الفطرة ، وجعل مدار الرواية قصة جرت حوادثها في فوجير ، مابين فتاة مغامرة ، اوفدها رجال الثورة الجمهوريون الى تلك المناطق الموالية للملك ، ونبيل شاب ، أوفده الملكيون ليتولى زعامة الموالين من ابناء المنطقة الغربية لمجابهة عساكر الجمهورية. وتلتقي الحسناء الجمهورية بالزعيم الملكي، فتكيده ويكيد لها ، وتوقع بجنده ويوقع بجنودها ، وتؤذيه مراراً ويؤذيها مرارا. لكن بين قلبيهما جمرة لا تزال تستعر وتعمل حتى يذوب القلبان في بوتقة واحدة، واذا هما في حومة الوغى وفي احتدام المعركة ، ألعوبة ضعيفة في يد الحب. لكن حبهما بلا نهاية ويومهما بدون غد . كذلك كانت حكاية البطلين .

أما عشرات الأبطال الثانويين، واما ما ندعوه في هذا العصر بـ «الكومبارس»، واما الغيطان والوهاد وتضاريس الارض وألوان الطبيعة ، ومـا بين ذلك من حوار الضباط والجنود ، وحديث رجال القصر وابناء الريف والغابة، ففيه من دقة الوصف، وصدق الأداء وبعد الآفاق وطول النفَس، مالا يتأتى لغير بلزاك تحقيقه

إلا بشق النفس. ولا عجب فقد قضى بلزاك في فوجير وضواحيها قرابة شهرين ، لم يدع خلالهاميداناً من ميادين المعارك المحلية او مكاناً أو درباً او ممراً او قمة او غابةذات بال إلا زارها لا مرةً بل مرات ، ولم يدع شاهداً من شهود الحوادث إلا تحدث إليه واستعاد واستنطق وسجّل ودوّن .

وقد زعم بعض نقاد بلزاك انه بلغ في هذه الرواية من الحياد ما بين الجمهوريين والملكيين حداً لا يدري أحـــد فيه حقيقة ميول المؤلف بالنسبة الى الفريقين او النظامين .

وقد كان بلزاك في الواقع ملكي النزعة. لكنه في هذه الرواية آثر ، في كثير من المواقف، السكوت على بعض المساوىء الكبرى لئلا يظن قراؤه ـ ومعظمهم كانوا من بورجوازيّي باريس اصحابِ الثورة الفرنسية الحقيقيين ووارثي الملكية بجمهوريتهم الاولى ـ أنّ به ميلاً الى ابناء الريف من ابناء تلك المناطق الثائرة ضد الجمهورية الذين كانوا يسمونهم :الشُوان. وقد رافق هذا اللقبَ شعورٌ بالكراهية والاشمئزاز ، حتى كادت كلمة شوان تصبح لدى البورجوازيين الجمهوريين مرادفة لكلمة قاطع طريق . ولما جاء بلزاك بكتابه هذا وأسماه : الشوانيّ الأخير ، احس انه ان خفف من قسوته على جماعــة الشوان المقاومين لثورة البورجوازية في باريس فلن يحسن الدفاع عن سمعتهم ويزيل من نفوس القراء ذيول تلــك السمعة السيئة التي اقترن بها لقبهم المرعب فكان حذراً .

بل ان الكتاب ، رغم روعته ، لم يلق في طبعته الأولى ، لدى جمهرة القراء، ما كان يستحقه من استقبال حار ونجاح ورواج .

أما أساطين النقد والأدب ، فقــد أحسوا انهم يشهدون ولادة عملاق من عمالقة الرواية في العالم ، وان رواية « الشواني الأخير » أو « الشوان » كما سميت بعد ذلك ، او «الناعقون» كما اقترحنا على معربي هذه الرواية ان يسموها، هي بحق الأثر العظيم الذي يجدر ببلزاك ان يعتبره اول نتاجــه الجدي فيعترف بـــه ويمنحه اسمه .

ومرت الاعوام وبلزاك يضع الكتاب بعد الكتاب، وجلها عظيم خالد، في عالم كانت الرواية فيه لا تزال تحبو شكلاً وموضوعاً. فاذا جاء بلزاك ففتح الطرق وعبّد المسالك، وأبدع ما شاء له الابداع في صنوف شتى وميادين واسعة وأهداف لا تعد، وعمد الى الانسان، فصوّره في مختلف احواله وظروفه واخلاقه وعقائده واتجاهاته؛ أقبل رواد الرواية الفرنسية، الحديثة بالنسبة الى ذلك العصر فوجدوا امامهم ألف درب معبد وميدان فسيح، فترسموا خطى بلزاك ودرسوه وحفظوه وتمثلوه واقتفوا آثاره خطوة خطوة واثراً فأثراً حتى بلغ بعضهم في بعض الميادين الروائية مرتبة لم يبلغ اليها بلزاك، كشأن غوستاف فلوبير العظيم. فلو قرأت اشهر رواياته للمست فيها اثر بلزاك جلياً واضحاً ملحّاً يكاد يهتف باسم بلزاك، المعلم والرائد الأول. فما «مدام بوفاري»[1] إلا رجعاً لـ «الأب غوريو»[1]. وما «سلمبو»[1] إلا صدى، ولو جدّ بعيد، من أصداء هذه الرواية التي سنقرؤها بعد دقائق. وان استبعد بعض النقاد زعمنا هذا الأخير فلن يشكّوا بعد ان يعودوا الى الروايتين عودة جديدة ليقارنوا مقارنة من ألمّ بحياة الكاتبين ونتاجها الأدبي.. بل ان حديث الدرهم، والدين، والسند، والاجرة والبيع والشراء، وبكلمة النزعة الاقتصادية التي تكاد لا يخلو منها اثر من آثار بلزاك، لشدة ما منيت به حياته الخاصة من متاعب المال ومشاكل الاقتصاد، تراها قد قفزت الى مؤلفات مقتفي آثار بلزاك مع ما قفز معها من النزعات العديدة الاخرى التي لا مجال لتفصيلها في هذه المقدمة، ولو كان مثل هذا العمل كان يمكن ان يكون على غاية من الطرافة والامتاع.

هذا بالنسبة الى تأثير بلزاك، ابتداءاً من كتابه الاول هذا الذي أسميناه «الناعقون»، فيمن عاصره او جاء بعده من كتاب الرواية في فرنسا وخارج فرنسا منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا. اما بالنسبة الى بلزاك نفسه فانه بعدان وضع العديد من رواياته اراد ان يجمع ما تشابه منها وتكامل، في مجموعة يطلق عليها اسم «الكوميديا الانسانية». وقدر لتلك المجموعة مائة وخمسين حلقة،

(١) جميع هذه الروايات صدرت معربة في منشورات عويدات.

او رواية ، تدور كل واحدة منها حول صورة من صور الحياة وحالة من احوال هذا الانسان البائس الأرعن السخيف الخفيف الذي يعمر الأرض ولا يدري في الحقيقة اي شيء يراد به .. فاذا أحصى بلزاك ما بين يديه من تلك الحلقات من مجموعة المهزلة الانسانية، وحاول ان يصنفها، وجد ان كتابه الاول هذا يمكن ان يأتي في الطليعة من تلك المجموعة، بل هو حري بأن يكون الكتاب الذي بشر بالمجموعة قبل ان تتكون في ذهن الكاتب العبقري .

على ان بلزاك لو دعا مجموعته ، التي وافاه الأجل قبل ان يتمها ، لو دعاها « المهزلة اللاانسانية » لكانت التسمية اصدق وأقرب الى واقع ما جاء من صور الانسان وتصرفاته ، كما سجلها بلزاك وكما نراها فيما حولنا وفي انفسنا بالذات. ان في وصف المهزلة بـ «الانسانية»، أو نسبتها الى الانسانية، لشيئاً من التسامح، فالانسانية ، حسب ما جرى به العرف شيء يوحي بالخير واللطف. فاذا تصدى لها بلزاك بالوصف دون افراط في المبالغة ولا مغالاة في التشاؤم ، وجدنا ان المجموعة البلزاكية انما سميت بذلك الاسم مجازاً ، لا واقعاً، فما هي بالمهزلة حقاً، وان كانت تدفع الى الضحك والقهقهة لشدة ما فيها من ايلام مثير وفضيحة فاضحة لذلك المخلوق البهيمي الأرعن الدموي الجائر القاسي الذي يدعونه الانسان .

أم لعل بلزاك كان يدعو الاشياء بضد اوصافها ، كما يفعل ابناء الصحراء من العرب، امعاناً منه بالتهكم .. أفلم يفتتح هذا الهازىء الكبير ، كتابه الاول، بـ « النكتة » الأولى الخفية ، اذ رفع ذاك السِّفْر الضخم العظيم ، وهو اول حلقة طبيعية من حلقات « المهزلة الانسانية » ، باهدائه المتواضع : الى السيد فلان...، التاجر بأوائل المطبخ .. كتابي الأول ...

لكم تسمرت عيناي امام هذه الجملة البسيطة ، أمام هذا الاهداء البريء ،

أقرأ وأعيد .. على شفتيّ ابتسامة، وفي قلبي لوعة .

استجداء ..

تلك ايضاً حلقة من حلقات الكوميديا الانسانية ، الكوميديا اللاإنسانية، المهزلة ، المأساة ، الحلقة الكئيبة التي كانت دوماً وأبداً هي صلة الوصل ما بين عبقرية الفكر وجبروت المال.. أفلا يزالون يعيبون على شعرائنا وقوفهم فيما مضى بأبواب الملوك ؟!

وان كان في رواية بلزاك هذه من الهفوات وارتباك بعض العبارات ما يمكن ردّ أسبابه الى تعجل الكاتب ـ فقد كتب الرواية في ثلاثة اشهر استجابة لإلحاح ذلك الدين الرهيب الذي لصق به لصوق الهلبلاب بالدوحة السامقة ـ فان في الترجمة التي بين ايدينا من الهفوات والنقص وارتباك بعض العبارات وبعدها عن روح النص أحياناً ما لا يمكن تعليله إلا بذلك التسرع الذي ران على صناعة النقل الى العربية ، التي شاعت تسميتها بالتعريب ، والذي لا نجد له مبرراً إلا ان تصورنا ان شأن الكثيرين من معرّبي اليوم لا يختلف كثيراً عن شأن بلزاك في ابان ضيقه واشتداد عوزه وإملاقه . هذا الى ما شاع في لغة التعريب من العجمة التي نشأت عن اسباب كثيرة، أهمها ضعف المعرب في لغته، وابتعاده عن اساليبها ومقومات الفصاحة والبلاغة فيها ، بل ضعفه فوق ذلك في كثير من الاحيان في اللغة التي ينقل عنها واعتماده على القاموس وحده . وما المعاجم والقواميس بكافية إن لم يعش المعرب طويلاً بين القوم الذين ينقل عنهم، المدة الكافية ليتمثل معاني العبارات والكلمات ويلم بدقائقها وظروفها كما هي في الصميم لا كما تبدو في الظاهر والمعجم. بل ان الكلمات ذاتها وكثيراً من طرق التعبير لتختلف دقائق معانيها مع الزمن حتى يكاد يكون لكل عصر تعابيره الخاصة وألفاظه المميزة .

على ان بلزاك لو قيض له ان يبعث حياً ليقرأ الكتاب ذاته معرّباً على النسق الذي جاء في الترجمة التي بين ايدينا ، أو معرَّباً على ذلك النسق المتصنع

الثقيل اللاعربي الذي يجري فيه النقل برصف لفظة مكان لفظة وعبارة ليست من لغة العرب في شيء مكان العبارة الأجنبية لآثر هذا النقل ولأرضاه هذا التعريب ، رغم هناته .

شكيب الجابري

الاهـــداء

الى السيد تيودور دابلان

التــاجر

الى الصديق الأول ، كتابي الأول

بلزاك



الفصل الاول

الكمين

في مطلع فاندمير من العام الثـامن (للثورة الفرنسية) ، وأواخر ايلول (سبتمبر) ١٧٩٩ ان التزمنا التقويم الحالي، كان زهاء مائة من الفلاحين ، وعدد غير يسير من المدنيين يصعدون في جبل « البلرين » الواقع بمنتصف الطريق تقريباً ما بين مدينة « فوجير » وبلدة « عرنه » التي اعتاد المسافرون الوقوف بهـا للاستراحة .. وقد خرجوا من فوجير صباحاً قاصدين بلدة مايان .

كانوا يسيرون زمراً متفاوتة العـدد ، تعرض للأبصار من غريب أزيائها واختلاف أفرادها باختلاف المهن والمناطق ، ما يجعل مجموعتهم جديرة بالوصف الذي يلم بالفروق المميزة . فيُسبَغ على القصة رداء من تلك الألوان الحيـة التي شغف بها الناس في هـذه الأيام ، وبالغوا في تقديرها حتى جاوزوا الحدود التي يراها بعض نقادنا ، اذ يزعم هؤلاء ان الألوان الحية تطغى فتسيء الى تصوير المشاعر .

كان نفر من ابناء الريف ، وكانوا هم الأغلبية في المجموعة ، يمشون حفاةً . وما عليهم من الثياب سوى جلد سابغ من جلود المعزى ، يكسوهم من العنق حتى الركبتين ، وبنطال من نسيج أبيض بالغ الخشونة ، يشي غزلة الاشعث بتخلف البلاد الاقتصادي . والتفّت ذؤابات شعرهم السبط الطويل بشعر الجلود فاختفت وجوههم المطرقة حتى ليحسب الناظر ، لأول وهلة ، ان تلك الجلود من بعض تكوينهم ، فلا يفرق بصره ما بين اؤلئك الأناسي البؤساء والسوائم التي اتخذوا من جلدها لباساً .

لكن حدقات ذات بريق كانت لا تلبث ان تومض من خلال شعورهم كقطرات الندى في الخضرة الكثيفة .

ولئن عبرت نظراتهم تلك عن ذكاء إنسي فقد كانت في الوقت ذاته تبعث في النفس من الرهبة أكثر مما تبعثه فيها من مشاعر الأنس والغبطة .

وعلت رؤوسهم عَرَقية قذرة من صوف أحمر ، ذات شبه بالقلنسوة الفريجية التي اتخذتها « الجمهورية » شعاراً يرمز للحرية . وتنكّب[1] كل فرد منهم عصاً غليظة من السنديان الأعجر[2] ، تدلى من طرفها خُرج من الكتان ليس فيه من المتاع والزاد سوى القليل .

وبعضهم جعلوا فوق قلانسهم قبعات خشنة من الجوخ ، عريضة الحفاف ، ازدانت ، على كامل جوانبها ، بعرَقة[3] من صوف مختلف الألوان . أما لباسهم الذي كسا جسمهم بتمامه فقد كاد يكون خالياً من أي أثر يمت بصلة الى الحضارة الجديدة . وقد صنع من النسيج ذاك الذي صنعت منه البناطـل والخروج لدى الزمرة الاولى من تلك المجموعة البشرية .. وتهدلت شعورهم الطويلة على زيق سترة مستديرة ، ذات جيوب جانبية ، مربعة الشكل ، صغيرة . وكانت السترة تنتهي حيث يبدأ الوركان . وهي من اللباس الذي اختص به فلاحو المناطق الغربية في فرنسا .. وبرزت تحت السترة المفتوحة صُدارة من النسيج ذاته مزدانة بأزرار كبار .

وكانت فئة من اولئك المشاة ينتعلون مداساً من خشب ، بينما آثر آخرون الاقتصاد فحملوا مداسهم باليد .

كانت هذه البزة المتسخة لكثرة ما استعملت ، المسودّة بفعل العرق والغبار ، والتي لم تبلغ من الطرافة ما بلغه الرداء البدائي الذي سبق وصفه – كانت تلكم البزة تتمتع بميزة تاريخية .. ذلك انها كانت تمثل مرحلة التحول نحو اللباس ذاك

---

(١) ألقى على منكبه . (٢) ذو العقد .

(٣) العرقة في الأصل : الطرة تنسج على جوانب الفسطاط .

الذي كاد ان يكون فخماً عظيماً والذي تهادى فيه عدد من الرجال هنا وهناك، متفرقين موزعين بين المجموعة السائرة ، يتلألؤون خلالها كالأزهار .

بناطيلهم الزرق ، وصُدَرُهم الحمر او الصفر الحاليـــة بصفين من الأزرار النحاسية المتوازية كدروع مربعة ، كانت ، في الواقع ، تبرز ، من خلال الجلود القاتمة والثياب البيضاء، بحيوية الترنجان وشقائق النعمان في حقول القمح .

كانت القلة من اولئك المشاة ينتعلون تلك الاحذية الخشبية التي يتقن صنعها فلاحو بريتانيا . لكن أكثرهم اتخذوا أحذية محددة ، وثياباً من قماش شديد الخشونة والغلظ ، فصلت على نسق الثيـاب الفرنسية القديمة التي لا يزال يحتفظ بها فلاحونا حتى اليوم بتعلق ديني .

كانت قمصانهم تتصل بالبنيقة، بأزرار من الفضةعلى هيئة القلب او المِرساة. وظهرت خروجهم أملى زاداً ومتاعاً من خروج زملائهم . وأضاف بعضهم الى عُدة الطريق ، قوارير مملوءة ، بالكحول لا ريب في ذلك ، ربطت بالأمراس الى أعناقهم .

في ذلك الحشد من الرجـــال ، انصاف المتوحشين ، برزت وجوه نفر من سكان المدينة كأنها وجدت هناك ، لتمثل المرحلة الأخيرة من مراحل الحضارة في تلكم البقاع النائية .

كان اختلاف أزيائهم لا يقل إثارة عن اختلاف أزياء رفاق دربهم من الفلاحين، على رؤوسهم قبعات مستديرة او عرقيات ، او عمرات، وفي أرجلهم جزم ذات ردّات او أحذية مشدودة بالمسامي[1] .

وكان في ألبستهم من الفروق الشاسعة والاختلاف البيّن قدر ما في ألبسة الفلاحين ، وبينهم عشرة من الرجال يرتدون تلك السترة الجمهورية ، الشهيرة باسم (الكرمانيول)، وآخرون تدثروا من الرأس حتى القدم بقطعة من الجوخ، ذات لون واحد ، وهم لا شك من أغنياء رجال الحرف اليدوية .

---

(١) المساة : ما يسمونه بالعامية الطاقات .

وأكثر الجماعة تأنقاً تميزوا بالفراك او الردنكوت . وكلاهما من جوخ أزرق او أخضر براه لسان الزمان . وكانوا يمثلون الشخصيات ذات الشأن ، فينتعلون جزماً مختلفة الأشكال، وتلهو أيديهم بعصيٍّ غلاظ كدأب السادة الذين يستقبلون صروف الدهر بالابتسامة .

كانت بعض تلك الرؤوس تعلن ، بما ذر على شعورها من مساحيق للزينة ، وبضفائرها المدلاة على الظهر ، المجدولة جدلاً لا يخلو من العناية ، عن ذلك النوع من التأنق الذي يدل على تباشير عهد حديث من النعمة والتحضر .

فاذا تأمل المرء أولئك الرجال الذين أذهلهم التلاقي هناك ، كأنهم جمعوا بعامل من عوامل المصادفة، حسبهم سكانَ قرية ضخمة أجلاهم الحريق عن دورهم.

لكن المكان والزمان أضفيا على ذلك الجمع معنى أشد اثارة للاهتمام . فمن حسُن اطلاعه ، من المراقبين ، على ما كان يقلق فرنسا من الخلافات الداخلية ، كان يسيراً عليه ان يتبين العدد الضئيل من المواطنين الذين كان يمكن ان تركن اليهم الجمهورية في ذلك الجمع ، المكون ، في أغلبيته ، من أناس كانوا ، لأربع سنوات خلت ، يشنون الحرب على النظام الجمهوري .

وظاهرة أخيرة ، لم تكن لتخفى ، كانت تُبرز من غير لَبَس ، تفاوتَ العقائد التي كانت تقسم تلك الجماعة. فالجمهوريون وحدهم كانوا يمشون على الارض مرحاً . بينما مشى الآخرون وعلى وجوههم وفي هيآتهم جميعاً ، تلك السيماء المتشابهة الواحدة التي يغشى بها الشقاء وجوه البائسين ، فيوحد ما بينهم ولو بدت أزياؤهم على خلاف بيّن .

كان الفلاحون وذوو اليسار من الجماعة، الشهيرون بالبورجوازيين، قد رانت على جباههم انعكاسات تفكير عميق .. في صمتهم قسوة ، وفي إطراقهم دلالة ما رزحت تحته نفوسهم من نير تلك الفكرة الجامعة ، وهي رهيبة لا ريب ، لكنهم أحسنوا اخفاءَها ، حتى بدت الوجوه كتيمة ، لا سبيل الى اكتناه ما خلفها من الهواجس والمشاعر . على ان تباطؤ خطواتهم كان يمكن ان يشي بما جال في رؤوسهم من حسابات خفية .

وبعضهم ، ممن يحملون السبّحات متدلية من أعناقهم ، رغم ما كان في الاحتفاظ بها من الخطر ، وهي رمز ديانة لم تدمر تدميراً بل حذفت من سجل وجودهم ، كانوا يهزّون شعورهم ، ويرفعون رؤوسهم بحركة متحدية ليسبروا الغابات والدروب وما احتضن الطريقَ من الصخور ، بنظرات خاطفة . يفعلون ذلك بملامح الكلب الذي يدفع بأنفه في الريح ليستروح القنيصة . فان لم يطرق سمعهم سوى الخفق الرتيب الذي تبعثه نعال رفاقهم الصامتين ، احنوا رؤوسهم وغمرت جباههم قتمة القنوط ، كأنهم مجرمون يسار بهم الى سجن مؤبد ، فيه يحيون وفيه يموتون .

كانت مسيرة هـذا الرتل من المشاة باتجاه « مايان » ، بما احتواه من عناصر متباينة ومشاعر مختلفة ، تؤوّل أيسر تأويل وتُردّ الى معناها الطبيعي ، بوجود كوكبة من الجند كانت تسير في المقدمة .

كانوا زهاء مائـة وخمسين نفراً بالعدة والسلاح ، يقودهم رئيس لـ « نصف زمرة » — وهـذا تعبير من تعابير الثورة الفرنسية ، آثرته الثورة على كلمة « كولونيل » التي قضت بالاستغناء عنها ، لما كان فيها من مخايل الارستوقراطية الزائلة — . وكان الجند ينتمون الى قيادة « نصف لواء » من المشاة ، معسكرة في مايان .

وكان سكان المناطق الغربية ، بذلـك العهد الذي ابتليت فيه البلاد بالنزاع الداخلي ، يطلقون على عساكر الجمهورية اسم « الزرق » .. وهي تسمية تخلفت من تلك البزة العسكرية الاولى التي عُرف بها جنود الجمهورية ، في عهدهم الاول ، وقوامها لونان : الازرق والاحمر .

كانت تلك المفرزة من الزرق ، معدة لحراسة ذلك الحشد من الناس وسوقهم الى مايان . وجلّ هؤلاء ناقم مستاء لما ينتظرهم في المدينة من حيـاة الانضباط العسكرية ، حيث لا يلبثون ان يفرض عليهم عقيدة واحدة ولباس واحـد وذلك التجانس في الشكل والتصرف الذي كان يظهر في مشيتهم تلك انهم يفتقرون اليه كثيراً .

كان ذاك الرتل الذي تمت تعبئته بكل صعوبة، هو فريضة التجنيد العام، على مقاطعة « فوجير » ، التي قررتها حكومة المديرين التنفيذية بقانون كان صدر في شهر مسيدور الماضي . فقد فرضت الحكومة جباية مائة مليون من الفرنكات ، وتجنيد مائة ألف رجل ، للاسراع بنجدة جيوشها التي كانت تحل بهـا الهزائم امام النمسويين في ايطاليا ، والبروسيين في المانيا ، والتي كان يهددها ، في ميادين سويسرا، عساكر الروس الذين ملأ زعيمهم سوفاروف أذهانهم بفكرة فتح فرنسا.

وكانت المقاطعات الغربية ، الشهيرة باسم فانده ، وبريتانيا ، وجزء مـن نورمانديا السفلى ، التي ألقت السلاح وركنت الى الهدوء منذ سنين ثـلاث ، تحت وطأة الجنرال هوش ، بعد حرب استمرت أربع سنوات ، قد بدا لها ان تستفيد من هذه السانحة لتعود الى امتشاق الحسام مجدداً .

امام استفحال العدوان لم تلبث « الجمهورية » ان استعادت سالف عنفوانها . فشرعت باعداد أمر الدفاع عن المقاطعات التي تعرضت للعدوان ، ملقية عـلى عاتق الأهلين مهمة الدفاع عنها وذلـك بموجب مادة من مواد قانون مسيدور السالف الذكر .. ولما كانت الحكومة خاوية الوفاض ، لا جند عندها ولا مال لاستخدامها في شؤون الامن الداخلي فقد حُلت المشكلة ببدعة غريبة ألبستها لباس الشرعية : لمّا كان يعجزها القيام بأمر المقاطعات الثائرة فقد منحت ثقتها لتلك المقاطعات ! ولعلها رمت بذلك التدبير الى خنق الثورة في مهدها ، وذلك بتسليح المواطنين ، ليتولى بعضهم أمر بعض .

واليك نص تلك المادة القانونية التي كانت سبباً لاعتداءات داخلية أليمة : « يصار الى تشكيل سريات من المتطوعين في مقاطعات الغرب » .

وكان هذا التدبير البعيد عن روح السياسة الحكيمة قد دفع المقاطعات الغربية الى موقف عدائي بلغ الحـد الذي يئست فيه « حكومة المديرين » من بلوغ النصر . فما عتمت الحكومة ان طلبت من « الجمعية العمومية » اتخاذ تدابير خاصة تتعلق بسوق مجندي القرع العسكرية الخفيفة المفروضة بموجب تلك المادة التي كانت تقر إنشاء سريات المتطوعين .

وبناءاً على ذلك نشر قانون جديد ، قبل بضعة أيام لبدء حوادث هـــذه القصة ، يقضي بتحويل تلك القرع الصغيرة من المجندين الى فرق نظامية .

وكان على تلك الفرق ان تكنى بأسماء مقاطعات السارت ، والاورن ، والمايان ، وإيـــل ـ إ ـ فيلان ، والموربيهان ، واللوار الاسفل والمين ـ إ ـ لوار .

جاء في نص القانون ذاك : « ان تلك الفرق المخصصة لكفاح « الشوان [1] » لا يُسمح بسوقها الى الحدود لأي سبب كان » .

كل ما تقدم من التفاصيل المملة المجهولة ، يوضح لنـا حالة الضعف التي آلت اليها حكومة المديرين ، ويلقي النور على تلك المسيرة التي مشى فيها ذاك القطيع من الرجال ، بحراسة زمرة من « الزرق » ، جنود الجمهورية .

وان شئنا زيادة في التفصيل فلا بأس من ان نضيف قائلين : ان جميع تلكم المقررات الوطنية الحسان ، التي صدرت عن حكومة المديرين ، لم تعرف مـن مراحل التنفيذ إلا نشرها في الجريدة الرسمية ، المدعوة في ذلـك العهد بلائحة القوانين .

ولما كانت تلك المراسيم الجمهورية قد أضاعت ما كان يدعمها في الاصل من القيم الاخلاقية الكبرى او دوافع الوطنية ، او سطوة الارهاب ، فقد ظلت ، تلك المراسيم الجمهورية ، تخلق الاموال وتحشد الجنود ، بالوهم ، دون ان يدخـل الى خزينة الدولة من تلك الاموال شيء ، ولا الى ثكنات الجيش من ذلـك الجند احد .. لقد بليت نوابض الوثبة الاولى في أيد لا براعة فيها ، اما القوانين فكانت ، لدى تطبيقها ، تنطبع بطابع الظروف ، بدل ان تتحكم هي بالظروف .

كانت مقاطعتا المايان وإيل ـ إ ـ فيلين ، تدارارن من قبل ضابط قديم .

---

(١) الشوان – او جماعة الناعقين – اشتهروا بترديد صيحة شوان – شوان ؛ يحاكون بها نعيب البوم او نعيق الغربان، فغلب عليهم اسم ذاك النعيب فدعوا به ، في غير صالحهم. ودعوناهم في العربية بالناعقين لسهولة اللفظة وقرب معناها من الاصل .

تراءى لعينيه ان الظروف مواتية لاتخـاذ الاجراءات اللازمة ، فأراد ان يحاول سوق حصة بريتانيا من المجندين، وبخاصة حصة «فوجير» ، وهي من أشد مراكز « الناعقين » مراساً وأقواها بأساً . وكان في محاولته يصبو الى كسر شوكة تلك المناطق الخطرة .

واستناداً الى التقديرات التي تخيلتها تلك القوانين المتفائلة ، فقد أكد القائد المتحمس امكان تجهيز المجندين بالعدة والسلاح ، كما أعلن ان في خزائنـــه راتب الشهر الذي وعدت به الحكومة اولئك الجند ذوي الوضع الفريد .

ورغم امتناع بريتانيا على أي نوع من أنواع الخدمة العسكرية ، فقد نجحت العملية في البدء لما وضعه الناس من ثقة في وعود المسؤولين . حتى بلغ من نجاح العملية وإقبال المجندين ما ملأ صدر القائد بالفزع. لكنه كان حذراً فطناً ككلب من كلاب الحراسة التي يصعب أخذهـــا على حين غرة . فلم يكد يلاحظ قدوم قسم من المجندين حتى خامره الشك في سرعة ذلـــك التجمع . ولعله ما أخطأ الظن اذ استراب في ان بغيـة اولئك الرجال انمـــا كانت محصورة في الحصول على السلاح .

ودون ان ينتظر المتأخرين من الجند أعد عدتـــه للانسحاب بجنوده الى آلانسون حيث يكون أقرب الى المناطق المستسلمة . هذا بالرغم من ان الثورة التي كانت تزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم في هذه المناطق كانت تجعل نجاح المشروع من معضلات الامور .

وهكذا فقد حاول ذلك القائد ، وهو العليم بما لحق جيوشنا من الويلات ، وبما ورد من أنباء فانده المقلقة ، معتصماً بحبل الصمت لا يبوح بشيء مما يعلم ويسمع من أمر ذلك كله ، عملاً بما تلقاه من التعاليم ، حاول في صبيحة ذلك اليوم الذي بدأت فيه القصة ان يغذ السير بجنوده لبلوغ مايان ، ممنياً نفسه بتنفيـذ القوانين حسب هواه وذلك باكمال نصاب فرقته من المجندين من أبناء بريتانيا ..

وكان القائد ذاك، قد عمل قبل مغادرة فوجير ، على سحب الذخيرة والمؤن ، بخفية من جنوده ، لئلا يخـــامر المجندين أي فكرة عن طول الطريق الذي

سيقطعونه ؛ فقد أزمع ألا يقف بجنده في مرحلة « عرنه » خشية ان يخرج المصادرون من رجاله من ذهول المفاجأة، فيعملوا على التفاهم مع جماعة الناعقين، وهم ، لا شك ، منتشرون في الحقول القريبة .

وقد فوجيء المجندون المصادرون بخطة القائد الجمهوري الذي عركته السنون، ولندعه منذ الآن القائد « هولو » .. فران عليهم الصمت . فتوجس هولو من ذلك الصمت، واستيقظت فيه وساوس الحذر لما لمسه من تثاقل سيرهم على دروب الجبل . فسار مطرقاً ، وحوله خمسة من الضباط الشبان لا ينبثون ، خشية ان يعكروا صفو ذلك الاستغراق الذي استسلم قائدهم اليه .

وما كادوا يبلغون ذروة البلرين ، حتى أدار « هولو » رأسه فجأة ، كأنما دفعه دافع من غريزته ، فقلّب نظره في وجوه المجندين القلقة السمات . وكانت المسافة قد بلغت حوالي مئتي خطوة ما بين المجندين وحراسهم من العساكر بفعل تباطؤ المجندين المتزايد . وما لبث القائد الحذر ان قطع حبل الصمت ، مصعّراً خده بطريقته التي اشتهر بها . وصاح بصوت مرتفع :

– يا قرد !.. ما بال أولئك المرفهين !.. أتراهم يمشون على البيض ..!

امام تلك الكلمات استدار الضباط بحركة عفوية كتلك التي يحدثها الموقظ من سباته امام صوت مزعج .

واقتدى بهم العرفاء والرقباء . وتوقف المشاة جميعاً دون ان يلقى في سمعهم امر الوقوف الذي طال ارتقابه .

القى الضباط بنظرة على الفصيلة التي كانت ترقى منكب الجبل كسلحفاة ممطوطة . لكن الضباط الذين انتزعهم الدفاع عن الوطن من دراساتهم العالية ، شأن العديدين غيرهم من الشبان – لم تلبث عيونهم ان استقرت ، بشيء من الذهول ، على ما احاط بهم من منظر ذاك المكان . لكأن الحرب لمّا تطفىء في نفوسهم حتى الساعة ، نزعة الاحساس بمظاهر الفنون . وما كان ليخفف من اعجابهم بما يرون ، أنهم من ابناء فوجير ، حيث يشاهدون شيئاً كهذا المنظر المنبسط على مرمى ابصارهم المشوقة . فهناك ، في ديارهم القريبة ، كانت تبدو

هذه اللوحة بالذات لكن في تشكيل آخر ، اذ يرونها من خلال زاوية غير هذه.

وما كان لهم ان يمنعوا عيونهم من القاء نظرة اعجاب اخيرة ، كشأن هواة الموسيقى المغرقين كلما ازدادوا الماماً بتفاصيل لحن من الالحان البديعة ازدادوا لذة بسماعه .

فمن اعلى جبل البلرين يرى المرء وادي كويسنون الفسيح ، وعلى مرتفع من مرتفعاته البارزة في الافق قامت مدينة فوجير . وقد اشرف قصرها المبني فوق الصخرة المنيفة ، على ثلاثة دروب هامة او اربعة . وبذلك كانت فيما مضى تعد مفتاحاًمن مفاتيحذلكالجزء الشماليالغربي من فرنساالذي يدعونه: بريتانيا.

هنالك بدا لعيون الضباط ذلك الحوض الشهير بخصبه العجيب ، كما امتاز وتنوع مناظره . فحيث تنظر ، فجبال صفيحية التكوين سمقت كالمدرجات ، واخفت سفوحها المحمرة تحت كساء من غابات السنديان ، وبدت في سفوحها شعاب عميقة ، طرية الجو بليلة النسيم . وقد ضربت تلك المرتفعات الصخرية نطاقاً واسعاً ، يبدو لأول وهلة مستدير الشكل . امتدت في قاعه برية فسيحة رخية ، فُصّلت رسومها كأنها من حدائق الانكليز .

وهنا وهناك ما لا يحصى من حواجز السياج الاخضر ، تفصل الآلاف المؤلفة من صغار الممتلكات بأشكال شتى لا نظام لها ، غرست جميعاً بالشجر . فأضفت على ذلك البساط السندسي هيئة نادرة الوجود بالنسبة لما تراه من المناظر الكثيرة في فرنسا .. وطوى ذلك العالم الأخضر في اختلاف مشاهده أسراراً من البهاء ، لها من سعة التأثير ما لا يفوته أشد النفوس انغلاقاً وبرودة .

وفي تلك اللحظة بالذات كان مشهد البلاد ينتفض حياةً بذلك الالق العابر الذي يحلو للطبيعة ان تلقيه على بدائع خلقها الخالد لتزيدها رونقاً وجلالاً .

وبينما كان الجند يعبرون الوادي كانت الشمس المشرقة قد بددت ، رويداً رويداً ، سحب البخار الخفيفة الناصعة ، التي تموج في أصابيح ايام ايلول على صفحات الحقول .

وكأن يداً خفية امتدت ، في تلك اللحظة التي تلفتت فيها الفتيان نحو

الوادي ، فانتزعت آخر غلالة من الغلالات التي كستها بها منذ قليل سويحبات رقيقة أشبه شيء بالغلالة الشفافة التي تلقى على الحلي الغالية لتكون الجواهر من خلال شفوفها المثير أشد عصفاً بتشوّف الناظرين .

وكذلك بدت السماء ، في ذلك الافق الرحب الذي انفسح لأعين الضباط ، نقيةً ، خالية ، ليس فيها من السحاب بقيةٌ تنبىء ، ببريقها الفضي ، ان تلك القبةالزرقاء هي قبة السماء .

بل كانت السماء تبدو كسجفة من حرير ، مرفوعة على عمد الجبال ، بقممها المنطلقة في الجو على درجات متفاوتة من السموق ، مُدت في الهواء وقاءاً لذلك الحشد البهيج النفيس من الحقول والمراعي والجداول والمشاتل .

وما كانت عيون الفتيـة من النظّارة لترتوي من مشهد ذلك الفضاء الفسيح الذي انبثقت فيه جميع تلك البدائع الريفية .

ولكم ترددت عيون بعضهم قبل ان تستقر على مشهد واحـد من مشاهد لا تحصى في فيض تلك الغياض ، أضفت عليها بعض لفائف الشجر المصفرّة من لونها فغنيت ألوانها بلون الصّفر ، الذي زاده بروزاً زمردُ الحقول المحشوشة حشاً لا انتظام فيه .

وعلقت عيون الآخرين على تنافر الألوان الذي عرضته حقول وردية الصبغ، حيث وقفت حزم الشوفان المحصود، على سوقها، مخروطة القوام ، شبيهة بضمائم السلاح التي يقيمها الجند في المخيم . كل ذلك مفصولاً بعضه عن بعض بحقول أُخر لوّحها حصاد الدخن بلون الذهب .

وهنا وهناك سطوح قاتمة من حجر الالواح، تتهادى منها سحائب من الدخان الابيض . وأخاديد حية بلون الفضة رسمتها جداول « الكويسنون » المتعرجة ، كانت تجتذب العيون ببعضٍ من أحابيلها البصرية ، تتلاعب بالنفس فترسل فيها الحيرة ، وناعم الاحلام .

وكسحابة من الطيب تسامت في السماء نفحة مبردة زكية من نسائم الخريف، مع ريح

الغابات الفاغم ، لتسكر المعجبين بتلـك المناطق الجميلة ، وهم يتأملون بذهول أزاهيرها المجهولة ، ونباتها الخصب ، وخضرتها التي ضاهت خضرة بريطانيا ، جارتها تلك التي اشتركت وإياها بحمل اسم واحد .

وأضفت حركةً من الحياة على ذلك المشهد بعض قطعان السائمة فزادته تأثيراً وروعة .. والاطيار تغرد فينبعث في الوادي لحن عميق تهتز رعشاته في اجواء السماء .

حسب الضباط ان اولئك البؤساء المساكين يغادرون آسفين ملتاعين أرضهم وما ألفوه من العادات والتقاليد ، لغير رجعة ، فقد يلاقون حتفهم قبل ان يعودوا ، فغفروا لهم ، من حيث لا يريدون، تأخرهم ذاك الذي أدركوا كنهه. وبمروءة المحارب الطبيعية أخفوا شعورهم تحت غشاء من رغبة التأمل ، فراحوا يقلبون أبصارهم ليفحصوا المواقع العسكرية في تلك البقعة الجميلة .

وما كان القائد هولو بالعسكري الذي يلهيه سحر المناظر امام الخطر المحدق، ولو امتدت لعينيه مناظر الجنان . فهز رأسه ، وزم حاجبيه الكثيفين الاسودين اللذين كانا يضفيان على ملامحه صرامة . وكرر السؤال ، بصوتـــه الذي زاد في خشونته ما مر بهمن عناء الحرب ، قائلاً :

– ما لهؤلاء لا يتقدمون ؟! ام لعل في القرية صورة للعذراء يودون انيقدموا بين يديها فروض الطاعة !

قال قائل : أتسأل ما السبب ؟

التفت القائد بغتة، كمن مسته ذبابة سيف، اذ سمع اصوات نفير كأنها تنبعث من قرن من تلك القرونالتي يستعملها فلاحو تلكالأودية لجمع قطعانهم. وبالتفاته رأت عيناه ، على بعد خطوتين منه انساناً غريب الخلقة ، لا يشبهه واحد مـن اولئك الرجال المساقين الى مايان لخدمة الجمهورية .. كان الرجـل مربوع القامة ، عريض المنكبين ، ذا هامة بحجم رأس الثور، على تقارب شديد ما بين شكليهما. وبدا أنفه اقصر مما هو في الواقع لغلظ منخريه . وكان يبـدو اقرب الى فصيلة الحيوانات المجترة منه الى جنسنا القوقازي الابيض بفضل شفتيـــه العريضتين ، اللتين ارتفعتا بفعل أسنانه الناصعة كالثلج ، وبفضلعينيه المستديرتين السوداوين

المحفوفتين بأهدابه الصارمة ، وباذنيه المتدليتين وشعره الاحمر .

وبدا الرأس العاري أدعى للعجب ، لتجرد ذلك المخلوق من صفات الانسان الاجتماعي تماماً .

وكان المحيا هو الجزء الوحيد الظاهر للعيان في جسم ذلك المخلوق العجيب. وقد بدا ، بما خلفته الشمس فيه من آثار اللفح ، وبما حفّ به من التخوم المتعرجة كالزوايا ، على شيء من الشبه وتلك الصخور الغرانيتية التي تشكلت منها أرض تلك المناطق .

وبدل الهراوة العجراء التي كان يتنكبها الجندون فقد كان هذا يسند الى صدره ، كعوض للبندقية ، سوطاً ضخماً مزدوج الطول جُدل سيره بمهارة .

وما كان من الصعب تأويل ظهوره الفجائي، فقد حسبه بعض الضباط لاول وهلة ، جندياً يعود الى قواعده في الرتل اذ الفاه واقفاً . على ان قدومه لم يلبث ان اثار تعجب القائد . فاربد جبينه ، ولو خلت اسارير وجهه من امارات الوجل . وبعد ان تبين ملامح الغريب ، اخذ يردد بشكل لاشعوري ، كأن فكره قد شغلته الهواجس .

– اجل . اجل . تراهم لم لا يأتون ؟ .. اعندك ، انت ، تأويل لذلك ؟

اجاب الرجل الغامض بلهجة من يستصعب النطق بالفرنسية ، مشيراً بكفه الخشنة الى « عرنه » :

– ذلك ان نهر « المين » يجري هناك .. وهناك تنتهي حدود بريتانيا .

والقى بشدة قبضة سوطه الثقيلة قريباً من قدم القائد. فكان لذلك في نفوس الحاضرين ما يشبه وقع دردبة الطبل اذا انفجر ضجيجها بين نغمات الموسيقى الناعمة .

خشونة ذلك الرجل ، الذي بدا وكأنه ُقدّ هيكله بحد الفؤوس ، وجلده الغليظ ، وجهله الغبي المحفور في ثنايا ملامحه، كانت تجعل منه صورة حية لنصف إله بربري .

واتخذ في موقفه ذاك وضعاً من اوضاع النبوة، برز فيه وكأنه هو روح بريتانيا

إذ ترتد الى اليقظة بعد ثلاث سنين من السبات ، لتستأنف حرباً لم تخل قط من عظيم الاخطار وجسيم الصعاب .

قال هولو في نفسه : « يا للمخلوق الظريف ! يخيل الي انه سفير القوم الذين يتهيأون للتفاوض بلغة الرصاص .

وبعد ان تمتم بهذه الكلمات ، تحول القائد بنظره من الرجل الى المنظر ، ومن المنظر الى الجند ، ومن هؤلاء الى جانبي الطريق المنحدرين ، تفيأت اعرافهما بانجم الرتم الباسق . ثم صوب بصره بغتة الى الغريب يستنطقه بغير كلام . وانهى القائد الاستنطاق فجأة بقوله : « من اين جئت ؟ »

وكانت عينه اليقظة البصيرة تحاول النفاذ الى اسرار ذلك الوجه المغلق الذي غشيته في تلك الفترة القصيرة غشاوة الفتور الناعس التي تنتاب وجوه الفلاحين بوقت الراحة .

اجاب الرجل دون ان يطرف له جفن :

– من بلاد الغار[1] .

– ما اسمك ؟

– مارش آتير (اي : الماشي على الارض) .

– لمَ تدعو نفسك بهـذا الاسم ، وهو من ألقاب الناعقين ، التي حظر القانون استعمالها ؟

ألقى مارش آتير على القائد نظرة بلغت من الغباوة ما حمله على الاعتقاد بأن الرجل لم يدرك سؤاله . فاستأنف كلامه قائلاً :

– أأنت من مجندي فوجير ؟

– ما بعرف !

كذلك أجاب الرجل وفي لهجته ما يدفـع السائل الى اليأس من جدوى الحوار . ثم جلس على حافة الطريق مطمئناً ساكناً ، فتناول من جرابه كسراً من خبز الشعير الاسود ، وهو غذاؤهم المحلي الذي لا يدرك لذائذ مذاقه البائس

(١) أي من بلاد الفتيان ، في اللغة الدارجة في تلك المناطق .

سوى سكان تلك المناطق المحرومة . واخذ الرجل يلتهم طعامه بشرود أبله . وبدا في جلسته مجرداً من كل فطنة ، حتى شبهه احد الضباط بحيوان من تلك السائمة التي كانت تقضم اعشاب الوادي السمينة . وشبهه آخر بسكان امريكا البدائيين او بسكان « رأس الرجاء الصالح » الذين يعيشون على الفطرة .

كان هولو قد تخفف من هواجسه ، لما خدعه من مظهر الرجل ، لمّا القى بنظرة حذر اخيرة على مارش آتير ، وقد خامره الريب بشأنه ، حادساً انه نذير مذبحة وشيكة الوقوع ، إذ رأى شعره ، وجرابه ، والفروة التي تدثر بها ، قد علق بها الشوك ، ونثار الاوراق ، ووقس الحراج والادغال ، شأن من قطع طريقاً طويلة خلال الآجام الكثيفة . فسدد نظرة ذات مغزى الى مساعده جيرار ، وكان على مقربة منه ، ثم شد على يده بعزم وقال له بصوت منخفض : « رحنا نجز الصوف وعدنا مسلوخين » .

نظر الضباط بعضهم الى بعض بصمت ذاهلين .

هنا يحسن بنا التوقف قليلاً لألقاء بعض النور على ما تغيب معرفته عن الكثيرين من الناس من شؤون تلك المناطق ، ليتسنى لبعض المتشككين ادراك مشاعر القائد هولو وتخوفه ، وقد أَلِفوا التشكك والاسترابة في كل ما يسمعونه ، لانهم لا يرون شيئاً وهم قابعون في عقر ديارهم لا يبرحونها . وقد ينكرون وجود مارش آتير وامثاله من فلاحي الغرب الذين بلغوا في بعض المواقف من نبل التصرف وروعة (السلوك) ما يمكن وصفه بالسمو .

ان لفظة « غار » — ويلفظونها « غا » — بقية من بقايا اللغة السلتية ، انتقلت من اللغة البروتونية السفلى الى الفرنسية — وهي اغنى كلمات لساننا الحديث بالنسبة لما تحمله من الذكريات القديمة .

ومنها تحدرت كلمات غار (شاب) وغرسون (صبي) وغرسونيت (صبّية) ، وغارس وغارسيت ، وكانتا تعنيان (الصبية) ايضاً ، دون اي معنى من معاني التحقير التي لصقت بهما في اللغة الحديثة .. وسيرد استعمال هاتين اللفظتين في هذه الرواية

بمعناهما القديم الذي لا يخلو من معاني البطولة [1] .

وبين المقاطعات الفرنسية تظـل بريتانيا اعمقها انطباعاً بالاخلاق الغاليّة . ولا تزال بعض مناطق هذه المقاطعة حتىعهدنا تدعى بلاد الشباب الفتيان او بلاد « الغار » ، وهي المناطق التي لا تزال حتى اليوم محتفظة بالحيـــاة الوحشية والخرافات التي دار في مدارها اسلافنا الاشداء الخشنون . فاذا كانت ولاية من ولاياتنا مأهولة بعدد وفير من الاجلاف المتوحشينامثال هؤلاء الذين نشاهدهم في المشهد الحالي ، قال اهل المنطقة : « غار » المنطقة الفلانية ، يعني فتيانها ورجالها الاشداء . وهــذه التسمية التقليدية هي المكافأة الثمينة لذلك الاخـــلاص الذي بذلوه للاحتفاظ بتقاليدالبلاد واخلاقها الغاليّة . لذا احتفظت حياتهم بآثار عميقة منعقائدالازمانالسالفة وطقوسها المطبوعةبطابـع الوهم والخرافة والتطير .

هناك ، لا تزال أعراف عهود « الاقطـــاع » سائدة مبجلة . هناك يرى تجار العاديات مباني الـ « درويد » قائمـــة . وهناك تلم رعشة الخوف بروح الحضارة الحديثةاذا ما حاولت ان تتغلغل في الاحراج العظيمة التي لا تزال على عهدها الاول .

ان الشراسة المذهلة ، والعناد الوحشي ، والصدق بالعهد ، وانعدام قوانيننا وعاداتنا وأخلاقنا ، ولباسنا ، ونقدنا الجديد ، ولساننا ، مضافاً اليها بساطة العصور السالفة ، والشمائل الناصعة والسجايا البطولية . تضافرت جميعاً لجعـــل سكان تلك السهول أقــل حظاً من الثقافة بأشكالها المختلفة ، من قبائل الموهيكان والهنودالحمر فيامريكا، علىتساوٍ معهؤلاء البدائيينفي السمووسعة الحيلة والقسوة.

وان المكان الذي تحتله بريتانيا في قلب اوروبا يجعلها أشد غرابة في أعين المراقبين من كندا .

---

(١) حين قدمت « مدام دوستال » بريتانيا لقضاء بضعة من ايام إبعادها عن باريس ، بامر من نابليون، استقبلها بعض سكان المنطقة قائلين باعجاب « يا للفارس النفيسة ! » وكاد يغمى على الكاتبة الشهيرة من الغم، لانها لم تكن تعلم ان معنى « غارس » هناك غير معناها في باريس ...

وهي ، والأنوار تحف بها من كل جانب دون ان يمسها دفؤها الخيّر ، اشبه شيء بفحمة متجمدة ، تظل سوداء قاتمة وسط موقد مضيء .

وكل ما بذله كبار الناس من ذوي الفكر النيّر من مساع لاكتساب هذا الجزء الجميل من فرنسا ، العظيم الغني بكنوزه المجهولة ، وفتح ابوابه لحياة المجتمع والرخاء، باء بالفشل، بما في ذلك جهود الدولة. فكل مسعى من مساعي التحضير لا يلبث ان يدركه الموات في ثنايا اللاحراك ذاك الذي مني بـه أولئك القوم ، وقد قيّدت حركاتهم بعادات قديمة ليس في الناس من يذكر بدءها . ويمكن رد أسباب هذا الطالع السيء الى طبيعة تلك الارض التي سعت فيها الاخاديد ومسايل الماء ، والبحيرات والمستنقعات . وهي مكسوة بحشد من الجدران كأنها الأبراج الترابية جعلت من كل معسكر قلعة ، والى حرمانها من الطرق والأقنية ، والى العقلية الجاهلة التي اتصف بها سكانها ، مستسلمين الى عاداتهم الخرقاء الموروثة التي سنشهد بعض تفاصيلها في مجرى هذه القصة . وقد كان من آثارها اعراض أصحاب تلك البلاد عن اتباع اصول زراعتنا الحديثة .

وقد حال تشكيل تلك الارض الطبيعي المعجِب، واستسلام أبنائها الى الخرافة والاوهام، دون تمركز الافراد في المجموعات السكنية المألوفة كالقرى والدساكر وما تجلبه حياة الجماعة من منافع المقارنـة وتبادل الأفكار . اما الأبنية المهلهلة التي يدعونها تجوزاً بالمساكن، فهي منثورة في المنطقة، تسكنها كل أسرة بانعزال عن الآخرين كأنها تعيش في صحراء. وما كانوا ليلتقون إلا في الاجتماعات السريعة الانقضاء التي خصصت للصلاة بأيام الآحاد او الأعياد الدينية .

تلك الاجتماعات الصامتة ، التي يشرف عليها راعي الكنيسة وبيده وحـده زمام تلك العقول الخشنـة ، ما كانت تدوم سوى ساعات ثم يؤوب الفلاح الى داره القذرة لينعزل فيها طوال اسبوع ، بعـد ان يكون قد ملأ سمعه بصوت الراهب الرهيب . يغادر داره ليعمل ، ثم يؤوب اليها لينام .

ولا زائر يزوره سوى راعي الكنيسة ذاك ، وقد غدا هو روح تلك المنطقة . وبفعل ذاك الصوت الذي أطلقه هـذا الراهب اجتمع ، للثورة ضد الجمهورية ، لخمس سنوات خلت ، ألوف الرجال ، قدمتهم هذه المناطق البريتونية جنوداً للوثبة الاولى .

وكان الاخوان « كوترو »، وهم من أشداء المهربين، يقومون بعملهم المحفوف بالاخطار، ما بين « لافال » و « فوجير »، وباسمهم تكنت تلك الحرب الداخلية .

لكن انتفاضات تلك المناطق لم يكن فيها شيء من بوادر النبل وان كانت مناطق « الفانديه » جعلت من اللصوصية حرباً فقد جعلت «بريتانيا» من الحرب لصوصية .

وما كان تحطيم الدين واقصاء الامراء من قبـل الجمهورية سوى الذريعة التي تذرع بها جماعات « الشوان » الثائرين للمضي في أعمال النهب والسلب . ورانت على الاحداث خشونة الطبائع المحلية وفظاظتها .

فاذا جاء حماة الملكية الحقيقيون ليجندوا فريقاً من سكان تلك المناطق الجهلة المتمردين ، فانهم عبثاً حاولوا حينما ارادوا ان يضفوا شيئاً من السمو والجلال على تلك الأعمال الثورية التي أحاطت الحركة الشوانية بهالة قاتمة من المقت والكراهية . وخلدت في أذهان الناس، كمثال نموذجي لذلك الخطر الكبير الذي يكمن دائماً في تحريض الجموع المتخلفة على الثورة في أي بلد من البلدان .

ان صورة اول واد تعرضها بريتانيا لعين المسافر ، واللوحة التي تمثل مشهد تلك المفرزة من المجندين المصادرين، ووصفَ الزعيم، الملقب بالـ « غار » ، واقفاً على قمة جبـل « البلرين » ، توجز للأذهان بأقصر طريق الصورة الأمينة لتلك المقاطعة وسكانها .

وفي وسع الخيال المجرب ، امام هاتيك التفاصيل ، ان يتصور مسرح المعارك وآلاتها : فهنالك كانت عناصرها .

الأسيجة المزهرة ، في هاتيك الاودية الحسان ، كانت ستاراً لعدو خفي .

كل حقل كان قلعة .. كل دوحـــة أضمرت شَرَكاً .. وخلف كل جذع من

جذوع الصفصافة العجوز كمنت مكيدة وأحبولة ، وميدان القتـــال كان في كل مكان .

والبنادق في زوايا الدروب كانت تنتظر عساكر الجمهورية . تجذبهم الفتيات الضاحكات الى فوهات الموت ، وهن لا يدرين ان ما يفعلنه من عمل الغادرات الخؤونات .

ثم يحججن ،برفقة الآباء والاخوة ، الى تماثيل من الخشب النخر ، طمعاً في الغفران ، وبحثاً عن مزيد من المكر والحيل . وكان دين اولئك المخاليق الجاهلة ، بـــل وثنيتهم ، تجرد سفك الدماء من كل شعور بالندم . وكذلك أضحى كل شيء في تلك الارض ، مذ ذر قرن القتال فيها ، خطراً دائم الوعيد ؛ الضوضاء كالسكون ، وليونة العفو كفظاظة الارهاب ، وداخل الدار كقارعة الطريق .

كانوا يغدرون بقناعة وايمان ، وحوشاً مجاهدة في سبيل الله والملك كشأن قبائل الموهيكان في المعارك الحربية .

لكن لا بد للمؤرخ ، إن شاء ان يكون واقعياً دقيقاً في تصوير النزاع ، ان يذكر ان المنطقة باسرها عادت ذات يوم ضاحكة الاسارير لينة الملامح بعد ان اعلن الجنرال « هوش » ، الصلح فيها ووقع ميثاقه . ولكم من اسرة ، كانت بالامس منقسمة ، يمزق بعضها بعضاً ، عادت في الغداة تتناول الطعام معاً دونما خطر ما تحت سقف واحد .

حين بدا لهولو ما باحت به فروة « مارش آتير » من صور الغدر الخفيـــة ازداد يقيناً بقرب انفصام ذلك السلام الهانىء الذي حققته عبقرية القائد هوش قبل ذلك بسنين . وبات يرى ان دوام ذلك السلام شي مستحيل .

وكذلك كانت الحرب تعود الى سيرتهـا الاولى ، لكن أشد عنفاً وقسوة ، بعد ان ركدت طوال سنوات ثلاث .

وبعد ان سارت الثورة الفرنسية في طريق اللين ، منـــذ التاسع من شهر ترميدور ، فها هي ذي تستأنف السير في طريق قد يعيدها الى طابع الارهاب

الفظيع الذي صرف عنها القلوب فكانت مقيتة في أعين الكثيرين من ذوي الفكر السليم .

ولعب ذهب الانكليز ، كدأبه ، دوره المألوف في مساندة الخصومات في فرنسا .

وبدت الجمهورية عاجزة عن مقاومة كل ذاك الحشد من الأعداء ، بعد سفر « بونابرت » ، وقد ظهر أنه هو وليها المنقذ . وكان آخر الاعداء ظهوراً أشدهم قسوة .

وها هي الحرب الداخلية تتخذ مظهراً جديداً من مظاهر الخطورة والجد ، وآية ذلك ما عقد جماعة الشوان النية عليه من مهاجمة هذه المفرزة الكبيرة .

تلك كانت الخواطر التي مرت في ذهن هولو منذ قرأ في قدوم مارش آتير المفاجىء امارات بيّنة لمكيدة ماهرة . ذلك لأنه كان هو وحده من أحس بالخطر الخفي .

وكانت فترة السكوت التي أعقبت عبارة هولو قد أتاحت للقائد ان يستعيد السكينة . فقد كاد منذ لحظات ، وهو المحارب القديم ، ان يهوي ، عاجزاً عن تبديد الغيوم التي غشيت مخيلته إذ تذكـّر الاخطار التي ارتكبت في حرب بلغت من الوحشية حداً قد يستنكره أكلة اللحوم البشرية .

حاول ميرل وجيرار ان يفسرا مخاوف رئيسهما ، التي لم يألفاها منه ، فأخذا يتأملان مارش آتير وهو منصرف الى التهام خبزه ، جالساً على حافة الطريق ، فلا يستطيعان تخيل صلة ما ، ما بين هذا الحيوان البشري وقلق القائد المقدام .

لكن هولو لم يلبث ان انبسطت أساريره حين استعرض في خياله ما قدمه من الجهود دفاعاً عن الجمهورية ، معاهداً نفسه ، وهو طيب النفس منشرح الصدر ألا يكون ضحية مكر الناعقين ، فلسوف يكشف عن ماهية ذاك الرجل المراوغ الذي اختارته الجماعة الثائرة للعمل ضده .

وقبل اتخاذ أي قرار ، راح هولو يدقق في الوضع الذي اراد أعداؤه ان يفاجئوه فيه . واذ رأى ان الطريق التي سلكها تمر في مضيق قليل الغور مكسو

بالادغال ، تنتهي اليه عدة دروب ضيقة ، قطب ما بين حاجبيه الكثيفين الفاحمين . ثم خاطب صاحبيه بصوت خافت بلغ به الثأثر مبلغه وقال :

– وقعنا في مصيدة خبيثة !

قال جيرار :

– وممَ تخاف ؟

قال هولو : – أخاف ؟!.. ثم تابع قائلاً :

– اجل ، كنت ولا أزال اخاف ان يباغتني الرصاص في منعطف الغابة ككلب شارد دون ان يصيح احد : مَن الحي !

قال جيرار : نحن اذن في خطر !

– صه ! اجاب القائد : اننا في حلق الذئب حيث لا نرى في ظلامه ابعد من انوفنا . ومن حسن حظنا اننا في اعلى المنحدر . ولعلي ان ارى في النهاية بشيء من الوضوح .

جذب القائد الضابطين نحوه . وطوق الثلاثة " الريفي". فنهض هذا متظاهراً بانه يتجنب مضايقتهم . فانتهره هولو دافعاً اياه بعنف الى حيث كان جالساً على العشب قائلاً له :

ـ مكانك ايها الارعن ! ومنذ هذه اللحظة لم يكفّ رئيس الفرقة عن مراقبة هذا البريتوني اللامبالي . وعاد الى مخاطبة الضابطين بصوت خافت قائلاً . ايها الصديقان ، لقد حان الوقت لتعلما ان «الدكانة» قد انهارت . فعلى اثر التبديلات التي جرت في « مجلس العموم » سدد الينا « مجلس المديرين » ضربة قاسية . فقد خسر مجلس الدمى الرعناء واحداً من خيرة قوادنا وسيفاً من امضى سيوفنا . فبرنادوت نفض يده من الجيش .

– ومن ذا الذي يخلفه ؟ سأله جيرار ، فأجاب :

– ميله مورو ، ذلك العجوز العتيق . لقد اختاروا اردأ وقت لتحريك احناكهم . الاشارات تنطلق قرب سواحلنا من بواخر الانكليز . وسكان « الفانده » والناعقون جميعاً في اوج المرح والتفاؤل . والذين هم وراءهم عرفوا اختيار اللحظة التي اشرفنا فيها على الهلاك .

قال ميرل :

– وكيف ذلك !

فأجابه هولو وصوته يزداد انخفاضاً :

– لقد خسرت جيوشنا في جميع النقاط ، وحجز الناعقون بريدنا مرتين . وما تلقيت برقياتي والمراسيم الاخيرة الا بواسطة رسول خاص ارسله برنادوت حال تخليه عن الوزارة . ومن حسن حظنا أن بعض اصدقائي كتبوا الي ، سراً ، عن هذا الانحلال الطارىء . لقد اكتشف فوشه ان الطاغيـة لويس الثامن عشر قد تلقى انذاراً من الخونة في باريس بوجوب ارسال رئيس الى اتباعه في الداخل . ويظن بعضهم بان « بارا » قد خان الجمهورية . وما عتم ان ارسل « بيت » [1] والامراء الى هنا احد النبلاء ، وهو رجل مقدام مقتدر ، يريد ان يقضي على الجمهورية بتوحيد جهود الناعقين وسكان فانده . ولقد نزل في موربيهان . وكنت اول من عرف ذلك واطلعت عليه « اذكياءنا » في باريس . ولقد خلع على نفسه اسم « الغار » . ان جميع هؤلاء البهائم (قال ذلك وهو يشير الى مارش آتير) يحملون اسماء لو دعي بها مواطن عاقل لاصيب بالزحار . وان مجيء هذا الناعق (واشار هولو الى مارش آتير) لينبئني بان « الغار » في المنطقـة في اثرنا . ولكن لا بأس ، فالقرد المجرب يعرف مـا يعمل . ستساعداني في اعادة عصافيري الى القفص ، وباسرع ما يمكن . وسأكون مغفلاً احمق ان فسحت المجال للنبيل القادم من لندن ليغدر بي .

وعندما اطلع الضابطان على هذه الظروف الخطرة السرية – وقد علمـا فيما مضى من حياة قائدهما انه لا يضطرب عبثاً – اتخذا موقفـاً حازماً كما يفعل المحاربون المجربون في حالة الخطر الشديد .

اقترب جيرار من رئيسه ليرد عليه ويطلب منه جميع الانباء السياسية التي بقي قسم منها مكتوماً عنه ، غير ان اشارة من هولو فرضت عليـه الصمت ،

---

(١) رئيس الوزارة البريطانية .

وراح الثلاثة يحدقون الى مارش آتير ، ذلك الناعق الذي لم يبدِ اي انفعال وهو يرى نفسه تحت رقابة مشددة معززة بذكاء هؤلاء الرجال الثلاثة وقوتهم الجسدية.

هذا النوع من الحرب بدا جديداً بالنسبة للضابطين اللذين بدأ فضولهما يتحرك حيال قضية لا تخلو من طابع قصصي. فراحا يتمازحان ، ولكن، لدى اول كلمة تلفـّظ احدهما بها نظر هولو شذراً وقال لهما :

– يا للصاعقة ، لا تزيدا النار وقوداً أيها المواطنان ، الغباوة خير من الجرأة في غير محلها . وأومأ الى جيرار ان يقترب منه . واذ فعل، أسر في أذنه قائلاً : اقترب من هذا الرجل بكل هدوء وكن مستعداً لأن تغمد سيفك في قلبه لدى أقل حركة مشبوهة. اما أنا فسأتخذ التدابير اللازمة لدعم الحديث اذا شاء هؤلاء المجهولون ان يتحدثوا إلينا باللغة التي يشاؤون .

أحنى جيرار رأسه طائعاً . ثم راح ينعم النظر في مناظر ذلك الوادي الذي ألفوه . اراد ان يتفحصها بدقة فمشى بدون تكلف . ولعل المناظر الطبيعية كانت أقل شيء نظر اليه. وتظاهر مارش آتير بأنه يجهل تماماً مناورة الضابط. فقد راح يلعب بطرف سوطه كأنه يصطاد السمك في حفرة .

وفيما كان جيرار يحاول ان يتخذ وضعاً امام الناعق همس القائد لميرل :

– اعط احد الضباط عشرة من نخبة الرجال. واذهب بهم وضعهم قريباً من قمة هـذه التلة حيث تنبسط الطريق وتتسع ويطل النظر على منحنى طريق « عرنه » ... واختر مكاناً لا تكتنفه الغابة وتسهل فيه المراقبة للعريف . وادع « مفتاح القلوب » فهو ذكي ... لا مجال للضحك !

وفيما كان الضابط ميرل ينفذ الاوامر باندفاع ملحوظ. لوح القائد بيده اليمنى طالباً السكوت التام من الجنود المحيطين به . وبحركة من يده أمر بحمل السلاح. فاذا استتب الهدوء نقل بصره بين طرفي الطريق مصغياً بانتباه وقلق كأنه يأمل ان يسمع حركة خفية او صليل اسلحة او خطوات تنبىء بمعركة منتظرة . وقد أنعم النظر كأنه يسبر غور الغابة في أعمق أعماقها . ولكنه لم يعد بأي دليل . فحص غبار الطريق، على طريقة المتوحشين ، عله يكتشف أثراً لأعدائه المختفين

الذين لا ينكر بأسهم . واذ خاب امله باكتشاف ما يبرر مخاوفه ، تقـــدم نحو منحنيات الطريق وتسنم التلال بعناية. ثم صعد على مهل الى القمم العالية، وفجأة تبين له مبلغ ما استفاده من خبرته ، لسلامة جيشه ونزل الى الطريق وقد ازداد وجهه تجهماً . وكان القواد في ذلـــك الحين يتحسرون لعدم استئثارهم بأخطر المهمات . واذ لاحظ الضباط والجنود اهتمام رئيسهم ، وكان يثير إعجابهم بخلقه الصارم المستقيم، اعتقدوا ان حذره الشديد ينبىء بخطر محدق. غير انهم عجزوا عن تقدير جسامة هذا الخطر . وان هم لاذوا بالصمت المطبق ، فذلك بالفطرة . وكالكلاب التي تحاول ان تتبين مقصد الصياد الماهر وتطيعه إطاعة عمياء دون ان يعطيها امراً جلياً، راحوا يتحرون بالنظر وادي كويسنون، وغابات الطريق، ووجه قائدهم المتجهم، محاولين ان يقرأوا فيه مصيرهم .

كانوا يتشاورون بالنظر ويتبادلون الابتسامات ذات المعاني الخفية .

فاذا كشر هولو ، تمتم « بو بييه : ذو القدم الجميلة »، مهرج الفرقة ، قائلاً : يا للشيطان ! ترى في أي مأزق نحن واقعون حتى يقابلنا هولو بهـــذا الوجه العبوس كأنه في مجلس حربي .

ألقى هولو على بوبيه نظرة قاسية فعاد السكون يخيم تحت الاسلحة المشهرة، ووسط هذا السكون الرهيب كانت خطوات الجنود، التي صاحت رمال الطريق تحت وطأتها ، تتحرك بايقاع رتيب يزيد في الانقباض العام . مثل هـــذا الشعور الذي لا حدود له لا يفهمـــه إلا الذين وقعوا فريسة انتظار فظيـع وأحسوا في سكون المساء بقلوبهم تزداد خفقاً لسماع حركة مريبة ، كلما عادت بحسها الرتيب سكبت الرعب في قلوبهم قطرة قطرة .

وبعد ان رجع القائد الى منتصف الطريق راح يتساءل : اتراني اخطأت ؟

وكان يتطلع وشرار الغضب يتطاير من عينيه الى مارش آتير الهادىء البليد. غير ان السخرية الوحشية التي استطاع الناعق ان يركزها في نظرة حقود نبهت هولو الى عدم التخلي عن اتخاذ التدابير الوقائية .

في هذا الوقت ، رجع ميرل الى قائده بعـــد ان نفذ اوامره . وكان الممثلون

الصامتون في هذا المشهد ، الشبيهون بألوف غيرهم من الذين جعلوا من هــذه الحرب افظع كارثة ، ينتظرون بفارغ الصبر انفعالات جديدة ، واذا بهم يرون بذهول جلاء النقاط المظلمة في وضعهم الحربي .

قال القائد هولو مخاطباً ميرل :

ـ لقد احسنا صنعاً ايها الملازم بوضعنا في مؤخرة الفصيلة عـدداً صغيراً من المواطنين . خذ عشرة من الجنود واجعل عليهم «لوبران». واتجه بهم سريعاً الى مؤخرة الفصيلة ليدعموا المواطنين وليساعدوهم في تحريك جماعة المجندين وحثهم لبلوغ المرتفع الذي يشغله الرفاق هناك . انني في انتظارك .

اختفى الضابط وسط الجيش . وتطلع القائد الى اربعة رجال عرفوا بحذقهم وخفة حركتهم فاستدعاهم باشارة حبية من كفه وقال لهم :

ـ لقد خدمتم معي تحت قيادة هوش يوم اعدنا الى الصواب اولئك اللصوص ، الذين يسمون انفسهم «قناصة الملك» وانتم تعرفون كيف كانوا يختبئون ليخدعوا الزرق ويعيدوهم .

حيال هذا التقريظ ، رفع الجنود الاربعة رؤوسهم عالياً كاشفين عن وجوه بطولية تنبىء ان آراءهم لم تتعد جعباتهم الخلفيـــة وحرابهم المشهرة منذ بداية الحرب بين فرنسا واوروبا . وبشفاه مزمومة تطلعوا الى قائدهم بانتباه .

اردف هولو قائلاً وكان بليغاً في استعمال لغة الجنود :

ـ لا يجوز لنا نحن الجنود الاقوياء ان ندع الناعقين يقلقون راحتنا . والا فلن يكون اسمي هولو. انتم الاربعة ستقاتلون على جانبي الطريق . اما الفرقة فستعلن النفير . هيا ، شدوا العزائم واحرصوا الا تخفضوا الحراسة، وانبئوني بمــا يجد بسرعة .

قال ذلك ودلهم على القمم الخضراء المشرفة على الدروب: وعلى سبيل الشكر رفع الجنود ايديهم ، مقلوبةً ، الى مقدمة قبعاتهم ذات الاطراف المسترخية على الجبين . وكان بين هؤلاء جندي يعرفه هولو معرفة جيدة يدعى العريف لاروز. هز بندقيته بعنف وقال :

- سنلقن الاعداء درساً قاسياً يا سيدي القائد .

وذهب الجنود الاربعة ، بعضهم باتجـــاه اليسار والبعض الآخر الى اليمين . وبتأثر خفي شيّع افراد الفرقة رفاقهم الاربعة الذين تواروا على جانبي الطريق . ولم يكن القائد هولوا قل منهم تأثرا ، فقد كان يخشى ان يكون ارسلهم الى موت محتم ، بل احس برعدة في جسمه عندما غابت رؤوس قبعاتهم عن ناظريه . وظل الضباط والجنود يصيخون السمع الى وقع اقدامهم المتلاشي على اوراق الاشجار الجافة ، وهم على اشد ما يكون من الهلع ، ولا غرابة في ذلك ، ففي الحروب غالباً ما يثير مشهد اربعة رجال يسيرون الى حتفهم الهلع في النفوس اكثر من رؤية الوف الموتى في ارض المعركة . وللملامح العسكرية تعابير متعددة تدعو الرسامين الى ابرازها احياء لذكريات الجنود وتمكين النفوس الآمنة من تفحص هذه الوجوه الحزنة . فالمآسي الفنية بالتفاصيل لا يمكن وصفهـــا الا بسيل من العبارات الطويلة .

ما كاد الجنود الاربعة يتوارون عن النظر حتى عاد ميرل وقد انجز اوامر القائد بسرعـــة . وببضع اوامر صف هولو رجال فرقته للمعركـة وسط الطريق ، ثم امر بتسلق قمة جبل بلرين حيث تتمركز فرقة صغيرة من الحرس الامامي . الا انه سار في المؤخرة وبخطى بطيئة ليراقب اقل طارىء على جميع نقاط هذا الاطار الفاتن من الطبيعة الذي جعله الانسان رهيباً مفجعاً . ووصل هولو الى حيث يقوم جيرار بحراسة مارش آتير الذي كان قد تتبع جميع مناورات القائد بعدم اكتراث في الظاهر ، إلا أنه راقب بانتباه شديد الجنديين اللذين توغلا في الغابة القائمة على يمين الطريق . وصفر ثلاث مرات او أربـع ، مطلقاً صرخات صافية نافذة تشبه نعيب البوم ، وهكذا كان المهربون الثلاثة المعروفون الذين تقدم ذكرهم يطلقون في الليل شيئاً من هــــذه الاصوات للتنبيه الى الاخطار التي تصادفهم والى كل ما يهمهم أمره . وذلـــك ما كان سبباً في تسميتهم الشوان ، ومعناها البومة بلغة تلك المناطق .

ثم أطلق اسم « شوان » في الحرب الاولى على الذين كانوا يقلدون الاشقاء

الثلاثة بالحركات والمظاهر .

واذ سمع القائد هولو الصفير الذي أطلقه مارش آتير وقف يحدق الى الرجل . وتظاهر بأنه خدع بمظهر اللامبالاة الذي أبداه ليحتفظ به كأداة تعكس تحركات العدو . وعلى هـذا الاساس أمسك هولو بيـد جيرار المرفوعة لدفع الناعق الى الامام ، ثم وضع جنديين على بضع خطوات من الجاسوس وأمرهما خفيةً ان يظلا على استعداد لاطلاق النار عليه لدى أقل اشارة تبدر منه ، اما مارش آتير فعلى الرغم من الخطر المحدق به ، لم يبد أي انفعال ، وقـد لحظ القائد الذي كان يتفحصه جيداً هذا التغلغل وخاطب جيرار بقوله :

ـ الطائر الغريد قصير المعرفة. ليس من السهل تبين أي شيء على وجه ناعق. إلا ان هـذا الذي امامناقد فضحته رغبته الملحة في التظاهر بالجرأة . أرأيت يا جيرار ، لو انه لعب دور الجبان الرعديد لكنت اعتبرته أبله ولكنا ، أنا وهو ، صنوان ، فقد كنت على وشك الوقوع في الخطأ . اننا عرضة للهجوم . فليأت الأعداء ، انا على استعداد لمواجهتهم الآن .

وبعد ان تلفظ القائد بهـذه الكلمات بصوت خافت وبلهجة المنتصر . فرك يديه وألقى على مارش آتير نظرة ثاقبة ثم شبك ذراعيه على صدره ووقف وسط الطريق بين الضابطين بانتظار نتيجة التدابير المتخذة. وراح ينعم النظر بهدوء في جنوده وهو مطمئن البال من جهة المعركة .

قال « بو بييه » بصوت منخفض :

ـ سيغنّي الرصاص بعـد قليل ، فالقائد يفرك يديه ..

ان الوضع الحرج الذي واجه القائد وجنوده من الاوضاع التي تهدد الحيـاة حقاً والتي يحرص ذوو العزم من الرجال ان يجابهوها بهدوء الاعصاب وانطلاق الأسارير اظهاراً لرجولتهم . وكذلك جعل القائد هولو ، وهو أدرى من مساعديه بالخطر المحدق ، نصب عينيه كرامته العسكرية ، فبدا هادئاً يرسل بصره الى جميع الجهات متأملاً مارش آتير والطريق والغابة . وبقلق خفي كان ينتظر انطلاق رصاص الناعقين ، وقد خيل اليه أنهم مختبئون كالجن حوله ، إلا انه ظل منبسط الأسارير . وعندما تعلقت عيون الجنود به انكمشت وجنتاه السمراوان والطرف

الايمن من شفته العليا واغمض عينيـه ، وتلك كانت بوادر ابتسامة القائد هولو بنظر جنوده . ثم ربت على كتف جيرار قائلاً :

– نحن الآن في فترة هدوء ، ماذا اردت ان تقول لي منذ حين ؟

– في أي مأزق جديد نحن الآن يا حضرة القائد ؟

– ليس الشيء بجديد ، فأوروبا ضدنا وستلعب دوراً مهماً هذه المرة . فبينما يقاتل أعضاء « مجلس المديرين » بعضهم بعضاً كالجياد الجائعة في الاسطبل ، وبينما ينهار كل شيء كالخرق البالية في الحكومة ، نجد القوات المحاربة بدون نجدة . لقد انهزمنا في ايطاليا ! اجل ، يا صديقي ، لقد أخلينا « مانتو » إثر كارثة « تريبيا » ، وها هو « جوبير » قد خسر معركة « نوفي » . املي ان يتمكن الجنرال « ماسينا » من الاحتفاظ بممراتنا في سويسرا التي اجتاحها « سوفاروف » . وقـد انهار جيشنا في « الرين » فأرسلت اليه حكومة المديرين بالقائد « مورو » . فهل يحمي هذا الارنب الحِذر الحدود ؟ ارجو ذلك . غير ان تكتل الحلفاء سيسحقنا . ومما يؤسف له ان القائد الوحيد الذي يستطيع ان يخلصنا هو هناك ، في مصر ، ترى كيف يتسنى لنابوليون بونابرت الرجوع وانكلترا هي سيدة البحار ؟ .

– غياب بونابرت لا يقلقني يا حضرة القائد .

بهذا اجاب الضابط الشاب جيرار ذي التفكير المتفوق والثقافة العالية ، واردف قائلاً :

– هل تقف ثورتنا بسبب غياب الجنرال ؟ آه ! ان مهمتنا ليست الدفاع عن اراضي فرنسا فحسب ، بل لنا مهمة مزدوجة تشمل الدفاع عن روح البـلاد ومبادىء الحرية السمحـة والاستقلال ، هذا الادراك البشري الذي ايقظته « مجالسنا » سينتصر رويداً رويداً على ما اعتقد . ففرنسا كسافر انيط به حمل المشعل ، تحمل مشعلها بيد وتدافع عنه باليد الاخرى . فاذا كانت انبـاؤك صحيحة ، فالبلاد وشرائعها على وشك الانهيار . فنحن لم نكن منذ عشر سنوات محاطين بمثل هذا العدد من الناس الذين يتوخون ضياع فرنسا .

فأجابه القائد هولو وهو يصعد الزفرات :

ـ اجل، لقد عرف اعضاء مجلس المديرين المغفلون كيف يتدبرون الأمر مع جميع الرجال الذين يحسنون ادارة دفة السفينة . لقد تخلى عنا برنادوت ، وكارنو ، والمواطن تاليران ذاته ، ولم يبق في الميدان سوى وطني واحد صالح هو صديقنا فوشه الذي يتلقى كل شيء من البوليس . هذا رجل ! ، كما انه هو الذي اخبرني في الوقت المناسب عن هذه الثورة ، وها نحن في الفخ ، انني متأكد من ذلك ، قال جيرار :

ـ اوه! لو ان الجيش خفف قليلاً من تدخله في شؤون الحكم لسبّب لنا النواب من المحن اكثر مما كنا عليه قبل الثورة : هل لمثل هؤلاء الصعاليك ان يحكموا ؟ فاجاب هولو .

ـ ما برحت متخوفاً من ان يتعاملوا مع آل بوربون ، يا لله ، ترى ماذا يحل بنا نحن اذا تم التفاهم معهم ؟

ـ لا، لا يا سيدي القائد، لن نصل الى هذا الحد ، فالجيش يرفع الصوت عالياً كما ألحت ، وفي يقيني اننا لم نجازف بأرواحنا طوال عشر سنوات في سبيل مكاسب وطنية لندع غيرنا يستمتع بها .

ـ اجل، لقد عانينا مشقات عظيمة في سبيل الحفاظ على أهدافنا.

وهنا قال الضابط ميرل:

ـ حسناً ، لنتصرف هنا كوطنيين صاقين ولنجتهد ألا ندع الناعقين يتصلون بسكان« فانده » اذ لو فعلوا ذلك وتدخلت انكلترا فقد لا أكفل نجاح قلنسوة الجمهورية التي لا انفصام لها .

في هذه اللحظة انطلقت صرخة بوم من مسافة بعيدة فانقطع مجرى الحديث . والتفت القائد ، وكان اشد قلقاً من الجميع ، نحو مارش آتير فلم ير على وجهه بريق حياة ، والجندون المتجمعون تحت قيادة ضابط كانوا أشبه بقطيع وسط الطريق على مسافة ثلاثين خطوة تقريباً من الفرقة المشتبكة في المعركة ، ووراء هؤلاء ، على مسافة عشر خطوات ، جنود ومواطنون بقيادة الضابط لوبران .

ألقى القائد نظرة على هذا الترتيب الحربي وحدق للمرة الاخيرة الى مجموعة الرجال المتمركزة في المقدمة على الطريق ، واذ اعجب بما رأى عاد فالتفت

ليعطي الامر بالزحف . وهنا رأى الشارات المثلثة الالوان على الجنديين العائدين بعد ان فتشا الغابة على يسار الطريق . وقد اراد القائد ان ينتظر عودة الكشافين الآخرين اللذين ذهبا ليفتشا الغابة الى اليمين . وقال لمساعديه إنه قد تنفجر القنبلة من هذه الناحية ، أي من الغابة التي اختفى فيها الكشافان المذكوران اعتبرا مفقودين .

فيما كان الجنديان العائدان يتلوان عليه ما يشبه التقرير عن مغامرتهما ، كفّ هولو عن النظر الى مارش آتير فأخذ يصفر بعنف بقصد ايصال صرخته الى مسافة عظيمة . وقبل ان يتمكن ايٌ من حارسيه من صفعه انهال عليهما بضربة سوط قلبتهما على حافة الخندق ، وفي اللحظة ذاتها فوجىء الجمهوريون بصراخ ، او بالاحرى بزئير وحشي ، تبعته فرقعة رصاص هائلة مصوبة الى المكان الذي سبق ان قعد مارش آتير فيه وجندل الرصاص ثمانية جنود او سبعة . وانطلق مارش آتير ورصاص الجمهوريين يسدد نحوه ولا يمسه . وتوغل في الغابة بعد ان تسلق المنحدر بسرعة ! فكان يتدحرج الى الهوة كالدولاب ، فظهر شكل جزمته الضخمة المحددة على غرار احذية القناصة الملكيين ، ولدى انبعاث الصرخات الاولى التي اطلقها الناعقون ، اندفع جميع المجندين الى الغابة ، يمين الطريق ، كأنهم رف من الطيور يطير لدى اقتراب المسافر . صاح القائد هولو :

ـ اطلقوا النار على هؤلاء الفارين .

واطلقت الفرقة النار على المجندين الفارين الذين عرفوا كيف يتحامون الرصاص بالالتصاق بالاشجار . وقبل انتهاء فترة تعبئة البنادق ثانيةً كان الهاربون قد اختفوا . وهنا خاطب هولو جيرار بقوله :

ـ تلك هي نتيجة المراسيم بتجنيد الفرق الاقليمية ! هه ! ينبغي ان يكون الانسان حيواناً كعضو من اعضاء ذلك المجلس ليعتمد على المصادرين للتجنيد في هذه البلاد .

ليت اعضاء الجمعية العمومية كانوا اقل سخاء بمراسيمهم السخية التي تغدق

الذخائر والمؤن والسلاح ، حبراً على الورق ، مقابل مدنا بقليل من ذلك بالفعل لا بالكلام .

– هؤلاء ضفادع يفضلون اللقمة على الذخيرة ، قال بوبيه أخبث جندي في الفرقـة . وما كاد يتلفظ بها حتى تصاعدت من الفرقة قهقهات وكلمات ساخرة بحق الفارّين . إلا ان السكوت عاد فساد المكانَ فجأة . فقـد شاهد الجنود القناصين اللذين كان القائد قد أرسلها لتفتيش الغابة الى يمين الطريق يهبطان السياج بكل صعوبة ، والاقل جراحاً منهما يسند رفيقهُ الذي كان يروي الارض بدمه . وكان الجنديان التعسان قد تمكنا من الوصول الى منتصف المنحدر عندما ظهر مارش آتير بوجهه الكالح ، فأرداهما برصاص بندقيته فتدحرجا الى الهوة . وما كاد رأسه الضخم يظهر حتى كانت فوهات ثلاثين بندقية قد صوبت اليه ، إلا أنه اختفى وراء الاشجار الكثيفة كالشبح .

هـذه الحوادث التي تتطلب الكثير من الكلمات جرت في وقت وجيز . وكذلك انضم الوطنيون وجنود حرس المؤخرة الى بقية الموكب بسرعة . وبأمر من القائـد سارت الفرقة الى الامام ، وسرعان ما وصلت الى المكان المرتفع واكتشفت مكان الوتد الموضوع كعلامة . إلا أنها لم تلحظ أي بادرة عدائيـة من قبل الناعقين وحسبت ان الهدف من هذه الضجة التي أثارها هؤلاء هو تحرير الجندين فقط ، وهنا خاطب هولو مساعديه بقوله :

– يبدو لي من الصرخات التي سمعناها ان عدد هؤلاء ليس كبيراً . بامكاننا ان نصل الى « عرنه » قبل ان يلحقوا بنا اذا حثثنا الخطى .

سمع هـذه الكلمات متطوع وطني خرج من بين الصفوف ومثل امام هولو وقال له :

– سيدي الجنرال ، سبق لي ان اشتركت في الحرب كناعق معاكس ، هـل تسمح لي بكلمة ؟

وقبل ان يجيبه بكلمة مال الى ميرل وأسرّ في أذنـه قائلاً ، وهو يشير الى الجندي :

– انه محام. والمحامون يحسبون انهم دوماً على منبر المرافعة .

ثم التفت نحو الجندي وأجابه :

– والآن رافع اذا شئت .

– أيها القائد ، ان الناعقين لا بد ان يكونوا حملوا معهم السلاح الكافي لهؤلاء الذين انضموا اليهم اليوم ، فاذا مشينا أمامهم يفاجئوننا في الغابة من كل ناحية ويقتلوننا جميعاً قبل ان نصل الى « عرنه » . ينبغي ان أرافع كما قلت . ولكن المرافعة لا تفيد بدون ذخيرة ، في رأيي ان يذهب احد الرفاق في طلب الحرس الوطني والفرق المرابطة في فوجير فتصل الى هنا قبل انتهاء المناوشة التي سيطول امدها اكثر مما تتصور ، واذ ذاك ستعرف اننا من سلالة العقبان وان كنا حديثي عهد بالجندية .

– في زعمك ان عدد الناعقين كبير اذن ؟

– احكم بنفسك ايها القائد المواطن .

قال ذلك وقاد الجنرال هولو الى مكان منبسط حيث التراب مبعثر كأنه محروث بالمعول . وبعد ان لفت نظره الى ذلك ، قاده الى طريق متربة حيث شاهدا آثار اقدام تدل على مرور عدد كبير من الرجال وقال الجندي :

– هؤلاء هم فتيان « فيتره » وهم ذاهبون للانضمام الى معسكر نورمانديا السفلى .

– ما اسمك ايها المواطن ؟

– غودان ، يا سيدي القائد .

– حسن يا غودان ، رقيتك الى رتبة عريف وستكون رئيساً لرفاقك المدنيين. يبدو لي انك رجل حازم . افوضك باختيار احد الرفاق لترسله الى فوجير ، اما انت فتبقى الى جانبي ، وقبل كل شيء اذهب مع رفاقك المجندين وجردوا رفيقيكم اللذين صرعا برصاص العدو من سلاحيهما وملابسهما .

وذهب ابناء فوجير ليجلبا متروكات القتيلين تحت حراسة الفرقة التي صوبت فوهات بنادقها الى الغابة ليتمكنوا من تجريد القتيلين دون ان يمس

احدهم باذى .

وذهب مبعوث غودان ، راكضاً في طريق ضيقة متعرجة في الغابة التي الى يسار الطريق . واستعد الجنود للمعركة ، وبعـــد ان استعرضهم الرئيس الأعلى ابتسم لهم ووقف على مسافة بضع خطوات من المقدمة مـع مساعديه المفضلين بانتظار هجوم الناعقين . وساد السكون مرة اخرى ، لكن لوقت قصير ، فقد سد احد منافذ الغابة من جهة اليمين ثلاثمائة ناعق لا تختلف بزاتهم العسكرية عن بزات الجنود المصادرين وجاءوا بدون نظام يحتلون الطريق امـــام اعين كتيبة الزرق الضعيفة ، وكانوا يطلقون صيحات مخيفة .

قسم القائد هولو جنوده الى صفين متعادلين كل منهما مؤلف من عشرة رجال ووضع في وسط هذين الصفين اثني عشر مجنداً جهزوا بالاسلحة باقصى السرعـة ووقف هو في المقدمة .

هذا الجيش الصغير الذي كان يحميه جناحان كل منهما من خمسة وعشرين رجلاً كانوا يقومون بمناورات على جانبي الطريق تحت إمرة جيرار وميرل . وكان على هذين الضابطين حصار الاعداء ومنعهم من التفرق والانتشار في ارجاء الغابة حيث يحتمي كل واحد منهم بحاجز او شجرة ليطلق النار على « الزرق » دون ان يخشى خطراً ليتضعضع الجمهوريون ويعجزوا عن مباغتة اعدائهم .

اتخذ القائد هولو هذه التدابير بالسرعة المرجوة وسار الجميع بصمت وثقة في النفس نحو الناعقين . وخلال دقائق قليلة من زحف الفريقين للتـلاقي ، تبادلوا النار ووقع ضحايا من الجانبين .

وفي الوقت ذاته وصل الجناحان الجمهوريان سالمين الى امكنة قريبـــة من الناعقين وفتحا ناراً حاميـة متواصلة نشرت الموت والفوضى في صفوف الاعداء وبهذه المناورة تعادلت الخسائر بين الجانبين غير ان الناعقين ذوي الطبع العنيد والصبر على المحن ، لم يتحركوا من اماكنهم ولم تخذلهم الخسائر التي منوا بهـا ، بل ازدادوا تلاصقاً ، واجتهدوا في تطويق الفرقة المتراصة امامهم كانها خليـة نحل حول ملكتها . واشتبك الجانبان في معركة رهيبـــة بالسلاح الابيض .

وباشتباك الاجسام والجرأة المتعادلة يكون العدد الاكبر هو مـــا يقرر النصر الاخير . وكان بامكان الناعقين ان يحرزوه لو لم يتمكن الجناحان بقيـادة جيرار وميرل من اطلاق زختين او ثلاث من الطلقات النارية حصدت مؤخرة الاعداء ، وقد كان يتوجب على الزرق من هذين الجناحين ان يظلوا محتفظين باماكنهم وان يستمروا في صيد اعدائهم بمهارة ، غير انهم تهيبوا المخاطر التي تحيق بالكتيبــة الباسلة ، وقد احاط بهـــا قناصو الملك من كل جانب . فهرعوا الى الطريق كالمجانين وخاضوها الى جانب الكتيبة معركة هائلة فاقت جميع المعارك ضراوة وفظاعة . وكل فريق منهما قدّر مـــا كان يحيق به من الخطر فقاتلوا بصمت رهيب . ووسط هذا الصمت لم يكن يسمع سوى صليل الاسلحـــة ، وحفيف الرمال تحت الارجل، وانين مخنوق يتصاعد من الجرحى والمحشرجين .

كان الجندون القلائل الباقون في الفريق الجمهوري يناضلون ببسالة فائقة حتى ان الجنود قاطعوا عدة مرات القائد الذي كان يعطي الاوامر والارشادات ، هاتفين لهؤلاء البواسل « عاش الجندون » .

وقد شاهد هولو اليقظ بين الناعقين رجلاً محاطاً ، مثله ، بالجنود ، هو ، ولا شك ، القائد . وبدا له ان من الضروري ان يتبين هذا الرجـل بوضوح . لكن محاولاته لتمييزه باءت بالفشل. ولقـــد رأى مارش آتير الى جانب قائده يعيد الاوامر بصوت اجش ، وبندقيته في نشاط مستمر .

اضاع هولو صبره امام هذه المشاكسات المتكررة . فاستل حربتـه وراح يطلق النار على الناعقين بهياج شديد وصاح في رجاله يستنهض الهمم حتى فرق تكتلهم. فاستطاع ان يرى الرئيس الاعلى لكن وجهه كان محجوباً بقناع من الجلد الابيض ، الا انه ، وقد فوجيء بهجوم صاعق ، اتى بحركة ، وهو يرفع قبعته بعصبية ، أتاحت لهولو ان يتبين وجهه .

ذلك الرئيس الشاب الذي لم يقدر هولو سنه باكثر من خمسة وعشرين عاماً ، كان لابساً سترة صيد من الجوخ الاخضر ، وفي حزامه الابيض عدة مسدسات. كان ينتعل حذاءاً مشبكاً بالحديد كالاحذية التي ينتعلها الناعقون ، وفي قدميه

مسهاوان[1] ترتفعان حتى الركبتين، وتتصلان ببنطال خشن. وكان ذا قامة مربوعة متناسقة ، وقد هاله اقتراب الجمهوريين منه فخفض قبعته وتقدم نحوهم ولكن ، سرعان ما احاط به مارش آتير وبعض زملائه خوفاً عليه .

خيل لهولو انه لحظ من خلال الرؤوس المحيطة بالزعيم رباطاً عريضاً احمر على مقلب السترة المفتوحة على صدر الرجل . وبعد ان ميز هذا الوشاح الملكي ، نقل بصره فجأة الى وجهه الذي سرعان ما غاب عنه في زحمة الاصطدامات وحرصه على تفقد جيشه الصغير وتطور الأعمال الحربية .

وبكل صعوبة استطاع هولو ان يلحظ عيني الرئيس البراقتين . لكنه غفل عن تبين لونهما ، ورأى شعره الأشقر ، وقسماته الدقيقة، وبشرة لوحتها الشمس، وقد لفته في الرجل نصوع عنقه العاري الذي زاده رباط العنق الاسود بياضاً . وقد بدا في صموده وحماسته وبسالته جندياً عريقاً يتصرف تصرف من يتوخى من المعركة النصر والعزة والثناء .

كانت يده تهز في الهواء سيفاً يلمع في الشمس ، وفي مظهره أناقة وقوة . وفي كل حركة من حركاته صورة عن حياة القصور الفرنسية . وكان في مظهره على عكس هولو الذي كان، وهو على بعد أربع خطوات عنه ، يعطي بدوره صورة حية عن بسالة الجمهورية التي يحارب من اجلها هذا الجندي الكهل ذو الوجه الصلب والبدلة الزرقاء ذات المقالب الحمراء وشارات الكتفين القاتمة المسترسلة وراء كتفيه والمعبرة تعبيراً صادقاً عن العوز والاستقامة .

لاحظ هولو الشباب الغض والوضع الجذاب فتحداه بقوله له :

ـ هيا يا راقص الاوبرا ، اقترب حتى أزهق روحك !

ثارت ثائرة الزعيم الملكي امام ذلك التحدي فاقترب من هولو مستبسلاً. وما كاد أتباعه يرونه يلقي بنفسه الى التهلكة حتى وثبوا على « الزرق » في هجوم صاعق وسمع صوت لطيف واضح طغى على ضجيج المعركة يقول :

---

(١) المسهاة : ما يلف حول الساق ليقيها . بالعامية : الطماقات .

ـ هنا فاضت روح القديس ليكور ، ألا تثأرون له ؟

هذه الكلمة السحرية ألهبت الناعقين فتحولوا الى كواسر صعب على جنود الجمهورية ان يصمدوا امامهم دون الاخلال باصول المعركة ، وقال هولو وهو يتقهقر خطوة فخطوة : لو لم يكن على رأس الملكيين مثل هذا الشاب لما كنا هوجمنا ، وهل سبق للناعقين ان خاضوا معركة ؟ لكن ، لا بأس ، لن يقتلونا كأننا كلاب على جوانب الطريق ، ثم رفع صوته وقال بلهجة صارمة مخاطباً جنوده : هيا ، يا أراني ، لن ندع العصابات تتصرف بنا كما تشاء .

وأضاف مخاطباً جيرار وميرل : استدعيا رجالكما وألّفا كتيبة . قفا في المؤخرة . وأطلقوا النار على هؤلاء الكلاب لنقضي عليهم .

نفذ أمر هولو بصعوبة ، اذ ، ما ان سمع الرئيس الشاب صوت عدوه حتى صاح بدوره : وحق القديسة خنة لا تتركوهم ، توزعوا يا جنودي .

لما انفصل الجناحان اللذان تحت امرة جيرار وميرل من المعركة ، كان وراء كل كتيبة فرقة من الناعقين تفوقها عدداً . وكان ان احاط لانسون ذوو جلود المعزى بجنود جيرار وميرل من كل جانب ، وهم يطلقون صرخات راعبة أشبه بالزئير . وقد انتهرهم بوبيه الجمهوري بقوله :

ـ السكوت أيها « السادة » . لسنا على استعداد للموت !

هذه الدعابة أيقظت بطولة الزرق وبدلاً من ان يقاتل الجمهوريون في نقطة واحدة راحوا يدافعون عن أنفسهم في ثلاثة امكنة مختلفة من سهل البلرين . وقد دوت أصداء صليل السلاح والطلقات النارية في الاودية الهادئة وكانت قوة الفريقين متعادلة ، فلم ترجح كفة النصر لأي منهما . كلا الفريقين استمات في القتال وكانت المعركة تزداد ضراوة عندما سمع صوت قرع الطبول من بعيد . وحسب مصدر الصوت ظهر ان القادمين يجتازون وادي كويسنون . وهنا صاح غودان بصوت حاد : حرس « فوجير » الوطني !

بانطلاق هذا الهتاف الذي سمعه زعيم الناعقين ورئيس أركان حربه قام الملكيون بحركة تقهقر فأطلق مارش آتير بصيحة وحشية ، سمرت لها

اقدامهم وبصوت خافت أعطى الرئيس بت مه اوامر نقلها مارش آتير الى الجماعة بلغة بريتانيا السفلى وبذلك تمّ تراجعهم بمهارة أدهشت الجمهوريين وقائدهم. فبموجب الأمر الاول انتظم الصحاح من الناعقين في صف واحد مكونين جبهة انسحب وراءها الجرحى وبقية الاتباع ليعبئوا بنادقهم ، ثم ، فجأة ، وبخفة اشتهر بها مارش آتير ، وصل الجرحى الى أعلى القمة التي تشرف على يمين الطريق ولحق بهم نصف الناعقين الذين اجتازوها ليصلوا الى القمة غير مظهرين للجمهوريين سوى رؤوسهم العنيدة . وهناك أقاموا حاجزاً من الأشجار وصوبوا فوهات بنادقهم على بقية الركب الذي انتظم في صف وفقاً لأوامر هولو الصارمة ليقيموا جبهة تضاهي جبهة الناعقين الذين تراجعوا على مهل ودافعوا عن مكانهم وهم يدورون على محورهم بطريقة تمكنهم من الانتظام تحت نيران بنادق رفاقهم .

وعندما وصلوا الى الهوة التي تحف بالطريق ، تسلقوا بدورهم المنحدر الذي يحتل أتباعهم احد أطرافه وانضموا اليهم متحاشين نيران الجمهوريين بمهارة وهم يصلونهم ناراً حامية ليملأوا الهوة بأجسادهم .

وفي هـــذه اللحظة وصل الحرس القومي الى مكان المعركة وبوصوله انتهت القضية . وقد اراد هــذا الحرس ، مع بعض الجنود ان يجتاز منعطف الطريق ليخوض المعركة في الغابة ، غير ان القائد أطلق صرخة قوية قائلاً :

ـ أتريدون ان تموتوا هناك ؟

وانضم القادمون الى فصيل الجمهورية على الساحة التي جرت فوقها المعركة والتي خسر فيهـا الجمهوريون عدداً كبيراً من رجالهم . اعتلت القبعات العتيقة رؤوس الحراب ، وارتفعت البنادق عالياً وصاح الجنود مرتين صيحة رجل واحد :

ـ عاشت الجمهورية !

حتى الجرحى الجالسين على جانب الطريق شاركوا في تلك الحماسة . وشد « هولو » على يد « جيرار » بانفعال وحماسة .

ثم عُهد الى « ميرل » بدفن الموتى في مجرى السيل الممتد على جانب الطريق.

كما اهتم بعض الجنود بنقل الجاريح. وصودرت عربات النقل والدواب من المزارع القريبة لحمل الجرحى الموجعين بسرعة فوق مخلفات القتلى .

ولقد سلم حرس فوجير الوطني الى القائد ، قبل ذهابهم ، جريحاً من العصاة مثخناً بجراحه كانوا ألقوا القبض عليه بكعب الطريق ذي الجوانب الشديدة الانحدار ، في المكان ذاته الذي انطلق منه العصاة هاربين ، مخلفين وراءهم هذا الزميل الذي خانته قواه المنزوفة فسقط .

قال هولو : شكراً لكم أيها المواطنون لما مددتم الينا من يد المساعدة !. وحق الصواعق لولاكم لقضينا دقائق رهيبة .. حذار ، تيقظوا ، فالحرب قد بدأت .. وداعاً أيها الشجعان !.

ثم التفت هولو نحو الجريح وقال له :

– ما اسم قائدك ؟

– الغار[1] .

– من ؟.. « مارش آتير » ؟

– كلا ، الغار .

– من أين جاء هذا الغار ؟

امام هذا السؤال لزم الناعق الصمت ، وقد ارتسم على وجهه الخشن الوحشي علائم الوهن الذي يحدثه الألم الشديد، وقد اخذ بسبحته يتلو عليها دعوات صلاته.

تمتم هولو قائلاً :

ـ الغار ، لا ريب ، هو ذاك المتأنق الشاب ذو العقدة السوداء ؟! انه هو رسول « الطاغية » ، ومبعوث حليفيه البريطانيين « بيت » و « كوبورغ » .

ـ بل مبعوث من عند الله والملك !

قالها الريفي بحدة اتت على البقية من قواه . فعلم القائد انه من العسير استجواب هذا الرجل المحتضر الذي كان كل مظهر من مظاهر ثباته وجلده ينم

(١) *Le Gars*

عما انطوى عليه صدره من التعصب الغامض . فحول رأسه مقطباً .

هناك تراجع جنديان بضع خطوات الى خلف ، وكانا من اصدقاء النفرين اللذين عجل بهما مارش آتير الى حتفهما على جانب الطريق بلسعة من سوطه . فسددا بندقيتهما نحو الجريح وعيناه ترمقان الفوهة بطرْف لا يختلج . واطلق الجنديان الرصاص عليه عن كثب فسقط .

فاذا اقتربا لانتزاع ملابسه صاح بصوت لا يخلو من العزم :

ـ عاش الملك !

ـ نعم ! ، نعم ، يا مكار ! اذهب الآن الى سيدتك « العذراء » الطيبة وتناول خبزك .

كذلك قال « مفتاح القلوب » ، واردف :

ـ الا ترونه كيف يزعق في وجوهنا : عاش الطاغية . ونحن نحسبه في مشواة جهنم !

مد بوبيه يده برزمة اوراق قائلاً :

ـ اليك يا سيدي القائد اوراق اللص .

وصاح مفتاح القلوب :

ـ تعالوا انظروا الى هذا الفرد من عساكر الرحمان الذي يزين بطنه بالألوان.

اقترب هولو وعدد من الجنود ليحيطوا بجثة القتيل وهي بكامل العري . فشاهدوا على صدره وشماً ازرق اللون يمثل قلباً لاهباً . وكان ذلك هو اشارة المريدين في جمعية « اخوّة القلب المقدس » .

ولقد استطاع هولو ان يقرأ تحت الشارة : ماري لمبركان ، وهو دون شك اسم ذاك الناعق .

قال بوبيه :

ـ أترى يا مفتاح القلوب ! لو ظللت ألف عام تبحث ، لما حزرت لأي شيء يفيد هذا الزي .

ـ وهل تراني فقيهاً بازياء البابا ؟

قال بوبيه :

- يا غبي ! أستقضي العمر دون ان تتعلم شيئاً. كيف خفي عليك انهم بشروه بالبعث بعد الموت . فصبغ صدره ليعرف نفسه يوم الحشر !

امام هذه الملحة التي لم تكن من دون أساس ، لم يستطع هولو كبح جماح مرحه فانخرط مع جنوده في ضحك صاخب .

كان ميرل قد أنجز مهمة دفن الموتى . اما المجاريح فقد جعلوا في عربتين على نسق لا يخلو من الفوضى . وحفَّ بالعربتين باقي العسكر ، بعد ان تولوا ترتيب أنفسهم على صفين يواكبان المحفتين المرتجلتين ، منحدرين على قفا الجبل المطل على «الماين» حيث يشرف الناظر على وادي « البلرين » المنافس لوادي «الكويسنون» بحسنه وبهاء مناظره .

تبع هولو جنوده بخطى وئيدة ، يرافقه صديقاه ميرل وجيرار ، وهو يمني النفس ببلوغ « عرنه » دون حادث ، حتى يتم اسعاف الجرحى .

تلك المعركة ، التي دعيت باسم الموقع الذي نشبت فيه ، تكاد تكون منسية في غمرة الاحداث الجسام التي كانت تتمخض بها فرنسا في ذلك العهد .

اما في المناطق الغربية فقد أثارت شيئاً من الاهتمام لما لمسه السكان من تبدل في الطريقة التي عاود بها الناعقون الحرب . وجلُّ الاهلين في تلك المناطق شغلهم هذا العصيان المسلح الذي اندلعت نيرانه للمرة الثانية ..

ففيما مضى لم يكن الناعقون ليقدموا على التصدي لفرق عسكرية بمثل هذه القوة .

تراءى لهولو ان الثائر الملكي الشاب الذي شاهده لا بد ان يكون هو «الفار» ذاك الذي أوفده الامراء الى فرنسا ليتولى مهام القيادة الجديدة .. وقد أخفى لقبه واسمه بكنوة من الكنوات ، الشهيرة بـ « باسم الحرب » .

ذلك ما جعل قائد الحملة قلقاً ، مثار الهواجس ، بعد نصره الحزين ، كما كان ساعة استراب بأمر الكمين. فتلفت مرات عديدة ليتأمل هضبة البلرين التي خلفها وراءه . وكان لا يزال ينبعث منها خافتاً ، على فترات متساوية ، قرع طبول

الحرس الوطني الهابط في وادي كويسنون ، بينما كان الزرق ، جنود الجمهورية ، ينحدرون في وادي البلرين .

قال هولو لصاحبيه فجأة :

ـ أبينكما من يدرك علـّة هجوم الناعقين ؟.. فان طلقـات البنادق بالنسبة اليهم تجارة . وأنا لم افهم بعد وجه الربح فيها .

وأردف يقول مصعّراً خده الايمن ، غامزاً بعينيه ليبسم :

ـ خسروا مائـة رجل على الاقل ، بينما نحن لم تبلغ خسارتنا ستين رجلاً . وصواعق السماء ! إني لعاجز عن ادراك مغزى هذه الصفقة التجارية . أفما كان في وسع اولئك الحمقى ان يعفونا من هجومهم فنمضي في سبيلنا كما تمضي الرسائل بالبريد . إني لا أرى الفائدة التي يجنونها بتثقيب اجساد رجالنا برصاصهم .

وأشار الى عربتي الجاريح بحركة حزينة من كفه . ثم أردف قائلاً :

ـ لعلهم ارادوا ان يصبحونا بالخير على طريقتهم .

قال ميرل :

ـ لكن يا سيدي القائد ، لقد آبوا من المعركة بعصافيرنا المائة والخمسين ..

قال هولو :

ـ لو ان هؤلاء قفزوا الى الغابـة كالضفادع لما حاولنا استعادتهم ، خصوصاً بعد رشـّة الرصاص الغادر التي قوبلنا بها . كلا ! كلا !.. إن وراء الأكمة ما وراءها .

وتلفت هولو صوب « البلرين » ، وما كاد يفعل حتى صاح :

ـ انظروا ، هل ترون ؟!

وبالرغم من ابتعاد الضباط الثلاثة عن ذلك النجد [1] المشؤوم ، فقد استبانت عيونهم المتمرسة ، بغير جهد ، مارش آتير وعدداً من جماعة الناعقين فوق ذلك النجد الذي احتلوه مجدداً .

---

(١) النجد : ما أشرف من الارض وارتفع .

صاح هولو بجنده :

ـ سيروا هرولة !.. افسحوا الخطو !.. حثوا الجياد لمزيد من السرعة .. ام ترى قوائمها قد تجمدت من البرد ؟! ام لعلها من فصيلة « بيت » و « كوبورغ »؟!

هاجت كلمات القائد فرقته الصغيرة فدب فيها النشاط .

قال هولو لصديقيه الضابطين :

ـ أما ذلك السر الذي يبدو لي غموضه صعب الاختراق، فنرجو الله يا صحابي ألا ينجاب عن وابل من الرصاص في « عرنه ».. اني لشديد الخشية ان يأتينا وشيكاً نبأ قطع الطريق الى مايان ايضاً من قبل اتباع الملك .

لم يكن امر تلك الخطة الحربية التي قفّ لها شاربا هولو ، في تلك اللحظة ، بأقل اثارةً لقلق ذلك النفر من الثائرين الذين لحهم القائد في أعلى النجد . فحالما انقطع طبـــل الحرس الوطني عن القرع وشاهد مارش آتير جنود الجمهورية في اسفل النجد الطويل الذي هبطوه ارسل من بين شفتيه صفيراً كنعيب الصدى [1] . فبرزت شخوص العصاة ، لكن أقل عدداً .

ورجح في ذهن هولو ان نفراً منهم كانوا منهمكين في ايواء الجرحى في قرية البلرين القائمة على سفح الجبل المطل على وادي كويسنون .

اقترب من « مارش آتير » زعيمان او ثلاثة من زعماء « قناصة الملك» . وعلى اربع خطوات منهم كان النبيل الشاب جالساً فوق صخرة من الغرانيت وبدا مستغرقاً في خواطره العديدة ، التي اثارها مـا ظهر من المشاكل والمصاعب في مشروعـــه .

جعل مارش آتير كفه على جبينه كافريز تتقي به عينـــاه وهج الشمس . وتأمل بحزن الطريق التي يسلكها الجمهوريون عبر وادي البلرين .

كانت عيناه الصغيرتان السوداوان الثاقبتان تحاولان اكتشاف ما كان يجري على المنحدر الآخر ، بأفق الوادي .

---

(١) الصدى : نوع من البوم عظيم الرأس ، أينما درت ادار رأسه قبلك .

قال احد الزعماء بصوت خشن ، وكان واقفاً قرب مارش آتير :
ـ سيصادر الجنود بريدنا .
وقال آخر :
ـبحق القديسة حنة الاورية ، لم حملتنا على القتال ؟ اكان ذلك لتنجو بجلدك؟
فالقى مارش آتير على صاحب السؤال نظرة تقطر حقـداً وضرب الأرض ببندقيته الثقيلة وقال :
ـ أأنا الرئيس ؟!
وبعد فترة من صمت اشار باتجاه الجنود واستأنف كلامه مخاطباً صحابه :
ـ لو انكم قاتلتم كما قاتلت انا لما نجا احد من اولئك الزرق .
قال ثالثهم :
ـ هل تظن انهم كانوا يقدمون على خفارة البريد اومنعه من السفر لو انناتركنا مركبته تمر بسلام ؟ لكنك اردت ان تنجو بجلدك ، جـلد الكلب ، لانك لم تكن تحسب الجنود قادمين .
ثم التفت نحو الآخرين واردف قائلاً :
ـ من أجل سلامة خطمه خلّ الخنزير دماءنا تنزف . وفوق ذلك فستضيع علينا عشرون الفاً من الفرنكات من الذهب الصافي !
ـ خنّوص ، وحدك !
كذلك صاح مارش آتير وهو يتأخر خطوات مصوباً بندقيته الى خصمه ، واستأنف قائلاً : ليس « الزرق » من تبغض ، بل الذهب هو ما تحب ، لسوف تنفق[1] دون « اعتراف » ايها القبيح اللعين الذي لم « يتناول » مرة واحدة طوال هذا العام !
اثارت الاهانة الريفي حتى شحب لونه ، فانطلق من صدره بغام كبغام الوحش المغضب بينما كانت يداه تتأهبان لرمي مارش آتير بالرصاص .
حال الزعيم الشاب بين المتخاصمين وبضربة من انبوب بندقيته القى سلاحها

(١) نفقت الدابة : ماتت (فطست) .

ارضاً . ثم سأل عن سر تلك المشاحنة ، فقد ظلت مغلقة عليه لتراشق الرجلين في حوارهما بكلمات من البروتونية السفلى ، وهي لهجة غريبة عليه !

قال مارش آتير في كلامه :

ـ يا سيدي المركيز ، ان ما يزيد تحاملهم علي بعـــداً عن الحق اني خلفت ورائي زميلنا بيل ميش لعله ان يجد الطريقة التي يمنع بها « المركبة » من الوقوع في مخالب اللصوص .

قال ذلك مشيراً الى الزرق ، وكانوا في نظر المخلصين للكنيسة والعرش ، جميعاً من جملة قتـــلة لويس السادس عشر ، وكانوا في عرفهم من اللصوص السفاحين .

صاح الزعيم الشاب مغضباً :

ـ كيف ! اذن ، فمن اجل الاستيلاء على مركبة تنتظرون هنا حتى الآن ، ايها الجبناء! يا من عجزتم عن تسجيل النصر في المعركة الاولى التي قدتها ! ولكن كيف يتم النصر بمثل هذه المآرب والسرائر . ايكون حمـاة الدين والعرش من اللصوص الناهبين ؟! وحق القديسة حنة الاورية ! ان ما نريد محاربته انمـــا هو الجمهورية لا عربات المسافرين ! ان الذين سيعودون منكم الى ارتكاب امثال هذه المعصية الشنيعة لن تكتب لهم مغفرة عند ربهم ولن يذوقوا ما اعد من الاطايب لاتباع الملك الصالحين .

انبعثت من الحاضرين جمجمة غامضة. وكان من السهل ان يرى المرء ان نفوذ الزعيم الجديد كان على وشك ان يكون مهدداً بين تلك الاقوام الفوضوية .

وبينما كان الشاب يحاول انقاذ هيبة القيادة ، وقد بدا له ما انطوت عليـه تلك الجمجمة من الخطر ارتفعت في خلال الصمت قرع حوافر جواد يعدو خبباً باتجـاههم .

استدارت الرؤوس بالاتجاه الذي خيـــل اليها ان الفارس آتٍ منه .. كانت امرأة في مقتبـــل العمر ممتطية ظهر برذون بروتوني صغير الحجم على طريقة «الامازون». وقد انطلقت مسرعةً لتدنو من جماعة الناعقين حين لمحت الزعيم الشاب .

قالت وهي تنقل نظرها ما بين الثوار ورئيسهم :

ـ ما بالكم !

ـ هل يخطر على بالك يا سيدة ، انهم ينتظرون المركبة القادمة من مايان الى فوجير ، بغية السطو عليها وما فيها ! وقد خرجنا لتونا من مناوشة لاطلاق فتياننا من أبناء فوجير ، فقتل الكثير من رجالنا دون ان نتمكن من تحطيم الزرق.

ـ وما وجه الخطأ في هذا ؟! أين الضرر ؟

سألت السيدة الصبية التي تكشف لها سر ذلك المشهد بما أوتيته من دقة الاحساس الذي حبت الطبيعة به المرأة .

واستأنفت قائلة :

ـ فقدتم عدداً من الرجال ؟! لن يعوزنا الرجال ابداً . اما البريد فانه يحمل مالاً ، وسنظل دوماً بحاجة الى المال !.. اما موتانا فسندفنهم في الارض ليصعدوا الى السماء ، واما النقود فسنأخذها لتدخل جيوب جميع هؤلاء الرجال الطيبين.. فأين وجه الصعوبة ؟

أيد الناعقون باجماع هذه الكلمات بابتسامات غمرت وجوه الجميع .

قال الزعيم الشاب بصوت منخفض :

ـ أليس في ذلك ما يثير الحياء في وجهك ؟! ام هل بلغ بك الاملاق الى درجة طلبه على الطرق ؟!

ـ بلغ بي الجوع الى المال ، أيها المركيز ، مبلغاً يكاد يحملني على رهن قلبي لقاء المال لو لم يكن أسير غيره ..

قالت ذلك وهي تبتسم بدلال .. ثم استأنفت تقول :

ـ من اين تراك آتياً حتى تظهر انك ستسخدم الناعقين دون ان تدعهم ينهبون هنا وهناك بعض الزرق ؟.. ألا تعرف المثل : أسرق من بومة ؟! .. وما هو « الناعق » ؟ .. ثم رفعت صوتها قائلة :

ـ أليس ذلك من الاعمال العادلة ؟.. أفلم يستول الزرق على اموال الكنيسة واموالنا ؟

استقبل الناعقون هذه الكلمات بجمجمة استحسان تختلف جداً عن تلك الطريقة التي أجابوا بها على كلمات المركيز .

انتحى الشاب بالحسناء جانباً وهو مربدّ الجبين . وقال لها باستياء شديد ، شأنَ الرجل المهـذب :

ـ اولئك السادة هل سيحضرون الى « الفيفيتير » في اليوم المحدد ؟

قالت :

ـ اجل . جميعاً : الأ نتيمي ، وجاك الكبير . وقد يحضر فردينان ايضاً.

ـ اسمحي اذن ان اعود من حيث اتيت ، اذ لا يسعني ان اقر امثال هذه الاعمال اللصوصية . ان ارتكابها بحضوري بمثابة اقرار لها من قبلي . نعم يا ستي ، قلت لصوصية .. أن يكون المرء هو هدف السارقين فقد يكون في ذلك شيء من النبل ، اما ...

فقاطعته قائلة :

ـ لا بأس ، آخذ انا حصتك وشكراً لك لتخليك لي عنها . فهذه الزيادة في حصتي ستكون خيراً وبركة بالنسبة الي. لشد ما تأخرت والدتي بموافاتي بالمال ، حتى كدت ايأس .

ـ وداعاً ! قالها المركيز بصوت منفعل لا يخلو من النعومة .

ثم اختفى عن الانظار ، غير ان السيدة أسرعت في اللحاق بـه وسألته لم لا يبقى معها ، وهي تحدجه بنظرة عميقة فيها تعالٍ وشغف واغراء ، قال الشاب:

ـ ألا تنهبون المركبة ؟

ـ ننهب المركبة ؟ ما هذا التعبير ؟! دعني اوضح لك الأمر ...

قال ، وهو يلثم يدها بكياسة مصطنعة :

ـ لو وجدني رجالنا هنا أثناء السطو على هذه المركبة فلن يوفروا دمي .

قالت بصوت نزق :

ـ لن يقتلوك ، بل يقيدوك بوقار يليق بمركزك . وبعد ان يفرضوا على الجمهوريين المساهمة الضرورية لجهازهم ومعيشتهم وما يشترون به البارود فسيطيعونك اطاعة عمياء .

ـ ورغم ذلك تريدين ان أكون القائد هنا؟ اذا كانت القضية التي ادافع عنها

في حاجة الى حياتي فاسمحي لي ان انقذ شرف المهمة الملقاة علي . إني بانسحابي من هنا أستطيع ان اتجاهل هذه الدناءة . ومن ثم أعود لاصطحابك .

قال ذلك مبتعداً بسرعة وهي تصغي الى وقع خطواته بانفعال ظاهر . واذ تلاشى حفيف الاوراق اليابسة تحت وطء أقدامه بدت في حيرة من أمرها ، ثم أسرعت نحو الناعقين، وبحركة تنم عن الازدراء قالت لمارش آتير وهو يساعدها على النزول عن الحصان :

ـ ان هذا الشاب يريد مهاجمة الجمهورية بحرب نظامية !.. لسوف يبدل رأيه بعد ايام معدودة .. ثم أردفت قائلة : يا للمعاملة التي لقيتها منه !..

جلست على الصخرة التي سبق للمركيز ان جلس عليها وانتظرت بهدوء وصول العربة :

لم يكن من النادر في ذلك العصر وجود سيدة نبيلة في دوامة المعارك الناشبة ما بين الملكيين والجمهوريين . تدفعها العاصفة العنيفة ويجرفها تأجج الحواس في تيار لم تكن شريكة في اثارته . كانت في ذلك ، اشبه بكثيرات من زميلاتها اللواتي انسقن إثر حلم غالباً ما كان يأتي بالثمار الطيبة . وكثيرات هن النساء اللواتي لعبن ، مثلها ، ادواراً ، بطولية ، او مشينة ، في الملمات . والملكية لم تجد لها مؤيدين اشد اخلاصاً ولا اكثر نشاطاً من اؤلئك النسوة ، غير ان اياً منهن لم تدفع ثمن اخطاء الاخلاص او ثمن سوء الاوضاع المنافية لطبيعة الجنس اللطيف ، بتكفير اشد قسوة مما ذاقته هذه السيدة اذ عجزت عن كتم اعجابها بولاء ذلك الزعيم الشاب لقضيته وحتى بازدرائه بها . ومن حيث لا تشعر استسلمت لحلم عميق ! خطرت لها ذكريات مريرة اعادت اليها اسفها على براءة سنواتها الاولى ثم أسفت لكونها لم تكن ضحية تلك الثورة التي كان زحفها ، المظفر ، حتى ذلك اليوم، يبدو اقوى من ان تقفه ايد كتلك الأيدي الضعيفة .

كانت العربة التي دخلت بشكل ما في هجوم الناعقين قد غادرت « عرنه » قبل بدء المناوشات بين الفريقين ببضع ثوان .

لا شيء يحسن ابراز مكانة بلد ما كأجهزته الاجتماعية وعلى هذا

الصعيد استحقت هذه العربة علامة مشرفة ، فالثورة نفسها لم تستطع ان تهدمها ولا تزال تجوب الشوارع حتى هذه الأيام . فيوم دفـــع الوزير « تورغو » ثمن الامتياز الذي حصلت عليه احدى الشركات في عهد لويس الرابع عشر لنقل الركاب من جميع انحاء المملكة . ويوم انشأ مشروع النقليات المعروفـة باسم « التورغوتين » ، كانت العربات القديمة تتكفىء على الارياف . وكانت احـدى تلك المركبات المهترئة تؤمن المواصلات بين مايان وفوجير . وقد دعاها بعض ذوي الرؤوس العنيدة بالتورغوتين محاكاة لباريس او تشفيـــاً من وزير جعل دأبه التجديد .

والتورغتين التي نحن بصددها عبارة عن عجلة قديمة بدولابين بالغي الارتفاع. يكاد صدرها يضيق بشخصين على شيء من الاكتناز . وما كانت ضآلة حجمها لتسمح باضافة اي زيادة الى حملها . وقد خصص لنقل البريد صندوق أعـــدّ في الوقت ذاته ليكون مقعداً للسائق . وكان على الركاب ان يجعلوا متاعهم بين اقدامهم المنهكة في علبة ذات شكل يذكر بالمنفاخ . وعبثاً كان يحاول ركابها ان يتصوروا لونها الأصلي فقد كان ذلك لغزها الذي لا يحل . ولها ستارتان من الجلد ، صعبتا المراس رغم طول الخدمة ، اعدتا لوقاية الركاب الصابرين من غائلة البرد والأمطار . وكان لا بد للسائق من الاشتراك في الحديث وهو مستوٍ على عرشه المرتعش ، ما بين ضحاياه من بني آدم ومن ذوي الاربع .

كانت العربة تحمل سمات عجيبة المحاكاة لسمات العجزة الهرمين الذين عانوا الكثير من الامراض ، والموت لا يزال يحترمهم ، انه يتضايق في سير العربـة ، يصرخ احياناً . وكسائح استولى عليـه النعاس يلتوي تدريجياً الى الوراء ثم الى الامام كأنه يحاول ان يقاوم عنف الجوادين البريتونيين الصغيرين اللذين يجران العربة في طريق وعرة . هذا الاثر التاريخي لعصر سابق كان يضم ثلاثة ركاب استمروا في حديثهم مع السائق منذ انطلاق العربـة من « عرنه » . وقـد سأل السائق رفاقه :

— كيف يمكن للناعقين ان يطلوا من هنا ؟ لقد قال لي ناعقو عرنه ان القائد

هولو لم يغادر بعد فوجير . فأجابه احد الركاب وكان أصغرهم سناً :

– آه ! ايها الصديق انك لا تخاف إلا على بدنك ، لو كنت تحمل مثلي ، ثلاثمائة دينار مع شهرة المواطن الصالح ، لكنت اقل اطمئناناً . فأجابه السائق وهو يهز رأسه : على كل حال فانك لثرثار . وقال الآخر : الخراف المعدودة يأكلها الذئب .

قائل هذه الكلمة الاخيرة ، كان يبدو ، بلباسه الاسود ، في الاربعين من عمره . وكان من الممكن ان يكون مرشداً في احدى الضواحي . ذقنه تتكىء على طبقتين من اللحم ولونه الزاهي مرده الى حياة الرهبنة . وعلى الرغم من بدانته وقصره كان يبدي بعض الرشاقة في كل مرة ينزل فيها من العربة او يصعد اليها

– لعلكم من جماعة الناعقين ؟!

هكذا صرخ الرجل حامل الدنانير . وكان يرتدي معطفاً واسعاً من جلد المعزى يغطي بنطالاً من الجوخ الجيد وسترة نظيفة تشير الى انه احد اثرياء المزارعين. واردف قائلاً :

– وحق روح القديس روبسبيير لن تلاقوا أي ترحيب مني .

قال ذلك ونقل بصره بين السائق والراكب وهو يشير الى المسدس الذي في حزامه .

اجابه المرشد بازدراء :

– البريتونيون لا يخافون . ومع ذلك ، هل يبدو علينا اننا نبغي مالك ؟

كان وجه السائق يتجهم كلما سمع لفظة مال او دراهم ، واما المرشد ، فقد كان من الذكاء بحيث ارتاب في كون مواطنه يحمل دنانير ، لا هو ، ولا الدليل .

سأل الراهب سائق العربة : هل تحمل مالاً يا كوبيو ؟

فأجاب على الفور : لست احمل شيئاً .

قبل ان ينتهي السائق من جوابه كان الراهب « غودان» قد ميز بين وجهي المواطن والسائق فوجدهما خاليين من سيماء القلق .

ورد المواطن الاول مخاطباً السائق :

– من حسن الحظ انك لا تحمل شيئاً . هكذا استطيع ان اتخـذ التدابير لانقاذ ما املكه في حالة الخطر .

هذه الدكتاتورية اغضبت كوبيو فاردف قائلاً بشراسة : انا سيد عربتي وبارادتي اقودك .

فقاطعه خصمه بقوله :

– أأنت مواطن ؟ .. أأنت ناعق ؟

– لا هذا ولا ذاك . انا حوذي بريتوني لا اخاف الزرق ولا النبلاء .

– يعني انك لا تخاف الناس الذين ينهبون الآخرين .

هنا اجابه المرشد :

– الناس لا يأخذون الا ما انتزع منهم .

وتبادل الراكبان النظر . لقد كان في مقر العربة راكب رابع يلزم الصمت العميق . لم يكترث به السائق ولا المواطن ، حتى ولا الأب غودان . وكان ، في الواقع ، واحداً من هؤلاء الركاب المتزمتين الاجلاف اشبه بثور عاقل يقاد ، مقيد القوائم ، الى سوق مجاورة . وقد اخذ كل منهم بالاستيلاء على نصيبه المعين من المكان، واستسلموا الى النوم دونما حياء ، بعضهم على اكتاف بعض وقد ترك السائق والمواطن والاب غودان الرجل لنفسه مستسلماً للنوم بعد ان لاحظوا انه من العبث التحدث مع رجل يدل وجهه المتحجر على انه امضى حياته في قياس البضائع وقد شغل فكره ببيعها بسعر اغلى من الكلفة .

هذا الرجل الضخم الجثة الملتف على بعضه في الزاوية كان من وقت الى آخر يفتح عينيه الزرقاوين ، وينقل بصره بالتوالي الى كل متحدث ، ويصغي بخوف وارتياب . إلا انه لم يكن يخاف إلا رفاق السفر ولا يأبه بالناعقين . فاذا نظر الى السائق خيل الى من يراهما انهما من جماعـــة الماسون . في هذه اللحظة بدأ اطلاق الرصاص في « البلرين » فوقف كوبيو عربته قلقاً . وبدا الراهب كأنه على علم بالأمر فقال :

– انها معركة كبرى ، وفيها خلق كثير .

قال السائق كوبيو :
- المهم يا سيد غودان هو معرفة من الذي يربح المعركة .
لدى هذه الكلمة علت جميع الوجوه امارات القلق وقال المواطن .
- لندخل العربة الى ذلك النزل ، هناك بانتظار نتيجة المعركة .
بدا الرأي وجيهاً فأخذ به كوبيو ، وساعد المواطن السائق في اخفاء العربة عن جميع الاعين وراء حزمة من الحطب وقد اغتنم المرشد فرصة سانحة ليسر في اذن كوبيو ما يلي : هل يحمل مالاً حقاً ؟
- آه يا سيدي غودان، لو دخل ما معه من المال في جيوبك لما شعرت بثقلها.
كان الجمهوريون مستعجلين للاستيلاء على عرنه ، فمروا أمام النزل دون ان يدخلوه . وعلى ضجيج زحفهم الحثيث تقدم صاحب النزل والاب غودان ، وقد اخذ بهما الفضول ، نحو مدخل الساحة ليريا الجمهوريين عن كثب . وفجأة هرع الراهب الجسيم نحو جندي بقي في المؤخرة وقال له : هيه ! يا غودان ! ايها المنيد، اهكذا ذهبت مع الزرق يا ولدي ؟ هل انت جاد ؟
- أجل يا عماه . لقد اقسمت ان ادافع عن فرنسا .
- أيها التعس ، انك تخسر نفسك : قال الراهب محاولاً ايقاظ روح العقيدة المتأصلة في قلب ابن اخيه البريتوني .
- يا عم ، لو ان الملك سار على رأس جيوشه فلن اقول ان . . .
- ايها الاهبل : من يحدثك عن الملك ؟ هل تحترم جمهوريتك الاديرة ؟ لقد هدمت كل شيء ، وعلى ماذا تعول ؟ ابق معنا . لسوف ننتصر اليوم او غداً . ولسوف تصبح مستشاراً في احد مجالس الأمة .
- في احد مجالس الامة ؟ الوداع يا عماه .
وهنا غضب العم على ابن اخيه وقال له مهدداً ، لقد حرمتك من ارثي ، لن تحصل من تركتي على فلس واحد ، فأجابه الجندي الجمهوري : شكراً .
وافترقا . وكانت الخمرة التي سكبها المواطن للسائق كوبيو اثناء مرور الجيش قد ذهبت بوعيه الا انه استفاق مسروراً عندما اعلن صاحب النزل ،

وقد اطلع على نتيجة المعركة : ان الزرق احرزوا بعض النصر . عنـدئذ اخرج كوبيو عربته الى الطريق وسرعان ما اخترقت اسفل وادي بلرين حيث كان من السهل رؤية المدينة المذكورة ومنبسطات «ماين» وبريتانيا، وهي اشبه ببقايا مركب يطوف على الأمواج بعد العاصفة .

اما الزرق ، فبعد ان وصلوا الى قمة منحدر يشرف عن بعـــد على بلرين ، التفت هولو الى الوراء ليرى الا يزال الناعقون مقيمين . وقد رأى حرابهم تلمع تحت اشعة الشمس الوهاجة . واذ القى نظرة اخيرة على الوادي الذي اوشك ان يقطعه ليدخل في وادي عرنه، خيل اليه انه يرى على الطريق الكبرى عربة كوبيو فسأل صديقيه :

ـ اليست هي عربة « مايان » ؟

نظر الضابطان مليا الى التورغوتين العتيقة فتبيناها بوضوح وقال هولو :

ـ ترى لماذا لم نلتقِ بها ؟

وتبادل الثلاثة النظرات وصرخ القائد قائلاً :

ـ هوذا لغز آخر ! ومع ذلك بدأت استجلي الحقيقة .

في هذا الوقت، تبين مارش آتير العربة، ودل رفاقه عليها فانطلقت قهقهات عالية ايقظت السيدة الشابة من حلمها ، فتقدمت ورأت العربة تقترب من مقلب بلرين بسرعة مشؤومة .

واخيراً وصلت التورغوتين التعسة الى المنبسط حيث كان الناعقون مختبئين فانقضوا على الفريسة بجرأة نادرة. اندس الراكب الصامت في قعر العربة والتف على نفسه محاولاً الظهور بمظهر صرة من الثياب . وهنا خاطب كوبيو الناعقين وهو يدلهم على الفلاح وقال :

ـ لعلكم شممتم رائحة المواطن الموجود هنا . انه يحمل كيساً مملوءاً بالذهب !

استقبل الناعقون هذه الأقوال بالضحك وهم يصرخون :

ـ بيل ميش ، بيل ميش ، بيل ميش !

وسط هذا الضحك الذي اجاب بيل ميش بمثله كالصدى، نزل كوبيو عن مقعده

بهدوء . وعندما ساعد جيبو الشهير باسم بيل ميش جاره على النزول من العربة، ارتفعت اصوات هاتفة باحترام :

ـ الاب غودان ! وما كاد يلفظ هذا الاسم المحترم حتى رفع الناعقون قبعاتهم عن رؤوسهم ، وجثوا امام الكاهن طالبين منه البركة فمنحها بوقار . وقال وهو يربت على كتف بيل ميش :

ـ انه لقادر ان يخدع القديس بطرس ويستل مفاتيح الجنة من جيبه . لولاه لاحتجزنا الزرق .

واذ وقع بصر الاب غودان على السيدة مال اليها ليحدثها . هــذا في حين كان مارش آتير يفتح على مهل صندوق العربة . وبفرح وحشي شاهد الكيس وقد بدا من ضخامته انه محشو بالذهب الرنان . وسرعان ما راح يوزعه . كل ناعق تلقى حصته بالضبط . وكان من العدالة في التوزيع بحيث لم يحدث اي خلاف بينهم ، ثم تقدم نحو السيدة والكاهن وقــدم لكل منهما نحو ٦٠٠ الف فرنك ، وسألت السيدة الاب غودان وهي تتوقع الموافقة : هل اقبل المبلغ براحة ضمير يا سيدي ؟

ـ ولم لا يا سيدتي ؟ الم تأمر الكنيسة سابقاً بمصادرة اموال البروتستانت ثم لسبب اهم ، امــوال الثوار الذين انكروا وجود الله وهدموا الكنائس واضطهدوا الدين ؟

وقرن الاب غودان القول بالعمل وهو يتقبل المبلغ من العملة الجـديدة الذي قدمه له مارش آتير وقال :

ـ استطيع الآن ان اكرس كل ما املكه للدفاع عن اسم الله والملك ، لقد ذهب ابن اخي مع الزرق .

واذ احتج كوبيو قائلاً انه في حالة يرثى لها ، قال له مارش آتير :

ـ تعال معنا فتنال نصيبك .

ـ ولكنهم سيظنون أنني مهدت للسرقة بارادتي اذا عدت اليهم بدون أي دليل على المقاومة . فقال له مارش آتير :

– أهذا كل ما تخشاه ؟ وباشارة منه انطلقت عيارات نارية ملأت العربة بالثقوب. وأثناء الطلقات ارتفع من العربة صوت استغاثة جعل الناعقين يتراجعون خوفاً ورعباً لأنهم كانوا من المؤمنين بالخرافات ، غير ان مارش آتير رأى رجلاً بوجه أصفر في زاوية الصندوق يقفز ويرتمي على الارض ، وكان هو الرجل الصامت الذي كان ما برح مختبئاً في جوف التورغوتين. وهنا خاطب كوبيو بقوله:

– اما زال في القن فرخة اخرى يا كوبيو ؟

فهم بيل ميش معنى السؤال فغمز من طرف خفي السائق فأجاب هذا :

– اجل ، إلا انني أضع شرطاً للالتحاق بكم وهو ان تدعوني اقود هذا الرجل الى فوجير سليماً معافى ، لقد تعهدت له بذلك باسم قديسة اوري .

– من الرجل ؟ قال بيل ميش .

– لا يمكنني ان اقول لكم من هو .

فقال مارش آتير لبيل ميش وهو يدفعه من ذراعه :

– دعه وشأنه ، لقد أقسم باسم قديسة اوراي ويجب ان يفي بوعده . ثم تحول نحو كوبيو وقال له :

– لا تهبط الجبل بسرعة ، سنلحق بك ، ولغرض ما ، اريد ان أرى أنف صاحبك قبل ان نعطيه جواز مرور .

في هذه الاثناء ، سمع وقع خطوات حصان يقترب من بلرين ، وما عتم ان ظهر الرئيس الشاب ، وبسرعة أخفت السيدة كيس الدراهم الذي كانت تحمله بيدها فقال لها الرئيس :

– بامكانك ان تحتفظي بالكيس دون أي تبكيت ضمير . وهذه رسالة وجدتها لك بين الرسائل التي كانت تنتظرني في فيفتيير ، انها من والدتك .

وبعد ان نقل بصره بين الناعقين العائدين الى مخابئهم في الغابة ، وحدق ملياً الى العربة التي تهبط وادي كويسنون . اضاف قائلاً :

– على الرغم من سرعتي لم أصل في الوقت المعين. ليت السماء تكذب ظنوني.

وبعـد ان فضت السيدة الرسالة وقرأت الاسطر الاولى منهـا هتفت قائلة :

– انه مال والدتي المسكينة .

انطلقت من انحاء الغابة قهقهات مخنوقة، حتى الشاب فانه لم يتمالك نفسه عن الضحك وهو يرى السيدة تحمل في يدها الكيس الذي يحتوي على حصتها مـن مالها المنهوب . وقالت للرئيس :

– حسناً يا حضرة المركيز ليتمجد اسم الرب، الآن أستطيع ان احتفظ بهذا المال بكل راحة بال . فأجابها :

– تخلطين الخفة في كل شيء حتى في تبكيت الضمير .

امتقع وجهها بحمرة الخجل وتطلعت الى المركيز بتوبة حقيقية جعلته يلين . وأعاد الكاهن بأدب المبلغ الذي سبق وقبله ثم تبع الرئيس الشاب الذي اتجه نحو الطريق التي جاء منهـا . وقبل ان تلحق السيدة بهما اعطت اشارة لمارش آتير فاقترب منها فقالت له بصوت خافت :

ـ تقدم نحو « مورتان » واعلم ان الزرق سيرسلون قريباً الى « ألنسون » مبلغاً كبيراً من المال لسد نفقات الحرب . واذا كنت قد تخليت لرفاقك عن صيد اليوم ، فذلك بشرط ان يعوضوا علي غداً . ان « الغار » لا يعلم شيئاً عن هذه الارسالية . قد يعترض . ولكن في الوقت المناسب استطيع ان ألينه .

واذ التحقت بالمركيز ، تخلت عن جوادها للكاهن وركبت خلف الرئيس على جواده فقال لها :

ـ يا سيدتي ، اصدقاؤنا في باريس كتبوا الي بوجوب الحذر ، فالجمهورية تريد ان تأخذنا بالخدعة وبالخيانة . فاجابت :

ـ لا بأس، لا بأس. لهؤلاء الناس افكار نيرة! فلسوف استطيع ان اشترك في الحرب وان اجد لي خصوماً .

ـ اعرف ذلك .. لقد حتم علي « بيشغرو » ان نكون حذرين متحفظين في صداقاتنا مع الجميع ، فالجمهورية تشرّفني باعتقادهـا باني اشد خطراً من جميع

سكان فانده ، وتعتمد على مواطن ضعفي لتستولي علي .

ـ وهل تحترس مني ؟ قالت له ذلك وهي تربت على قلبه بيدها التي تمسكت به . فالتفت نحوها مقترباً بجبينه منها فقبلته وقال لها :

ـ هل بلغت هذا الحد في تفكيرك يا سيدتي ؟

أردف الكاهن قائلاً :

– وهكذا سيكون بوليس فوشه أشد خطراً علينا من الجنود المتحركة ومن المعاكسين للناعقين .

– هو ما تقول يا سيدي الكاهن .

صرخت السيدة :

– هه، هه ! اذن ، فسيرسل فوشه النساء لمحاربتك؟ ثم أردفت قائلة بصوت خافت : انني لهن بالمرصاد ...

على مسافة طلقة رصاصة من منبسط الصحراء الذي تخلى عنه الرؤساء ، حصل حادث من الحوادث التي أصبحت مألوفة على الطريق . فلدى خروج بيل ميش ومارش آتير من قرية بلرين، اوقفا مرة ثانية العربة في خسفة الطريق. وقد نزل كوبيو عن مقعده بعد مقاومة ضعيفة ، والراكب الصامت الذي جره الناعقان من مخبئه وجد راكعاً وسط الوزال فسأله مارش آتير بصوت أجش :

– من انت ؟

واذ ظل صامتاً ركله بيل ميش وكرر عليه السؤال فأجاب وهو يتطلع الى كوبيو :

– انا جاك بينو تاجر قماش فقير .

أعطى كوبيو اشارة سلبية دون ان يخطر في باله ان يخون صاحبه ، وهذه الاشارة نبهت بيل ميش الذي صوب فوهة بندقيته نحو الرجل ، في حين وجه مارش آتير له هذا الانذار القطعي :

– انك كثير السمنة لتدعي الفقر والمسكنة ، ان أحوجتنا مرة أخرى الى السؤال عن اسمك الحقيقي ، فان صديقي بيل ميش ، بطلقة نارية واحدة ،

يكتسب امتنان ورثائك وشكرهم فمن أنت ؟
– انا دورجون من فوجير .
ضحك الناعقان وقال كوبيو للرجل :
– لست انا الذي أطلعتها على اسمك يا سيد دورجون ، تشهد لي السيدة العذراء بأنني دافعت عنك .
وأردف مارش آتير قائلاً باحترام ساخر :
– بما انك السيد دورجون من فوجير ، فسندعك تذهب بسلام ، لكن، بما انك لست ناعقاً صالحاً ولا ازرق حقيقياً ، ومهما كنت ، فأنت الذي اشتريت املاك دير جوفيني، وعليه ستدفع لنا ٣٠٠ دينار من فئة الست فرنكات كفدية، فالحياد يقضي بذلك .
وهنا ردد كل من المتمول التعس وبيل ميش وكوبيو بلهجة مختلفة :
– ٣٠٠ دينار من فئة الست فرنكات !..
وقال دورجون :
– آسف يا سيدي ، لقد انتهيت الى الخراب . ان القرض الاجباري بمئة مليون فرنك الذي فرضته جمهورية الشيطان أنقض ظهري وقادني الى الافلاس .
– كيف تستوفي جمهوريتك الضرائب منك ؟
– ألف دينار يا سيدي ، قال المتمول ذلك بذل ومسكنة ظاناً انه سينال اطلاق سراحه .
– اذا كانت جمهوريتك تبتز منك قروضاً واهية الى هذا الحد ، ألا ترى أننا ارحم بك منها؟ ان حكومتنا اقل ثراء وهي تقنع بثلاثمائة دينار فدية عن جلدك.
– ومن أين آتي بها ؟
– من صندوقك ، على ان لا تكون دنانيرك ناقصة وإلا أنقصنا من اظفارك في النار .
– أين ادفعها لكما ؟ فقال بيل ميش :
– ان منزلك الريفي في فوجير ليس ببعيد عن « جيباري » حيث يسكن

ابن عمي غالوب شوبين ، تستطيع ان تدفعها اليه . اجاب :
ـ هذا ليس عدلاً .
قال مارش آتير :
ـ ما همنا ؟ فكر انك اذا لم تدفع المبلغ خلال ١٥ يوماً ، فسوف تجدنا في زيارتك لنشفيك من آلام النقرس ان كنت تعانيها .
والتفت مارش آتير نحو كوبيو قائلاً :
ـ اما انت فستحمل منذ اليوم اسم « مين آبيان » أي « دليل الخير » .
بعد هذا ابتعد الناعقان وصعد المسافر الى العربة ، فاتجهت بسرعة نحو فوجير بفضل سوط كوبيو الذي خاطب رفيقه بقوله :
ـ لو انك كنت تحمل سلاحاً لكنا دافعنا عن أنفسنا .
ـ يا لك من عبيط ! انني أحمل في حذائي عشرة آلاف فرنك وهل يمكن الدفاع مع هذا المبلغ الضخم ؟
هنا ، فرك مين آبيان اذنه ونظر الى الوراء ، غير ان صاحبيه كانا قد اختفيا عن النظر .
توقف هولو وجنوده في عرنه لوضع الجرحى في مستشفى القرية الصغيرة ، ثم تابع سيره دون توقف الى ان وصل الى مايان ، حيث استطاع ، في اليوم التالي ، ان يحل جميع الشكوك حول البعثة . اذ ، في اليوم الثاني عرف السكان بنهب العربة ، وبعد مضي أيام قليلة ارسلت السلطات الى مايان عدداً كبيراً من المواطنين المكتتبين ليتمكن هولو من ملء المراكز الشاغرة في فرقته . ثم ما عتم ان توالت الاقاويل المقلقة عن الثورة التي عمت جميع النقاط حيث كان الناعقون والفانديون قد أنشأوا اثناء الحرب الاخيرة ، معاقل رئيسية لتلك المحرقة .

في بريتانيا كان الملكيون قد سيطروا على بونتورسون بقصد الاتصال بالبحر وقد سبق لهم ان استولوا على مدينة سان جيمس بين بونتورسون وفوجير التي كان في نيتهم ان يجعلوا منها ، مؤقتاً ، مقراً ، ومركزاً للذخائر والعمليات الحربية ، ومنها يتمكنون من الاتصال بالنورماندي وموربيهان دون خطر .

وكان الزعماء الثانويون يجوبون هذه البلدان الثلاثة لتحريض انصار الملكية وتوحيد صفوفهم . وكانت محاولاتهم تتجاوب مع الانباء الواردة من « فانده » حيث اسفرت مثل هذه الحركات عن إثارة سكان البلد تحت نفوذ الرؤساء الشهيرين الاربعة وهم السادة الاب فرنال ، والكونت دو فونتين ، ودوشاتيلون، وسوزانه . وكان الشفالييه دوفالوا ، ومركيز اسفرينيون ، والسادة ترواقيل ، على اتصال بهؤلاء الرؤساء الأربعة في ولاية «اورن». وكان رئيس مخطط العمليات الواسعة النطاق التي تدور ببطء لكن بحزم ومهارة هو « الغار » نفسه . والغار لقب اطلقه الناعقون على المركيز دومونتوران . وكانت المعلومات التي ينقلها هولو الى الوزراء صحيحة في جملتها . ولقد اقر الناعقون زعامة المركيز منذ اوفد من الخارج ليقود الانتفاضة . وجعلهم يدركون الهدف الحقيقي من الحرب واقنعهم بان الاسراف في الاعتداءات التي يرتكبونها تسيء الى القضية العامة التي يقاتلون من اجلها .

هذا الرئيس النبيل احيا بجرأته وبسالته وحنكته ومرونة طبعه ، آمال اعداء الجمهورية وانعش غرور سكان تلك المناطق ، حتى اقلهم نخوة ، فاخذوا يشتركون في تهيئة الحوادث الفاصلة لصالح الملكية .

ولم يكن هولو يتلقى اي جواب على طلباته وتقاريره التي كان يرسلها الى باريس . وكان في هذا الصمت الغريب ما يثير الشك بوجود ازمة ثورية . وعلى هذا الاعتقاد خاطب القائد العجوز معاونيه بقوله :

– اني مثل هذا الوقت يلزمون السكوت عن جميع الاسئلة والطلبات ؟

غير ان الشائعة التي انتشرت عن عودة الجنرال بونابرت ، وعن حوادث ١٨ برومير ، عادت الى الرواج ، ومنها فهم القادة العسكريون في الغرب معنى صمت الوزراء المطبق .

هذا ، في حين كان هؤلاء الرؤساء تواقين للتخلص من المسؤولية الملقاة عليهم . وقد دفعهم الفضول الى معرفة التدابير التي تتخذها الحكومة الجديدة ، وما كادوا يعرفون ان الجنرال بونابرت قد عين قنصلاً اول للجمهورية ، حتى غمرتهم

فرحة كبرى . فلأول مرة رأوا واحداً منهم يتسلم ادارة الشؤون . وقــد عم الفرح والرجاء فرنسا التي جعلت من هذا الجنرال الشاب معبوداً لها .

وتجدد نشاط الامة واستسلمت العاصمة، بعد تجهم الموقف، للأعياد والاحتفالات التي حرمت منها زمناً طويلاً. فأعمال القنصلية الاولى لم تخيب أي أمل ، والحرية لم تتزعزع . ووجه القنصل الاول نداءاً الى سكان غربي فرنسا ، وكان للكلمات التي وجهها الى الجماهير باسلوبه البديع ، تأثير عظيم في زمن الوطنية والعجائب . وكان صوته يدوّي في العالم كصوت نبي اذ ان أياً من نداءاته لم يكن لتكـذبه الاحداث . وهذا هو نص النداء :

أيها السكان

ان حرباً كافرة تلتهم ، مرة اخرى ، المقاطعات الغربية . وصانعو هــذه الاضطرابات خونـة باعوا انفسهم للانكليز او العصابات التي لا يعنيها من هذه الفوضى سوى تغطية اخطائها وشرورها .

حيال هؤلاء الرجال لا تلتزم الحكومة بأي مداراة او رحمـة او تطبيق لمبادئها السمحاء. وثمـة مواطنون اعزاء على قلب الوطن غرر بهم وهم جديرون بالاطلاع على الحقائق .

هنالك قوانين جائرة وضعت ونفذت ، واجراءات اعتباطية اساءت الى امن المواطنين والى حرية التفكير والرأى . وفي كل مكان سُجلت في لوائح المهاجرين الاسماء اعتباطاً وتناولت عدداً من المواطنين بغير حق . وكذلــك انتهكت مبادىء عظمى من مبادىء المجتمع .

فعملاً بالدستور الضامن لحرية العبادات . فان قناصل الجمهورية يعلنون نفاذ قانون الحادي عشر من شهر «بريريال» للسنة الثالثة ، الذي اباح للمواطنين استعمال الاماكن المعدة للعبادة .

ان الحكومة تعلن العفو عن التائبين ، العفو التام الناجز المطلق . ولسوف تضرب بيد من حديد أي انسان يجرؤ ، بعد هذا البيان ، على مقاومة السيادة الوطنية . انتهى .

بعد ان قرأ هولو الخطاب القنصلي علناً ، خاطب معاونيه قائلاً :

ـ ألا تجدون فيه نفحة من الابوة ؟ ومع ذلك ، اراهن ان أياً من أفراد العصابات الملكية لن يغير رأيه .

كان القائد على حق ، فالنداء لم يسفر إلا عن تشبث كل انسان بحزبه . وبعد بضعة ايام ، تلقى هولو وزملاؤه النجدات . وأنبأهم وزير الحربية الجديد بأن الجنرال برون اختير لتسلم قيادة جيوش غربي فرنسا، اما هولو ، وهو المعروف بخبرته العسكرية ، فقد أسندت اليه مؤقتاً القيادة في اورن ومايان .

لقد عم النشاط جميع أجهزة الدولة ، وصدر بلاغ لوزير الحربية ووزير الشرطة العامة جاء فيه ان قوانين صارمة قد اتخذت لخنق الفتنة في مهدها .

غير ان الناعقين والفانديين كانوا قد استفادوا من جمود الجمهورية ، فأثاروا سكان الارياف واستولوا عليها بكاملها .

ووجه القنصل الاول نداءاً جديداً الى الجنود هذا نصه :

أيها الجنود :

لم يبق في الغرب سوى عصابات ومهاجرين وأجراء لانكلترا .

ان الجيش مؤلف من أكثر من ٦٠ ألفاً من الجنود البواسل . وحذار ان أسمع بعد اليوم ان رؤساء المتمردين لا يزالون يعيشون !.. ان المجد لا يؤخذ إلا بالجهد والكد . ومن ذا الذي لا يحرز المجد اذا كان احرازه يتم بحصر القيادة العامة في المدن الكبرى ؟

يا رجال الجيش من كل رتبة !

ان امتنان الامة بانتظاركم ، ولاستحقاق امتنان الامة ينبغي ان تستهينوا بتقلبات الفصول ، بالجليد والثلج وبرد الليالي المتزايد . ينبغي ان تفاجئوا اعداءكم في فجر النهار وتبيدوا هؤلاء الرعاع الذين دنسوا اسم فرنسا .

لتكن معارككم قصيرة ومحكمة . لا ترحموا العصابات والزموا النظام الصارم.

يا جنود الحرس الوطني ، ضموا جهودكم الى جهود جنود الخطوط .

فان اكتشفتم بينكم رجالاً ينتمون الى العصابات فاقبضوا عليهم ! لا ملجأ في

أي مكان لمن يلاحقه جندي ، فان تجرأ خائن على الدفاع عنه او على ايوائـــه فليقتل معه ! انتهى .

قال هولو بعد ان قرأ النداء :

ـ يا له من ماكر ! لا يزال يفعل كما كان في حملة ايطاليا اذ كان يدق جرس القداس ثم يقدس .. هذا كلام رجل !

اجاب جيرار وقد بدأ يتخوف من مضاعفات الثامن عشر من شهر برونير :

ـ اجل ، الا انه يتكلم وحده وباسمه .

وقال ميرل :

ـ ما هم ذلك طالما انه عسكري .

على بعد بضع خطوات تجمع عدة جنود أمام البلاغ الملصق على الحائط ومـا بينهم من يعرف القراءة ، فاكتفوا بالتفرج عليه ، بعضهم ينظرون دون اكتراث والبعض الآخر باهتمام واثنان منهم راحا يفتشان بين المارة عن مواطن تدل سماته على انه عالم .

قال بوبيه لرفيقه مفتاح القلوب مغمغماً :

ـ لننظر ما في هذه القصاصة من الورق . أجاب :

ـ انا احزر ما فيها بسهولة .

لدى سماع هذا الكلام. نظر الجميع الى الرفيقين اللذين كانا دوماً على استعداد تام للعب دوريهما .

واردف مفتاح القلوب قائلاً ، وهو يشير الى اول كلمة في النداء :

ـ هذا يعني انه يتوجب علينا نحن الجنود ان نمشي بثبات مشية عسكرية ! لقد طبعوا على النداء رسم البيكار مفتوحاً ، ذلك هو الشعار .

فقال له بوبيه :

ـ لست اهلاً لان تكون عالماً يا بني ان هـــذا ليس شعاراً بل مسألة لقد خدمت زمناً في المدفعية ولم يكن رؤسائي يتفذون الا من أمثال هذه الاشياء .

ـ انه شعار (بالفرنسية امبليم) .

ـ لا ، بل مسألة (بالفرنسية بروبليم) .

ـ فلنراهن !

ـ على ماذا ؟

ـ على غليونك الالماني .

ـ موافق .

ـ وكان الضابط جيرار يتبع هولو وميرل مفكراً حين خاطبه مفتاح القلوب بقوله :

ـ غير مأمور يا سيدي العريف قل ، اليس هذا « شعاراً » وليس مسألة ؟

قال العريف :

ـ انه هذا وذاك . فقال بوبيه :

ـ ان العريف يهزأ بنا ، هذه الورقة تعني ان قائدنا الذي كان في ايطاليا قد اصبح قنصلاً وهي درجة سامية ، واننا سنحصل على معاطف واحذية .

الفصل الثاني

فكرة لفوشّه

في اواخر شهر برونير ؛ فيما كان هولو يشرف صباحاً على مناورات فرقته التي احتشدت بكاملها في مايان بناءاً على اوامر عليا ، اقبل رسول خاص من ألنسون وسلمه برقية ، ما كاد يطلع عليها حتى تجهم وجهه .

دس الأوراق داخل قبعته وقال :

– هيا ، الى الأمام ، لتذهب معي فصيلتان باتجاه مورتان ، فالناعقون هناك . وقال لميرل وجيرار : وانتما سترافقانني . ثم اردف قائلاً :

– ليتني فهمت كلمة من البرقية !.. لست اكثر من بهيمة ! على كل حال فالى الأمام ! فلا وقت للضياع .

واذ سأله ميرل عما ورد في البرقية اجاب :

– يا للصاعقة ! ليس فيها غير المزعجات .

قال ذلك بلهجة تنم عن الغضب المكتوم. فما كان من مساعديه جيرار وميرل الا ان لزما الصمت مترقبين النتائج. وهما يقرءان في ملامح هولو ، درجة انفعاله وانشغال باله ، وقد أضحت ملامحه هي الميزان العاطفي الذي يقرأ فيه ضباطه وجنوده انفعالاته ، كما تقرأ حالة الجو في ميزان الضغط الجوي . ولقد بدت آثار الجدري ، التي كانت تعلو وجه هذا المحارب الكهل ، أكثر وضوحاً . ولون بشرته بدا اشد اكفهراراً . وفيما هو جامد في مكانه ، شابك يديه بقوة على صدره ، جازف جيرار بطرح السؤال عليه :

– هل نذهب الآن ؟ اجاب :

– اجل . اذا كانت الذخيرة عامرة .

– هي كذلك .

وباشارة من رئيسه ألقى جيرار الأوامر التالية :

– سلاح ! الى الامام يساراً ، سر !

سار حامل الطبول في مقدمة كل من الفصيلين . وعلى قرع الطبول اخذ القائد يستيقظ شيئاً فشيئاً من غفلته . خرج من المدينة بصحبة صديقيه ميرل وجيرار اللذين تبادلا النظر دون كلام كأنهما يتساءلان : هل سيطول أمد هذا الانقباض؟ وفي الطريق كانا يختلسان النظر الى هولو الذي استمر في تمتمة كلمات مبهمة ، كان بعضها يطن في اذن الضابطين كالشتائم . إلا ان احداً منهما لم يجرؤ على التلفظ بكلمة واحدة . ففي بعض الظروف كان الجميع يعرفون كيف يحافظون على الانضباط الصارم الذي اعتاده الجنود الذين كانوا فيما مضى في ايطاليا تحت قيادة بونابرت ، ومعظم هؤلاء الجنود كانوا على شاكلة هولو ، وما تبقى من هذا الفصيل الشهير من الجنود صودروا في ماينس بوعد رسمي ألاّ يُستخدموا على الحدود ، وقد أسماهم الجيش « المايسنيون » وكان من الصعب إيجاد جنود ورؤساء أكثر تفاهماً فيما بينهم .

غداة يوم الرحيل وجد هولو وصديقاه أنفسهم على طريق ألنسون في مكان مجاور للمدينة المذكورة ، باتجاه مورتان وفي الجزء الذي يحاذي المراعي الخصبة من الطريق . وكانت المناظر الجميلة من تلك المروج تمتد تدريجياً الى اليسار في حين تغطي جهة اليمين احراج كثيفة تتصل بغابة « منيل – بروست » الواسعة .

على جانبي الطريق حفر انجرف ترابهـا الى الحقول وشكل كثبانا توجت بـ «الأجون» ، وهو اسم اطلقه سكان غربي فرنسا على نوع من الوزّال الشائك. وهي شجيرات حرجية تتكاثر وتشكل في الشتاء علفاً ممتاز للجياد وللقطعان. وما دامت قائمة على سوقها كانت تتخذ ستاراً يختبىء وراءه الناعقون . وهي تعلن للمسافر عن اقترابه من بريتانيا . وتجعل هذا الجزء من الطريق اشد خطراً مما هو جميل بمناظره . وكانت المخاطر التي تحف بالمسافة من مورتان الى ألنسون

فالى مايان هي سبب رحيل هولو وسر الغضب الذي بدر منه . وكان يواكب عربة عتيقة تجرها خيول يشجعها الجنود المتعبون على المشي ببطء .

كانت الفصائل المنتمية الى حامية مورتان والتي كانت قد رافقت هـــذه العربة المخيفة حتى حدود معسكرها حيث جاء هولو يحتل مكانها في الخدمة ، قد رجعت الى مورتان وظهرت عن بعد كنقط سود .

احدى فصيلتي هولو تمركزت على بضع خطوات الى الوراء ، والثانية امام العربة ، وقد وجد القائد نفسه بين ميرل وجيرار وسط مقدمة الجيش والعربة فقال لهما :

ـ يا لألف صاعقة ! هل خطر لكما ان الجنرال بونابرت قد فصلنا عن مايان لنخفر هاتين السيدتين في العربة ؟ قال جيرار :

ـ ولكنك يا سيدي القائد حييتهما منذ حين بكل لباقة .

ـ تلك هي المراوغــة ، ألم يوصنا القادة في باريس بحسن معاملة الانثيات ؟ وهل يجوز اذلال وطنيين محترفين مثلنا يجعلنا حاشية للابسات الفساطين ؟ مـن جهتي سأتابع طريقي لأني لا احتمل ازعاجات الآخرين. عندما شاهدت عشيقات دانتون وعشيقات بارا قلت لهما : « ايها المواطنان ، عندما اختارتكما الجمهورية لتسلم الحكم لم يكن ذلك لتأذنا بعودة ملاهي النظام القديم » .

قد تجيبان على هذا بأن النساء ... ها! لا بد من النساء، يلزم نساء للبواسل، نساء صالحات .

ولكن ، هن دائماً أصل السبب عند الخطر . وما الفائدة من ازالة مساوىء العهد الماضي اذا كان الوطنيون يستعيدونها كما كانت ؟ تأملوا في القنصل الاول ، هذا رجل حقاً ، ليس عنده نساء . له دائماً ما يشغله عنهن ، انني أراهن بشاربي الايسر انه يجهل العمل المشين الذي كلفنا به هنا .

أجابه ميرل ضاحكاً :

ـ الحقيقة يا سيدي القائد أنني لمحت انف السيدة الشابـــة الجالسة في آخر العربة . وأعترف بأن أي رجل يشعر مثلي ، غـــير ملوم ، بشوق جارف الى

الاقتراب من العربة والتحدث الى ركابها .. فانتهره جيرار بقوله :

- حذار يا ميرل ، برفقة السيدتين مواطن يعرف كيف ينصب لك الشراك.

- من ؟ هذا الغريب الذي ينقل بصره بين طرفي الطريق كأنه يرى الناعقين حوله؟ هذا الغاوي الذي نكاد لا نرى ساقيه، والذي تخفي العربة قوائم جواده؟ لو عنّ لهذا المغفل ان يمنعني من مغازلة عصفورته !

- مغفل ! عصفورة ! آه يا عزيزي ميرل ! انك واهم. لا تستسهل مظهره ، تبدو لي عيناه الخضراوان أشد مكراً من عيني الأفعى وأشد مكراً من عيني زوجة تغفر لزوجها خياناته... انني لأخشى الناعقين أقل من خشيتي امام رجال القانون هؤلاء ذوي الوجوه الشاحبة كأباريق الليمون .

- لا بأس . انني أغامر ! لهذه المرأة عينان كالنجوم تجوز المجازفة من أجل رؤيتها .

قال جيرار موجهاً الكلام للقائد :

- لقد افتتن بها وبدأ يهذي .

هز هولو كتفيه وقال :

- سأنصحه بشم الحساء قبل أكله .

واردف جيرار متحدثاً عن ميرل الذي كان يحاول الاقتراب تدريجياً من صندوق العربة . الشاطر ميرل ! انه طروب ! انه الرجل الوحيد الذي بامكانه ان يضحك من موت رفيق دون ان ينعت بقساوة القلب .

وقال هولو جاداً :

- انه الجندي الفرنسي الحقيقي .

وهتف جيرار قائلاً :

- ها هو يركز الشارة على كتفيه ليعرف من يراه انه من ذوي الرتب ، كأن الرتبة تعمل شيئاً في مثل هذه الامور .

كانت العربة ، التي كان يحوم حولها الضابط ميرل ، تحوي امرأتين احداها

تبدو في خدمة الاخرى .

قال هولو :

– هؤلاء النسوة لا يخرجن عادةً إلا زوجاً زوجاً .

كان رجـل قصير ، جاف ، نحيل يشاهد تارة خلف العربة وتارة أمامها . ورغم انه كان مرافقاً للسيدتين المميزتين ، فان احداً لم يره يخاطبها ، ومثل هذا الصمت يدل على الازدراء او الاحترام . وكل ما في العربـة من أمتعة وصناديق من الورق المقوى كانت للسيدة التي دعاها القائد بالأميرة ، حتى هندام مرافقها أثار حنق هولو . فهندام هذا المجهول كان يمثل لوحة صحيحة لذلك الزي الغريب الذي اشتهر به جماعة الظرفاء المتحذلقين .

كان هـــذا الرجل مرتدياً بنطالاً ضيقاً وحذاءاً على طريقة سوفاروف . في قميصه «بكلة» كبيرة بيضاء وزرقاء تقوم مقام الدبوس. ومن حزامه تتدلى سلسلتا ساعة. وشعره المتدلي على جانبي خديه كان يخفي الجزء الأكبر من جبينه . وقبة قميصه وسترته مرتفعتان الى فوق الى حد ان رأسه بدا مطوقاً كباقة من الزهر في قبع من الورق . زد الى هذه المجموعة من الاوصاف تعاكس الالوان : بنطال أصفر، وصدار احمر وسترة بلون القرفــة . تخيل هذه الاوصاف تجد امامك صورة صادقة عن الزي الذي كان يستهوي الانيقين في بداية العهد القنصلي. وهذه البدلة الكشكولية يبدو انها صممت للبرهان على الرخاء وللدلالة على ان باستطاعة «الموضة» ان تروج أي شيء مهما كان مضحكاً ومبتذلاً .

وقد بدا الفارس في الثلاثين من عمره ولمّـا يجاوز الثانية والعشرين . ولعل مرد هذا المظهر الى الافراط في الاكل او الى معاناة اهوال العهد . وعلى الرغم من زيه لم يكن مظهره يخلو من الاناقة ،وكان يبدو مهذباً. وحين وجد الضابط ميرل بالقرب من العربة ادرك مرامه فسهل أمره بتخفيف سير جواده .

وبعد ان ألقى ميرل نظرة خفية على الرجل وقع بصره على احـد الوجهين المغلقين اللذين اعتادا اخفـاء انواع الانفعالات حتى السطحية منها ، ولا سيما في ابان الثورة ، وعندما رأت السيدتان الطرف المعقوف من قبعـــة ميرل المثلثة

الزوايا سمع الضابط صوتاً ملائكياً ناعماً يقول له :

– سيدي الضابط ، هـل تعمل معروفاً فتقول لنا في أي مكان من الطريق نحن الآن ؟

ثمة عذوبة لا توصف في سؤال تطرحه مسافرة مجهولة . ان أبسط الكلمات تتضمن مغامرة . فاذا كانت المرأة تلتمس بعض الحماية مستندة الى ضعفها والى جهلها لبعض الامور ، فهل هنالك رجل واحـد يتوانى عن خلق اسطورة يبني عليها سعادته ؟ هذا ، في حين شغلت لفظة « سيدي الضابط » ، والطريقة المهذبة في طرح السؤال ، قلب الكابتن فحاول ان يتفحص المسافرة فصده برقع غيور أخفى معالم وجهها . فكاد لا يرى عينيها اللتين لمعتا مـن وراء الحجاب الشفاف ، كما يلتمع ذلـك النوع من العقيق ، الشهير باسم « عين الهر » ، تحت شعاع الشمس .

– انتما الآن ، يا سيدتي ، على بعد مرحلة من ألنسون .

– ألنسون بهذه السرعة ؟!

قالت السيدة المجهولة ذلك وحكمت جلستها في داخل العربة دون ان تضيف كلمة اخرى .

وكررت السيدة الاخرى كلمة ألنسون ، كأنها استيقظت من حلم .

وقالت لرفيقتها :

– سترين البلاد مرة اخرى .

وتطلعت الى الضابط ثم صمتت . وراح ميرل يتفحص الريف وقد علل نفسه عبثاً برؤية الحسناء المجهولة ، فراح يتأمل صاحبتها . وكانت هذه في نحو السادسة والعشرين من عمرها : شقراء ، ممشوقة القامة وسيمة ، نضرة البشرة . نظرات عينيها الزرقاوين ما كانت لتنبىء بالذكاء بل بالثبات الممزوج بالحنان . كانت مرتدية فستاناً من القماش الدارج ، وشعرها مرفوع تحت قبعـة صغيرة تطوق وجهها اللطيف . ومظهرها ، ولو لم يكن مظهر سيدة من النبلاء ، لم يكن ليخلو من تلك الهيبة الطبيعية ، كشأن من تتأمل في ماضيها دون ان تجد فيه ما يعيبه .

وبنظرة واحدة ادرك ميرل انها احدى زهرات الحقول التي لم يفقدها انتقالها الى الصالونات الباريسية ، حيث تتجمع الكثير من الشموس المزدهرة ، لا معالم الطهارة ولا الصراحة الريفية . وادرك من تصرفها الساذج ونظراتها البريئة المتواضعة انها لا تريد ان يسمعها احد . والواقع انه ما كاد ميرل يبتعد قليلاً ، حتى بدأت السيدتان المجهولاتان في الحديث بصوت خافت ووصلت بعض تمتماتهما الى اذنيه ، ومما قالته رفيقة الحسناء ما يلي :

– كان خروجك بغتة ، حتى انك لم تجدي الوقت الكافي لتكملي زينتك . ان تجاوزنا في رحلتنا ألنسون فينبغي ان تغيري زينتك فيها ، اليس كذلك ؟

– هذه هي محاولتك الثالثة لمعرفة هدف هذه الرحلة وسببها .

– وهل في ما قلته ما يستحق اللوم

– لقد لاحظت محاولتك . كنتِ ، اول ما عرفتك ، بسيطة سليمة النية فتعلمت في مدرستي بعض الخبث . لقد بدأت تنفرين من طرح الأسئلة المباشرة ، وأنت محقة في ذلك لأنها برأيي أغبى الطرق لانتزاع أسرار الآخرين .

– حسن ، بما انه لا يمكن اخفاء شيء عنك ، فلنضع النقاط على الحروف . ألا يثير تصرفك فضول القديسين يا ماري؟ صباح امس كنت بلا مورد ، واليوم يداك مليئتان بالذهب ، وفي مورتان وضعوا تحت تصرفك صندوق البريد الذي سُلب ونهب وقتل سائق عربته. وها انت في حراسة جنود الحكومة . وخلفك رجل فيه نذير شؤم لك .

– تعنين كورنتان ؟

بلهجة كلها احتقـــار لفظت السيدة اسم كورنتان وهي تشير بازدراء الى الرجل الذي برفقتها واضافت قائلة : أتذكرين « باتريوت » ، ذلـك القرد الذي عودته على معاكسة دانتون ، والذي ، طالما كان يسلينا ؟ اجابت فرانسين :

– اجل يا آنستي .

– أكنت تخافينه ؟

– كان مقيداً .

– وكورنتان ملجم يا ولدي .

– كنا نتسلى مع « باتريوت » ساعات طويلة ، اعرف ذلـك ، انما كان يخدعنا في النهاية .

قالت فرنسين ذلك وجلست داخل العربة بالقرب من سيدتها وراحت تلاطف يديها بتحبب وتقول لها بصوت عطوف: لقد حزرتِ ما اردتُ يا ماري لكنك لم تجيبيني ، كيف تسنى لك ان تتحولي من الحزن المبرح الى هذا المرح الطاغي بمدة ٢٤ ساعة بعد تلك الشجون التي آلمتني كثيراً ؟ ان مرحك اليوم يذكرني بمظاهر مرحك يوم عقدتِ النية على الانتحار .. أتذكرين؟.. يحق لي ان أطلب منك حساباً عن نفسك ، ان نفسك لي قبـل ان تكون لأي شخص آخر ، لن يحبك احد بمقدار ما احبك . تكلمي يا آنستي .

– حسن يا فرانسين ، ألا تلاحظين ممـــا حولنا سر مرحي ؟ انظري الى الافنان المصفرة المتدلية من تلك الأشجار البعيدة. لا يشبه واحد منهـا الاخر. اذا تأملناها عن بعد نجدها اشبه بسجادة قصر قديم. انظري الى تلك السياجات التي قد يلتقي وراءها الناعقون في أي وقت. انني ، حين انظر الى تلك النباتات الشائكة يلوح لي انني أرى فوهات البنادق . احب هـذا الخطر الجديد الذي يحيط بنـا وكلما تجهم جو الطريق خيل الي اننا سنسمع طلقـات البنادق . فيخفق قلبي ويهزني شعور خفي ليس هو شعور باختلاجات الخوف ولا بانفعالات الفرح . كلا ، بل احسن من ذلـــك، انه شعور نابع من كل ما يختلج فيّ ، من الحياة بكليتها .

– آه يا قاسية ! لم افهم شيئاً من كل هذا الكلام !

قالت فرانسين ذلك ورفعت عينيها نحو السماء وهي تتمتم : ايتهـــا السيدة العذراء ، ان كتمتْ سرها عني ، فلمن تعترف به اذن ؟

واردفت السيدة المجهولة قائلة بجد :

– لا استطيع يا فرانسين ان اعترف لك بمهمتي ، فهي مهمة رهيبة هذه المرة.

– واي ضرر في معرفة السبب ؟

ماذا تريدين ، لقد وجدتـُني فجأة افكر كما لو كنت في الخمسين من عمري وأتصرف كما لو كنت في الخامسة عشرة ، كنتِ وما زلتِ منبهتي يا ابنتي المسكينة ولكن ، في هذه القضية ، ينبغي ان اخنق ضميري .

وقالت بعـد توقف وهي تطلق زفرة : لكني عاجزة عن ذلك . وكيف تريدينني ان اظل صامتة امام عرافة صارمة مثلك . قالت ذلك وربتت على يدها بلطف . وعندئذ صرخت فرانسين :

– متى انتقدت اعمالك ؟ حتى سيآتك لا تخلو من النعومة ، اجل ، لطالما صليت لقديسة اوراي من اجل سلامتك ، وانت بريئة من اي شيء ، ثم الست الى جانبك في هذه الطريق دون ان اعلم الى اين تذهبين ؟

وفي غمرة انفعالها اكبّت فرانسين على يد سيدتها تريق عليها القبلات .

قالت السيدة :

– بوسعك ان تتخلي عنى اذا كان ضميرك ...

فقاطعتها فرانسين وفي لهجتها اسى عطوف :

– اصمتي يا سيدتي ! افلا تقولين لي ...

– لن اقول شيئاً .

هكذا قالت الآنسة بصوت ثابت واضافت : انما اعلمي جيداً انني امقت هذه المهمة اكثر مما اكره الذي اوضحها لي بكلمات منمقة . ساعتمد الصراحة واعترف لك بانني ما كنت لأنزل عند رغبتهم لو لم اجد في هذه الخدعة الدنيئة مزيجاً من لذائذ الرعب والحب . وبعد ، لم اشأ ان اخرج من هذه الدنيا دون ان احاول ان اقطف الثمار التي تمنيتها ، أتراني هالكة ! ولكن ، تذكري اكراماً لذكراي انني لو كنت سعيدة لما كان منظر المقصلة المسلطة على عنقي ليجعلني ارضى بلعب اي دور في هذه المأساة . انها بالفعل مأساة .

وقالت وهي تطلق زفرة قرف واشمئزاز : والآن . لو طلب مني التوقف عن انجاز هذه المهمة ، فسألقي بنفسي في « السارت » ولن يكون ذلك انتحاراً

فانا لم اعش عمري بعد .

– يا عذراء اوراي القديسة اغفري لها !

– لمَ دب فيك الرعب ؟ ان تقلبات الحياة الدنيا لا تهيج عواطفي ، انك تعلمين ذلك ، وهو شيء سيء بالنسبة لامرأة ، غير ان في نفسي حساسية اسمى لتحمل معاناة قاسية كهذه. كان بامكاني ان اكون مثلك مخلوقة لطيفة. ترى لماذا لم انشأ فوق مستوى جنسي او تحته ؟ آه ، ما اسعد زوجة الجنرال بونابرت ! سأموت شابة ، وما قيمة ذلك وقد بلغت من مراتب الحياة ان اشاهد دون رهبة حفلة من حفلات اللهو تشرب فيها الدماء كما قال «دانتون» التعيس. لكن دعك من كل هذا او انسي ما قلته . هي المرأة ذات الخمسين التي تتكلم الآن . وشكراً لله فان الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً لم تمت بعد ولن تلبث ان تعود .

ساور الرفيقة الشابة قلق شديد . فهي وحدها تعرف سيدتها وتعرف طباعها الحادة الفائرة . هي وحدها مطلعة على مكنونات نفسها الكبيرة ، وما كانت لتجهل ميول هذه المخلوقة التي رأت ، وما برحت ترى ، الحياة تمر كالظل ، وما فتئت تحاول امساكها .

فتاة زرعت ملء يديها وما حصدت شيئاً ، ما برحت عذراء ، انما خدعت برغائب كثيرة ، يئست من حرب بلا خصم ، وفي غمرة اليأس اصبحت تفضل الخير على الشر اينما وجد بدافع ذاتي ، والشر على الخير اذا كان فيه بعض الاطراء والتعاسة ، وعلى الاعتدال في احسن الأحوال . والمصير المظلم المجهول على حياة بلا الم ولا امل .

ما تجمع قط مثل هذا المقدار من البارود من اجل شرارة . ولا مثل هذا المقدار من الثروة لتنفق على الحب ، وما وجدت لحواء ابنة طينتها مجبولة بمثل هذا المقدار من الذهب . وفرانسين ، كملاك ارضي كانت تسهر على هذه المخلوقة تتعبد فيها الكمال وفي يقينها انها تكمل رسالة سماوية بحفظ سيدتها ضمن اطار جوقة الملائكة حيث يبدو انها طردت منها لتكفر عن خطيئة الكبرياء .

واقترب الفارس من العربة واعلن : هوذا جرس كنيسة ألنسون .

فاجابته بكل خشونة : انني اراه .

– حسناً .

قال ذلك وابتعد وهو يقدم لها مراسم الخضوع على الرغم من امتماضه ، وقالت للحوذي: هيا انطلق بسرعة ، بأسرع ما يمكنك ، دع الجياد تطير بنا ، لم يبق ما نخشاه الآن ، ألسنا على مطل ألنسون ؟

واذ مرت العربة من امام القائـــد هولو نادته بصوتها الرخيم :

– سنلتقي في الفندق ، تعال لأراك هناك .

– وهو كذلك ، في الفندق ! تعال لأراك !.. هكذا تخاطبين القائد !

قال هولو ذلك وهو يشير الى العربـة المنطلقة بسرعة على الطريق ، وقال كورنتان ضاحكاً وهو يستحث جواده :

– لا تبتئس يا قائدي فهـــذه السيدة تحمل في كمهـــا رتبة جنرال لك..

التفت هولو نحو معاونيه وقال : لن اتساهل مع اولئك المواطنين . لأهون علي ان ألقي ببذلة الجنرال في حفرة من ان انال تلك الرتبة في سرير ! ترى ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أفهمتما شيئاً ؟ فأجاب ميرل :

– أي نعم ، فهمت انهـا اجمل امرأة رأيتها في حياتي ، أعتقد انك تسيء فهم المجاز .. لعلها زوجة القنصل الاول ؟

– زوجة القنصل الاول مسنة وهذه شابة . هذا مع العلم بأن الوزير أعلمني في بطاقته الي بأنها الآنسة دوفرنوي ، احدى النبيلات ، وانا أعرفهن ، أعرف انهن كن جميعاً قبل الثورة يقمن بهذه المهام، يومذاك كن بين ليلة وضحاها يعيّنّ رؤساء الفرق ولا يحتجن لذلـــك الى اكثر من النطق بكلمة : « يا قلبي » ، وترديدها مرتين او ثلاثاً ..

فيما كان كل جندي يزيد في سرعة خطاه، او يفتح « البيكار » حسب تعبير القائد، كانت العربة البشمة قد وصلت الى فندق « المغاربة الثلاثة » لي ترو امور » القائم وسط شارع ألنسون ، وعلى صوت قرقعتها أسرع الفندقي الى المدخل. كان ذلك شيئاً نادر الحدوث، ولم يكن احد في ألنسون يتوقع وقوف هذه العربة بنزل تروامور ،

غير ان حادث مورتان المشؤوم جعل العربة محاطة بجمهور من الناس ، الأمر الذي حمل المسافرتين على الانسلال الى المطبخ تخلصاً من الفضول العام . وكان صاحب المنزل على وشك اللحاق بهما عندما اوقفه الجوذي من ذراعه وقال له :

– انتبه ايها المواطن بروتوس ، ثمة مواكبون زرق . وبما انه ليس معي دليل ولا رسائل ، فقد جئتك بهاتين المواطنتين ، لا ريب في انهما ستدفعان لك الحساب كاميرتين نبيلتين وهكذا ...

– وهكذا نشرب النبيذ معاً بعد قليل من الوقت يا ولدي ...

وبعد ان ألقت الآنسة دوفرنوي نظرة على المطبخ المسودّ بالسخام ، وعلى الطاولة الملوثة بدم اللحم النيء ، هرعت الى الصالة المجاورة بخفة الطير ، فقد تخوفت من هيئة المطبخ ومن رائحته بقدر ما تخوفت من المضيف القذر ومن زوجته السمينة اللذين تفحصاها بانتباه .

وقال المضيف لزوجته :

– ما العمل يا زوجتي ؟ من كان يفكر اننا سنحظى بهذا العدد من الضيوف ؟ لن تصبر هذه السيدة الى ان انتهي من تحضير عشاء لائق لها ، يقيناً . لقد حضرتني فكرة : بما ان ضيوفنا اناس من كبار القوم ، فسأقترح على السيدتين ان تنضمّا الى السيد الذي لدينا في الطابق الاعلى ، فما رأيك ؟

ولما راح المضيف يبحث عن القادمة الجديدة لم ير سوى فرانسين فانحاز بها الى داخل المطبخ بعيداً عن السامعين وقال لها بصوت خافت :

– اعتقد ان سيدتيّ تريدان ان تتناولا الطعام على حدة.. لدي عشاء فاخر معد لسيدة وابنها. طبعاً هذان الضيفان لا يعترضان على تقاسم العشاء معكما. انهما من الطبقة الراقية .

ما كاد المضيف ينهي جملته الاخيرة ، حتى احس بضربة مقبض سوط خفيفة في ظهره . التفت الى الوراء فرأى رجلاً قصير القامة ، منتفخاً ، يخرج على مهل من غرفة مجاورة. وبظهوره ارتعد صاحب النزل وزوجته وطباخه من الخوف . وامتقع وجهه وهو يدير رأسه . ونفض الرجل القصير شعره

الذي كان يحجب جبينه وعينيه كلياً ، وانتصب على قدميه ومال الى اذن المضيف صاحب الحانة قائلاً:

– تعرف جيداً اي ثمن تدفعه لأي حماقة ترتكبها او سر تفشيه . كما تعلم نوع العملة التي ندفعها . واننا لأسخياء .!

وارفق هذه الكلمات بحركة تعبيرية مخيفة . وعلى الرغم من ان رؤية هذا الرجل قد حجبت عن عيني فرانسين بسبب ضخامة جسم المضيف، فقد التقطت بعضاً من الكلمات التي تلفظ بهـــا،وصعقت حين سمعت صوتاً خشناً بلهجة بريتونية . ووسط الرعب الذي خيم على الجميع انطلقت نحو الرجل القصير. غير ان هذا كان قـــد خرج من الباب الجانبي المؤدي الى الساحة بخفة حيوان بري. وظنت انها اخطأت في حدسها اذ انها لم تشاهد سوى جـــلد اشقر واسود لدب متوسط القامة . اسرعت مذهولة الى النافذة ، ومن وراء الزجاج الوسخ نظرت الى المجهول المتجه نحو الاسطبل بخطى وئيدة ، وقبل ان يدخله ، صوب عينيه السوداوين الى الطابق الأعلى من المنزل ومنه الى عربة البريد كأنه يريد ان يطلع صديقاً له على ملاحظة مهمة تتعلق بتلك العربة . وبفضل هذه الحركة التي اتاحت لفرانسين رؤية وجه الرجـــل ، وعرفت من السوط الضخم الذي في يده ومن مشيته الزاحفة الرشيقة عند اللزوم ، انه مارش آتير على الرغم من جلد المعزى الذي كان يلبسه. تفحصته من خلال ظلمة الاسطبل حيث نام على القش متخذاً وضعاً يمكّنه من رؤية كل ما يحدث في النزل. لقد كان ملتفاً على بعضه بحيث يحسبه امكر الجواسيس، سواءاً رآه من بعيد او من قريب ، كلباً من الكلاب الكبيرة التي يقتنيها اصحاب العربات، مكوراً جسمه ، باسطاً ذراعيه، ورأسه مدسوس بينهما كأنه كلب نائم .

وقد اثبت مارش آتير بتصرفه هذا انه لم يعرفهـــا . ولم تعرف هي ، ازاء الظروف الدقيقة التي تحيط بسيدتها أتسر لوجود هذا الناعق ام تجزع . غير ان غموض العلاقة بين رقابـة الرجل ودعوة صاحب الفندق ، وهي مألوفـة عند جميع اصحاب الفنادق الذين يحاولون دائماً ان يصيدوا عصفورين بحجر واحد ،

أثار فضولها. فتركت زجاج النافذة القذر الذي كانت تنظر في الظلام من خلاله الى الكتلة السوداء ومنها عرفت المكان الذي يشغله مارش آتير من الاسطبل. والتفتت نحو الفندقي الذي بدا كأنه خطا خطوة محرجة ولم يعد بامكانه ان يرتد الى الوراء. فقد افقده الناعق بتصرفه صوابه. فلم يكن في مناطق الغرب من يجهل العقوبات الفظيعة التي يتفنن رجال فرقة « قناصة الملك » في الحاقها بالمشبوهين بافشاء الاسرار. ولذلك خيل للمضيف انه يحس سكاكينهم تحز عنقه، وينظر بهلع الى « الوجاق » الذي يشوون على ناره الحامية اقدام الذين يتهمون بافشاء اسرارهم. وكانت المرأة السمينة تحمل سكين المطبخ بيد وفي اليد الاخرى رأساً من البطاطا نصف مشطور، او هي تحدّق الى زوجها مشدوهة، والطاهي يبحث عن السر المجهول بصمت ورعب. وكان من الطبيعي ان يستيقظ فضول فرانسين حيال هذا المشهد الصامت الذي رأى الجميع بطله الرئيسي المتواري، وقد اعتزت الفتاة بسطوة الناعق المخيفة، وهي، وان لم يكن من طبعها الوديع ان تلجأ الى المكر كالوصيفات المتمرسات، فقد شاقها هذه المرة ان تكشف عن السر مستفيدةً من مزايا وضعها الخاص.

التفتت نحو المضيف وقالت له بنبرة جادة:

– قبلتْ الآنسة عرضك.

وكأنه استفاق من غيبوبة فانتفض وسألها بدهشة:

– أي عرض ؟

وسألت الآنسة دو فرنوي:

– أي عرض ؟

– أي عرض ؟ قال كورنتان سائلاً بدوره وهو يدخل.

وسأل شخص رابع كان على الدرجة الاخيرة من السلم وهو يقفز بخفة الى المطبخ:

– أي عرض ؟

اجابت فرانسين بصبر نافد:

– عرض العشاء ، مع ضيفيك المميزين .

وكرر الشخص الذي هبط السلم كلمة المميزين بصوت لاذع ساخر وأضاف قائلاً :

– تلك هي دعاية فندقية سيئة يا عزيزي ، لكن ، اذا كانت هذه المواطنة الشابة هي التي تدعوها لتكون ضيفتنا ، فمن الجنون ان نرفضها ، وقال له ، وهو يتطلع الى الآنسة دو فرنوي : انك لرجل طيب ، وأضاف وهو يربت على كتف الفندقي الذي أصيب بالذهول : اقبل العرض في غياب امي .

لقد ألقى نزق الشباب الظريف حجاباً أخفى عن الحاضرين ما كان في تلك الكلمات من تعال مستخف . تلك الكلمات التي استرعت ، ولا شك ، انتباه جميع ابطال هذا المشهد الى هذا الشخص الجديد ، واذ ذاك اتخذ المضيف موقف «بلاطس البنطي» الذي غسل يديه من دم المسيح . وخطا خطوتين نحو زوجته وأسر في اذنها : تشهدين انني بريء من أي ذنب ان وقع ما لا تحمد عقباه .

وزاد في خنق صوته واضاف قائلاً :

ومع ذلك اذهبي وأخبري السيد مارش آتير بما حصل .

كان المسافر الجديد شاباً معتدل القامة يرتدي لباساً ازرق وجزمة سوداء تعلو الى ما فوق ركبتيه على بنطال من الجوخ الازرق، وسترة بسيطة على طريقة طلاب مدرسة البوليتكنيك .

بنظرة واحدة عرفت الآنسة دو فرنوي ان تميز تحت هذه البذلة الداكنة الاشكال الانيقة ذلك الشيء الذي لا تدري أي شيء فيه مما ينبيء عن اصالة نبيلة . انه يبدو ، للوهلة الاولى عادياً ، في وجهه تكوين متناسق يكشف عن نفس قادرة على أشياء كبيرة ، بشرة لفحتها الشمس وشعر أشقر مجعد بحلقات كالخواتم . وعينان زرقاوان نافذتان ، وانف صغير وحركات رشيقة ، كل شيء فيه واضح يدل على انه يعيش حياة تسودها العواطف السامية وتسهل له اصدار الاوامر . ابرز ما فيه ذقنه الشبيهة بذقن بونابرت وشفته السفلى التي تنضم الى الشفة العليا وترسم حنية جميلة كحنية ورق الأكانتوس (شوك الجمل) . لقد وضعت الطبيعة في هذين التكوينين مفاتن لا تقاوم .

وقالت الآنسة دو فرنوي في نفسها : « ان كان هـذا الشاب من الجمهوريين حقاً فان ما يمتاز به من سمو النفس والحركات تجعل منه جمهورياً نسيج وحـده ومثالاً نادراً بين اترابه » .

بومضة عين رأت الفتاة ما رأته وغشيتها رغبة في الارضاء ، في ارخاء رأسها بدلال الى جنب ، في ابتسامة مغناجة ، في تسديد نظرات مخملية تحيي الحب في القلب الميت ، في تظليل عينيها السوداوين بأهداب كثيفة متكسرة تترك على الوجه خطاً ظليلاً ، في البحث عن اجمل نغم لصوتها ، لتضفي على العبارة التالية فتنة نافذة : « اننا شاكرتان لك يا سيدي » .

كل ما تقدم من حركات الفتنة لم تستنزف الوقت اللازم لوصفها ، والتفتت الآنسة دوفرنوي نحو المضيف سائلة عن شقتهـــا ، ورأت الدرج فتوارت مع فرانسين تاركة للشاب الغريب ان يتساءل هل كان جوابها قبولاً ام رفضاً .

– من هي هذه المرأة !

سأل تلميذ مدرسة البوليتكنيك بخفة ، المضيفَ الذي عرته موجـة من الذهول ، فجاءه الجواب من كورنتان الذي اجابه بجفاء :

– انها المواطنة دوفرنوي ، احدى النبيلات ، فماذا تريد منها ؟

تطلع المجهول الى كورنتـان بزهو وكبرياء وراح الاثنان يتبادلان ، لبعض الوقت نظرات حادة كأنهما ديكان يستعدان للقتال ، ومـن هنا احتدم الحقد في قلبيهما الى الابد . وبقـدر مـــا كانت نظرة الجندي صريحـة كان في نظرة كورنتان من الخبث والرياء ، برز احدهما بمزاياه النبيلة الاصيلة والثـــاني بمزاياه الدخيلة ، احدهما يتشامخ والثاني ينطوي ، هـذا يفرض احترامه فرضاً وذاك يسعى للحصول عليه ، احدهما يقول : فلنأخذ ! والآخر يقول : فلنقتسم .

ودخل عليهما احد الفلاحين ، وبدخوله سأل :

– هل المواطن غوا دو سان ـ سير هنا؟

اقترب منه الشاب واجابه :

ـ ماذا تريد منه ؟

حياه الفلاح باحترام زائد وقدم له رسالة قرأها ، ثم ألقاها في النار . وكان الجواب احناءة رأس ايجابية وعندئذ توارى الرجل .

اقترب كورنتان من الشاب الغريب بشيء من الدالة والاستخفاف ، الامر الذي أزعج المواطن غوا ، وسأله :

ـ انت ، لا ريب ، قادم من باريس .

فأجابه بجفاء :

ـ أجل .

ـ وانك ، ولا شك تحمل رتبة في المدفعية ؟

ـ كلا ، بل في البحرية .

ـ اذن فأنت متوجه الى برست .

لم يجبه الشاب على سؤاله هذا ، بل استدار على عقبيه وكذب ، بعد حين ، الآمال الجميلة التي تبينتها الآنسة دو فرنوي في وجهه . لقد انشغل في عشائه بخفة وسأل المضيف والمضيفة عن لائحة الطعام واستغرب عادات اهل الريف كباريسي انتزع من بيته ، وتأفف كعشيقة مدللة . واخيراً انكشف عن طبع مخالف لما توسمته الفتاة في وجهه وفي تصرفاته . وقد تبسم كورنتان شغفاً وهو يراه مكفهر السحنة كلما رشف رشفة من تلك الخمرة التي كانت امامه وهي ألذ ما في النورماندي من خمور ، ويقول الشاب بقرف :

ـ كيف تبتلعونها انتم ؟ للجمهورية الحق في ان تحترس من الريف حيث القطاف يتم باسقاط الثمار بالعصا الطويلة وحيث يطلقون النار ، غدراً ، على المسافرين في الطريق ، لا تضعوا لي على المائدة زجاجة من هذه الخمرة ذات الطعم الشبيه بطعم الدواء المسهل ، بل زجاجة من النبيذ الطيب ، نبيذ بوردو الابيض والاحمر ، وانتبهوا الى نار المدفأة في غرفتي ، اريدها حامية مشبوبة . وأضاف قائلاً وهو يصعد زفرة : هؤلاء الناس يبدون لي متأخرين عن ركب الحضارة والتمدن . آه ! ليس في العالم سوى باريس واحدة ، ومن المؤسف ألا نستطيع ان ننقلها معنا في البحر ! وقال لرئيس الفندق : لماذا تضع الخل على هذه الفرخة

المتحطمة طالما عندك حامض ايها الغبي ؟ اما انت ايتها المضيفة ، فقد أعطيتني حرامات بلغت من الخشونة اني لم تغمض لي عين طوال الليلة الماضية .

قال ذلــك وراح يلعب بعصا ثخينة ألعاباً سخيفة ، يضع فيها من البراعة والبلادة ما يــدل على الدرجة المنحطة التي يبلغها شاب من طبقة المتحذلقين في العهد الجمهوري الجديد .

قال كورنتان للمضيف وهو يرمق وجه الشاب خفية :

ـ أبمثل هؤلاء الطائشين يأملون ان يرفعوا مستوى البحرية في الجمهورية ؟

وأسر الشاب في اذن المضيفة مشيراً الى كورنتان :

ـ هذا الرجل هو احد جواسيس فوشه . سيماء البوليس منحوتة على وجهه . وانا متأكد من الأثر الذي على ذقنه انه من اوباش باريس ولكنه غدار ماكر ، فلا بأس .

في هذه اللحظة دخلت مطبخ النزل سيدة تقدم نحوها البحري الشاب بكل مظاهر الاحترام وقال لها :

ـ امي الحبيبة ، ها قــد وصلت اخيراً ، أرى انني استقطبت الضيوف في غيابك .

فأجابت :

ـ ضيوف ؟ ما هذا الجنون ؟

فقال لها بصوت خفيض :

ـ انها الآنسة دو فرنوي .

ـ لقد هلكت على المقصلة بعد قضية سافيني ، كانت قد قدمت الى « مانس» لتنقذ شقيقها الامير دولودون .

ـ انك على خطأ يا سيدتي ، قال كورنتان وهو يشدد على لفظة « سيدتي » واضاف : يوجد آنستان باسم فرنوي ، فللاسر الكبيرة دائماً عدة فروع .

فوجئت السيدة الغريبة بهذه الدالة . فتراجعت بضع خطوات لتتفحص هذا المتكلم الطفيلي وركزت عينيها السوداوين المليئتين بنباهة وحذق هما منخصائص

النساء ، وراحت تبحث عن الفائدة التي يجنيها من تأكيد بقاء الآنسة دو فرنوي على قيد الحياة . وفي الوقت ذاته جرد كورنتان في ذهنه هذه السيدة من جميع صفات الأمومة ليحل محلها متع الحب . فقد ابى ان يرى ابنا في العشرين من عمره لسيدة ذات بشرة نضرة وحاجبين منحنيين كثيفين وأهدباً لا تزال على شيء من الكثافة اعجب بها اعجاباً شديداً . كما ان شعرها الأسود المفروق على الجبين كان يكشف عن فتوة ذكية . والغضون الخفيفة على الجبين كانت تفضح ، دون ان تكشف عن سنها ، لواعج شهوة شابة . وعيناها الحادتان ، ان كانت تغشاهما غشاوة رقيقة ، فليس من يعرف اذا كان ذلك ناتجـاً عن مشقة السفر او عن الافراط في معاقرة الملذات . واخيراً ، لاحظ كورنتان ان الفستان الذي ترتديه كان من القماش الانكليزي ، وان شكل قبعتها الاجنبية لا تنتمي لاي من الازياء الاغريقية التي كانت ما برحت تطغى على الزينات الباريسية .

لقد كان كورنتان من المخلوقات المطبوعة على رؤية الشر قبل الخير . وسرعان ما ثارت في نفسه الشكوك حول هذين المسافرين .

اما السيدة ، فقد لاحظت بدورها على كورنتان وبنفس السرعة ملاحظات عدة . والتفتت نحو ابنها التفاتة ذات معنى فكأنها تقول : من هو هذا الرجل الشاذ ؟ اهو من جماعتنا ؟

على هذا السؤال الذهني اجاب البحري الشاب بحركة ، وبنظرة وباشارة من يده معناها : يقيناً ، لست ادري . لست اعلم شيئاً واني مثلك لمرتاب بامره .

قال ذلك وترك لامه مهمة حل هذا اللغز . ليلتفت هو نحو المضيفة وليسر في اذنها : حاولي جهدك ان تعرفي من هو هذا البليد ، وهل يرافق الآنسة فعلاً ، ولماذا يرافقها .

وقالت السيدة دوغوا لكورنتان :

– على ذلك انت متأكد ان الآنسة دو فرنوي ما برحت حية ؟

– انها حية بلحمها وعظمها كما هو مواطن غوا دو سان – سير حي يرزق .

تضمن هذا الجواب سخرية عميقة لم يعرف سرها احد سوى السيدة ، وفجأة

حدق ابنها الى وجه كورنتان الذي سحب ساعته من جيبه ببرود درن ان يبدو عليه انه شعر بالقلق الذي سببه جوابه .

وقالت السيدة لكورنتان ، وهي القلقة المستعجلة لمعرفة اذا كان الجواب يخفي مخادعة ام انه جاء عفوياً :

– يا الله ما اكثر مخاطر الطرق ! لقد هاجمنا الناعقون في مورتان وابى ابني ان يبقى مكتوف اليدين . فاصيب برصاصتين في قبعته وهو يدافع عني .

– ماذا تقولين يا سيدتي ؟ اكنتما في عربة البريد التي نهبتها العصابات على الرغم من خفرها والتي حملتنا الى هنا . على ذلك فانت تعرفين العربة ! قيل لي لدى مروري في مورتان ان عدد الناعقين كان يربو على الالفي رجل عندما هاجموا العربة وان جميع الذين كانوا فيها قد هلكوا، حتى سائقها لاقى حتفه . هكذا يكتبون القصة !

كان كورنتان ، في لهجته السامة وهيئته البلهاء ، اشبه بابن الريف الذي يصدق ، بالم ، نبأ سياسياً كاذباً . وتابع كلامه قائلاً :

– آه يا سيدتي، اذا كانوا يقتلون المسافرين قرب باريس، فتصوري الأخطار التي تحيق بطرق بريتانيا . يقيناً ، سأعود الى باريس ولن ابتعد عنها .

وطرأ على بال السيدة خاطر فجائي فسألت المضيفة :

– هل الآنسة دو فرنوى جميلة صبية ؟

في هذه اللحظة قطع المضيف هذا الحديث القاسي الذي كان على غاية من الأهمية بالنسبة الى الثلاثة المتحدثين بقوله ان العشاء اصبح جاهزاً ! وهنا قدم البحري يده لامه بدالة مصطنعة اكدت ظنون كورنتان . فقال الغريب له بصوت عال وهو يتجه نحو الدرج : ايها المواطن ، ان كانت الانسة دو فرنوي قد قبلت اقتراح المضيف وان شئت ان ترافقها فلا بأس في ذلك .

قال ذلك وتسلق الدرج ، اما الشاب فقد ضغط بشدة على يد السيدة . وما ان ابتعد كورنتان عنها بضع درجات حتى خاطب البحري السيدة بقوله :

– انظري الى اي المخاطر تعرضنا مشاريعك الحمقاء، كيف ننجو اذا اكتشف

امرنا ، واي دور هو هذا الذي تسندينه الي ؟

اجتمع الثلاثة في غرفة واسعة . ولا حاجة الى الكثير من التجول في مناطق الغرب لندرك ان صاحب الفندق قد غالى كثيراً في اكرام ضيوفه وأتى بكل ما عنده من المتعات ليرضيهم : مائدة عامرة ، وشقة دفئة بأحسن الوقود ، والبياض والصحون والمقاعد كلها كانت نظيفة ، ولاحظ كورنتان ان صاحب الفندق « قطع نفسه اربعاً » حسب التعبير الشعبي ليرضي نزلاءه الاغراب .

فخاطب كورنتان نفسه قائلاً : هؤلاء الناس ليسوا كما يبدون ، فهذا الشاب مخادع محتال .. ظننته في بادىء الأمر أبله . اما الآن فاني اعتقد انه يضاهيني فطنة ودهاء !.

وجلس الشاب البحري وأمه وكورنتان ينتظرون الآنسة دو فرنوي التي سارع المضيف الى اعلامها بذلك . غير ان المسافرة الحسناء لم تحضر . وخطر في بال طالب البوليتكنيك انها تلاقي بعض الصعوبات ، فخرج وهو يتغنى بمطلع نشيد : « لنسهر على سلامة الامبراطورية » واتجه نحو غرفة الآنسة دو فرنوي تدفعه رغبة ملحة في التغلب على شكوكه ومرافقتها الى الصالة . ربما اراد ان يطرد مخاوفه، او لعله كان يرجو ان يمارس على هذه الفتاة المجهولة سلطانه كرجل.

واذ رآه كورنتان يخرج من الغرفة قال في نفسه :

ـ ان كان هذا الشاب جمهورياً فسأشنق نفسي ! إن على منكبيه سمة اهل القصور .

وقال وهو يتطلع الى مدام دو غوا :

ـ واذا كانت هذه امه فانني انا البابا ! انهم ناعقون ، ولا بد لي من التأكد .

هوذا الباب ينفتح ليخرج منه البحري آخذاً بيد الآنسة دو فرنوي . ثم أجلسها الى المائدة بكل رعاية .

والساعة التي انقضت في انتظارها لم تذهب سدى ، فقد تسلحت الآنسة دو فرنوي، بمساعدة فرانسين، بزينة أشد فعالية من زينة حفلة رقص. كان في بساطتها ميل ناشىء عن فن تتقنه أي امرأة جميلة عندما تنزع عنها حليها لتتخذ زينة ذات قيمة ثانوية، فقد لبست فستاناً اخضر بقصات وغبنات جميلة ترسم أشكال جسمها

بفتنة قد لا تليق بالفتيات الخفرات، ويكشف عن قامة رشيقة وعن خصر انيق وحركات ناعمة .

ودخلت وهي تبتسم بظرف وكياسة طبيعية لدى النساء القادرات على فتح الفم الوردي لتبرز فيه اسنان حسنة التنضيد ذات تألق كالبورسلين، وعلى خديها غمازتان غضتان كغمازتي طفل . نزعت عنها المعطف الذي كان يحجب تكوينها عن عيني البحري ، فأصبح بامكانها ان تتصنع ما شاءت وان تأتي ألف حركة وحركة ناشطة في الظاهر كأي امرأة تتوخى اظهار مفاتنها . وكان بين حركاتها وبين زينتها تجاوب يزيد في فتوتها الى حد ان مدام دو غوا لم تقدر عمرها بأكثر من عشرين عاماً .

هذه الزينة الانيقة الرامية ، دون ريب، الى الارضاء أحيت الآمال في قلب الشاب. بيد ان الحسناء حيته باحناءرأسها بفتور دون ان تنظر اليه. ثم تجاوزته بعنجهية أقلقت باله. ولم يكن فيتحفظها ذاك أي دليلعلى التدللاو الحذر فينظر الغرباء ، بل كان فيه لامبالاة طبيعية او تظاهرية . فقد أضفت الفتاة على وجهها تعبيراً بريئاً لا يرقى اليه الشك ولم تدع أي مجال للارتياب بأنها تعمدت ذلك . ثم بدت تجنح الى اصطناع الحركات الصغيرة والجميلة الفاتنة ، فحركت شعور البحري الذي اتخذ مكانه على المائدة بحنق .

امسكت الآنسة دو فرنوي يد فرانسين وقالت للسيدة دو غوا بلطف ومودة : هل تتكرم سيدتي بالسماح لمرافقتي ، التي أعتبرها صديقة لي، ان تتعشى معنا ؟ ففي الايام العاصفة ، يا سيدتي ، لا يمكن دفع ثمن الاخلاص إلا بالعاطفة ، وبعد ، أليست العاطفة هي كل ما بقي لنا ؟

على هذا الطلب الذي لفظ مقطعه الاخير بصوت خافت اجابت مدام دو غوا بحركة نصف ترحيبية كشفت عن امتعاضها من مقابلة فتاة على جانب عظيم من الجمال ، ثم مالت الى اذن ابنها وقالت له : « آه ! الايام العاصفة .. اخلاص وسيدة وخادمة ! قد لا تكون الآنسة دو فرنوي بل«بنتاً»ارسلها فوشه اليك.»

وكان الضيوف على اهبة الجلوس الى المائدة عندما لمحت الآنسة دو فرنوي

كورنتان ، وكان لا يزال يحلل نفسية مدام دو غوا وابنها اللذين ظهر عليهما القلق من نظراته . فقالت له الآنسة فرنوي : « ايها المواطن . انك ، لا شك ، ارفع من ان تتبع خطواتي على هـــذا الشكل . فيوم ارسلت الجمهورية بوالدي الى المقصلة لم تتكرم بتعيين وصي علي ، فان كنت قد رافقتني ، بالرغم من رغبتي ، مدفوعاً بدوافع الفروسية السامية ، فقد قررت الا اذهب في طلب الحماية الى حد ازعاجك ، انني في امان هنا وبامكانك ان تدعني وشأني » .

قالت له ذلك وهي تسدد اليه نظرة ملؤها الازدراء ، فهم كورنتان معناها فاختصر ابتسامة المـّت باطراف شفتيه الماكرتين . ثم حياها باحترام وقال لها:

ـ يسرني دائماً ان اطيعك ايتها المواطنة . فالجمال هو السيد الوحيـد الذي يمكن للجمهوري الحقيقي ان يخدمه بملء اختياره .

بخروج كورنتـان لمعت عينـا الآنسة دو فرنوي ببريق الفرح ، ونظرت الى فرانسين بابتسامة معنوية ممزوجة بمزيد من الحبور الى حد شعرت معه مدام دو غوا التي امست لشدة غيرتها ، شديدة الحذر ، بوجوب التخلي عن الظنون التي ساورتها امام جمال الآنسة دو فرنوي الصاعق واسرّت في اذن ابنها قائلة :

ـ قد تكون هي الآنسة دو فرنوي بالذات .

فاجابها الشاب الذي جعله الغضب رصيناً :

ـ والحاشية ؟.. أتكون الآنسة اسيرة ام تحت الحماية ؟ موالية للجمهورية ام عدوة ؟

أغمضت مدام دو غوا عينيها كما لو كانت تحاول جلاء هذا السر .

هذا . ويبدو ان ذهاب كورنتان قد لطف من تحفظ البحري الشاب ، فلان بعض الشيء وألقى على الآنسة دو فرنوي نظرة نمت عن حب جارف للنساء جميعاً، وليس عن عاطفة بريئة لحب جديد ، وازاء هذه النظرة ازدادت الحسناء تحفظاً وحصرت كلماتهـــا اللطيفة بالسيدة دو غوا . فامتعض الشاب امتعاضاً شديداً لكنه حاول ان يتظاهر باللامبالاة ، ولم يبد على الآنسة دو فرنوي انها لاحظت ذلك ، اذ انها بدت سليمة النية ومتحفظة بدون تزمّت .

لم يوقظ ذلك اللقاء اي ميل في احدهما نحو الآخر . بل بالعكس احدث ازعاجاً ومضايقة قضت على كل أمل راود الاثنين من قبل . غير ان في النساء حاسة تصل ما بينهن ، حاسة تخفي علاقات حميمة ورغائب حادة في تبادل التأثرات التي يعرفن كيف يكتمنها في بعض الظروف .

وكأن الحسناوين قد بيتتا فكرة واحدة فراحتا فجأةً تداعبان ببراءة الفارس الوحيد الموجود معهما ، وتتنافسان حياله في ضروب السخرية المتيقظة الحذرة ، وهما في غمرة من الحبور والمرح . وارتفع التكلف بينهما الى حد ان أي نظرة او أي كلمة تنطلق من أي منهما بدون انتباه تفقد معناها في الحال وفي مدة نصف ساعة بدت السيدتان ، وهما المتخاصمتان سراً ، كأحسن صديقتين في العالم . اما طالب البحرية فقد فوجىء بميل عميق نحو الآنسة دو فرنوي في مرحها كما في تحفظها ، وكان من قبل قد بلغ من الاستياء حد الندم على قبوله اشراكها في عشائه.

وتجاه موقفه ذاك ، سألت الآنسة دو فرنوي السيدة دو غوا :

– هل ابنك دائم الانقباض كما هو الآن يا سيدتي ؟

فأجابها الشاب بقوله :

– اني لأتساءل ، يا آنسة ، ما الفائدة من سعادة لا تلبث ان تزول ؟ ان سر انقباضي يكمن في حيوية لذتي . فقالت ضاحكة :

– هذا غزل فيه من رائحة البلاط أكثر مما فيه من مدرسة البوليتكنيك .

لأسباب خاصة رأت مدام دو غوا ان تساير السيدة المجهولة فقالت لها :

– لم يعبر عن أكثر مما جال في خاطره يا آنسة .

فأجابت الآنسة دو فرنوي مخاطبة الشاب :

– هيا ، اضحك ، كيف عساك تكون وأنت تبكي ما دام ما تسميه سعادة يحزنك الى هذا الحد ؟

ارفقت كلمتها هذه بابتسامة ونظرة نافذتين أزالتا القناع عن النية الحسنة وبعثت الامل في قلب الشاب . غير ان الآنسة دو فرنوي ، بوحي من الغريزة التي تدفع المرأة دائماً الى الافراط في المنح او التفريط فيه ، بدت كأنها تجتذب الشاب

بنظرة حوت أخصب وعود الحب حيناً ، وحيناً تناقض تعابيرها المحببة ببرودة محتشمة. وهي عملية قاسية تخفي النساء، عادة، وراءهـــا عواطفهن الحقيقية .

وفي اللحظة التي شعر فيها كل منهما بأنه لاقى حظوة في نظر الآخر ، اخذ الاثنان يعربان عن أفكارهما الحقيقية ، لكن بعبارات وجيزة مختصرة غير كافية للافصاح عن معاني النظرات التي اخــترقت قلبيهما . ولكثرة ما قالاه في لحظة واحدة ، أدركهما الحيـــاء وباتا لا يجرؤان على تبادل النظر . وحرصت الآنسة دو فرنوي على عدم تغيير ظن الفتى البحري فيهـــا فلزمت موقفها الجدي ، ولم تخرج عن نطاق التأدب البليد. حتى انها بدت تنتظر انتهاء الطعام بفارغ الصبر.

وقالت لها مدام دو غوا :

– لا بد انك تألمت كثيراً في السجن يا آنسة .

– آه ! يا سيدتي ، يلوح لي انني ما زلت احمل آثار حزني حق اليوم .

– هل الذين برفقتك هم لحمايتك ام لمراقبتك ؟ أأنت من انصار الجمهورية ام تحت الشبهة ؟

عرفت الآنسة دو فرنوي بالغريزة ان مدام دو غوا لا تعلق عليها الكثير من الأهمية فسارعت الى اعطاء الجواب التالي :

– لا اعرف بالضبط ما هي طبيعة علاقتي بالجمهورية .

وقال الشاب بسخرية :

– لعلك تخيفين الجمهورية ؟ ، فانتهرته مدام دو غوا بقولها :

– لِمَ لا تحترم اسرار الآنسة ؟

– آه يا سيدتي ! ليست اسرار فتاةٍ ، لم تعرف من الحياة سوى الآلام، اسراراً ذات بال .

شاءت مدام دو غوا ان تفهم ابنها ماذا تعني ضمناً فتابعت حديثها قائلة .

– لكن للقنصل الاول نيات حسنة ، فقد قيل انه سيقف مفعول القوانين ضد المهاجرين .

– ربما كان ذلك صحيحاً . واذا صح الخبر فلماذا اذن نهيج فانده وبريتانيا ؟

هذا الهتاف السمج الذي اوقع قائلته تحت الملامة ، سبب رجفـــة للشاب البحري فانعم النظر في الآنسة دو فرنوي ولكنه لم يلحظ في ملامحها لا حقداً ولا حباً . لقد استعصى عليه اختراق بشرتها الناعمة التي توحي بالرقة وتدعو الى الملاطفة . وشدته اليها عاطفة عميقة ورغبات عنيفة .

وبعد فترة توقف استأنفت الفتاة المجهولة حديثها وسألت مدام دو غوا :

– هل انت ذاهبة الى مايان ؟

فأجاب الرجل على الفور :

– أجل يا آنستي .

استمرت الآنسة دو فونوي في توجيه الكلام الى مدام دو غوا فقالت :

ـ حسناً ، يا سيدتي ، طالما ان ابنك يخدم الجمهورية ... (تلفظت بهـــذه الكلمات بعدم اهتمام ، في الظاهر ، الا انها القت على كل من الشخصين المجهولين نظرة خفية هي من اختصاص النساء والدبلوماسيين) أفلا تخافان الناعقين ؟ ليس في المرافقة ما يشين . لقد اصبحنا رفاق سفر . تعالا معنا الى مايان .

ارتبك الابن والام وظهر على ملامحهما كأنهما يتشاوران ، ثم اجاب الشاب :

ـ لست ادري يا آنستي اذا كان من الحكمة ان اعترف لك بان ثمـة مصالح خطيرة تستدعي بقاءنا هذه الليلة في ضواحي فوجير ، وباننا لم نجد الى الآن وسيلة للنقـل . ولكن النساء كريمات وسمحات بطبيعتهن الى حد انني اخجل الا اثق بك . انما نريد ، قبل ان نضع نفسينا بين يديك ، ان نعرف هـــل سنخرج سالمين من مايان . هل انت مليكة حاشيتك الجمهورية ام اسيرتها ؟ ارجو المعذرة لصراحة شاب بحري ، فانا لا ارى في وضعك اي شيء طبيعي .

ـ اننا ، يا سيدي ، نعيش في زمن لا شيء مما يجري فيه طبيعي ، وعلى ذلك تستطيع ان تقبل العرض بلا خوف ، كن واثقاً من ذلك ، لا تخش اي خيانة في عرض قدمته ، بكل بساطة ، فتاة لا تتبنى الاحقاد السياسية .

ـ وهكذا لا تخلو رحلة من هذا النوع من المخاطر .

قال ذلك وهو يرمقها بنظرة فيها من الدعابة ما يعطي أهمية لهـذا الجواب السطحي ، فسألته بابتسامة ساخرة :

ـ أي شيء تخشاه بعد هذا التطمين ، انني لا أرى خطراً على احد .

وخاطب الشاب نفسه قائلاً : أترى هـذه المرأة التي تتكلم هكذا هي نفس المرأة التي قاسمتني نظرتها رغائبي ؟ يا لها من لهجة ! انها تنصب لي كميناً .

في هـذه اللحظة انطلق نعيب جلي نافذ لبومة بدت كأنها واقفة على رأس داخون المدفأة كاعلان قاتم ، فقالت الآنسة دو فرنوي :

ـ ما هـذا ؟ لن تبدأ رحلتنا بتفاؤل بالخير ، ولكن ، كيف يتم وجود بوم تنعق هنا في النهار ؟ فأجابها الشاب ببرود :

ـ يحصل ذلك في بعض الاحيان . وأضاف : ولعلنا نذير شؤم لك ، أليس هذا ما تفكرين فيه .. وعلى ذلك فلن نسافر معاً .

قال هذه الكلمات بهدوء وتحفظ أدهشا الآنسة دو فرنوي . فقالت له بلهجة ارستوقراطية : انني أبعد من ان اقركما على الرحيل معي ، لنحتفظ بالقليل من الحرية التي تتركه لنا الجمهورية ، لو كانت السيدة وحدها لألححت عليها ...

دوّت خطوات ثقيلة عسكرية في الممر وظهر القائد هولو بوجه متجهم ، فاستقبلته الآنسة دو فرنوي بابتسامة ودعته الى الجلوس على كرسي بالقرب منها وقالت له :

ـ لنهتم بشؤون الدولة طالما ان الحاجة تدعو الى ذلك ، ولكن ، ما بالـك متجهم الوجه ، هل يوجد ناعقون هنا ؟

ظل القائد صامتاً حيال الشاب المجهول وأخذ يتأمله بانتباه شديد . وقـد تشاغل البحري عنه بطرح الاسئلة على الضيوف :

ـ ألا تريدين مزيداً من لحم الارنب يا أمي ؟ وأنت يا آنسة فرانسين ، أراك لا تأكلين .

غير انه كان في دهش هولو وانتباه الآنسة دو فرنوي شيء رهيب، من الخطر تجاهله . فأضاف الشاب قائلاً :

ـ ما بالك يا سيدي القائد ! هل عرفتني ؟ فأجابه الجمهوري :

ـ ربما ...

ـ الواقع ، يلوح لي أنني رأيتك في المدرسة .

ـ لم أذهب الى المدرسة قط ، من أي مدرسة تخرجت ؟

ـ من البوليتكنيك .

ـ أي ، نعم ، من الثكنة التي تأمل ان تصنع جنوداً في صالات النوم .

هكذا اجاب القائد الذي كان يصنع مقالب لا تقاوم للضباط الذين يتخرجون من هذا المشتل العالي ، واضاف : في أي سلاح تؤدي خدمتك ؟

ـ في البحرية .

فقال هولو ضاحكاً بخبث :

ـ هذه المدرسة لا تخرج سوى ضباط في المدفعية ، فهل يوجد فيها تلاميذ في البحرية ايضاً ؟

لم يرتبك الشاب وهو يجيب :

ـ استثنيت من بين جميع الطلاب بسبب الاسم الذي احمله . جميع افراد اسرتنا كانوا بحريين .

ـ ما اسم اسرتك ايها المواطن ؟

ـ دو غوا سان سير .

ـ ألم تُقتل في مورتان ؟

اجابت مدام دو غوا على هذا السؤال بقولها :

ـ كاد ان يقتل ، فقد اصيب ابني هذا برصاصتين في قبعته .

وتابع هولو طرح الاسئلة على الشاب دون ان يصغي الى امه :

ـ اتحمل اوراقاً ؟

ـ اتريد ان تقرأها ؟ سأل البحري الشاب وهو يحدج بنظرة جانبية فاحصة وجه القائد القاتم ووجه الآنسة دو فرنوي .

ـ هات اوراقك والا فهيا ، سر أمامي .

ـ هه ، هه ، يا لك من رجل طيب ، انا لست نكرة .. وهل أنا بحاجة الى ان أجيبك !.. من أنت ؟

ـ انا قائد المنطقة .

ـ وعليه قد تكون حالتي على جانب كبير من الخطورة ، تقبض علي والسلاح في يدي .

قال ذلك وناوله كأساً من نبيذ بوردو المعتق .

فأجابه : لست ظمآن ، ما بالك !. هات اوراقك .

في هـــذه اللحظة سمعت قرقعة أسلحة وخطوات بعض الجنود تدوي في الشارع . فاقترب هولو من النافذة فطفح وجهه برضى أرعب الآنسة دو فرنوي وأخاف الشاب الذي بهت وجهه وشمخ برأسه . ثم أخرج من جيبه محفظة أنيقة وعرض على القائد الاوراق التي طلبها فقرأها هولو بتمهل وهو يقارن بين الاوصاف الواردة في الجواز وبين اوصاف وجه المسافر المشبوه. وفي أثناء ذلك عاد النعيق من جديد ، لم يكن من الصعب هذه المرة تمييز تلاعب صوت بشري فيـــه ، وعندئذ أعاد القائد للشاب أوراقه وقال له وهو يرمقه بسخرية :

ـ الاوراق صحيحة. ولكن ينبغي ان تتبعني الى المركز. انا لا احب النعيق.

واذ سألته الآنسة دو فرنوي عن سبب اقتيـــاده الى المركز اجاب وهو يتصنع الدلع كعادته :

ـ هذا الامر لا يعنيك يا بنيتي .

امتعضت الآنسة دو فرنوي من لهجة الجندي العجوز ، وبخاصة من الاهانة التي لحقت بها في حضرة رجل أعجب بهـــا ، فنهضت فجأة متخلية عن طيبة القلب والتواضع ، وهما الصفتان اللتان لازمتاها حتى الآن وقالت له وقد أشرق وجهها والتمعت عيناها :

ـ قل لي ، هل حرص هذا الشاب على التقيد بكل ما يتطلبه القانون ؟

ـ نعم، ظاهرياً .

ـ بناءاً عليه اتوقع ان تدعه لشأنه (ظاهريا) ، اتخاف ان يفلت منك ؟

سترافقه معي حتى مايان . فسيركب العربة مع السيدة امه . هـذه هي ارادتي ولا اريد ملاحظات .

واذ رأت هولو متردداً اضافت قائلة : ما بالك ؟ اما زلت تشتبه به ؟

ـ بعض الشيء .

ـ ماذا تنوي عمله ؟

ـ لا شيء اكثر من انعاش رأسه بقليل من الرصاص ، انه طائش .

ـ اتمزح يا « كولونيل » ؟

لم يحفل القائد بهذا السؤال ، بل اومـأ الى البحري يدعوه الى اللحاق به في الحال .

ازاء هذا الاصرار هدأت الآنسة دو فرنوي اعصابها وقالت للشاب وهي تبتسم : لا تتقدم خطوة .

واسر البحري في اذن امه التي قطبت ما بين حاجبيها قائلاً :

ـ ما احبها الي وهي متصلبة عنيدة !

الواقع ان الغيظ والعواطف المتعمضة اضفت مفاتن جديدة على وجه الباريسية الحسناء . وكان ان نهض الجميع ، فرانسين ومدام دو غوا وابنها وبينهم وقف القائد مبتسماً والآنسة دو فرنوي التي حلت رباط شريطتين من حقيبتهـا . وكامرأة جرحت في كرامتها او كطفل يسارع الى تجربه لعبة جديدة ، أخذت رسالة قدمتها الى القائد وطلبت منه بابتسامة ماكرة ان يقرأها . ثم استدارت نحو الشاب وهي في غمرة النصر ، فحدجته بنظرة امتزج فيها الدهاء بتعابير الحب . كلاهما بدا وضاح الجبين يغمر الفرح وجهه المضطرب ، وقد تسابقت الأفكار المتناقضة الى ذاكرتيهما . اما السيدة دو غوا ، فقد رمقتها بنظرة عميقة ايقنت بها ان حلم الآنسة دو فرنوي لم يكن من قبيل الرأفة بل بدافع الحب ، ولقـد كانت على حق ، فقد امتقع وجه المسافرة الحسناء وخفضت جفنيها وهي تتبين كل ما حوته تلك النظرة النسائية من معنى . ثم لم تلبث حيال هذا الاتهـام الخطير أن رفعت رأسها بتشامخ متحدية جميع الاعين . اما القائد هولو ، فبحنق

شديد اعــــاد للآنسة دون فرنوي الرسالة المهورة بتوقيع جميع الوزراء وهي تطلب من جميع السلطات ان تطيع اوامر هذه السيدة الغامضة، بيد انه استلّ سيفه من غمده وكسره على ركبته . وقال لها :

ـ لا شك يا آنسة في انك تعلمين ماذا تريدين عمله . إلا ان للجمهوري رأيه وكبرياءه. وأنا لا يمكنني ان اخدم حيث الحسناوات يصدرن الأوامر ، سأبعث باستقالتي هذا المساء الى القنصل الاول ، ثمة أناس غير هولو يطيعونك. إنني أقف حيث أفقد الفهم، ولا سيما حيث أمنع عن الاستفهام .

وساد الصمت فترة قطعته الباريسية الشابـة إذ تقدمت من القائد قائلة وهي تمد له يدها : أيها القائد ، على الرغم من لحيتك الطويلة تستطيع ان تقبلني ، فأنت رجل حقاً .

ـ يسرني ذلك يا آنسة .

قال ذلك وهو يطبع على يدها قبلة بلهاء. وخاطب الشاب المجهول قائلاً وهو يهدده باشارة من اصبعه : اما انت ايها الرفيق فانك في حماية حسناء .

فأجابه الشاب ضاحكاً :

ـ كلا أيها القائد، لقد انتهى وقت المزاح، انني أتبعك الى المركز اذا شئت.

ـ تتبعني مع ناعقك المتخفي مارش آتير .

ـ من ؟ مـــارش آتير ؟ سأل البحري باصدق ما يكون من تعابير الدهشة فقال القائد هولو :

ـ الم تسمع الصفير قبل قليل ؟

ـ وما هي العلاقـة بيني وبين الصفير ؟ بالعكس ، ظننت ان جنودك الذين أمرتهم باعتقالي هم الذين صفروا لينبئوك بوصولهم .

ـ أحقاً ما تقول ؟

ـ اجل ، ولكن ، ما بالك ، اشرب كأسك من نبيذ بوردو اللذيذ .

لقد فوجىء القائد بدهشة البحري الطبيعية ، وبخفة حركاته الفائقة للتصور، وبنضارة وجهه، وقد أضفى عليه شعره الاشقر المرجّل مزيداً من نضارة الطفولة،

فلعبت برأسه الظنون ، وتطلع الى السيدة دو غوا التي كانت تحاول ان تكشف سر النظرات التي كان ابنها يلقيها على الآنسة دو فرنوي وسألها بغتة :

ـ كم عمرك أيتها المواطنة ؟

ـ اواه يا سيدي القائد ، أراني ضحية قوانين الجمهورية الجائرة ، فعمري لا يزيد عن الثامنة والثلاثين .

ـ حتى ولو حكم علي بالموت لن أصدق شيئاً . ان مارش آتير هو هنا ، وقد صفر ، وأنتم ناعقون متخفون ، يا للصاعقة ! سأطوق النزل وسأفتشه .

في هذه اللحظة ، دوى صفير مذبذب أشبه بالصفير الذي سمع قبلاً وكأنه صادر من ساحة النزل ، فانقطع القائد عن الكلام وأسرع الى الرواق قبل ان يلحظ الاصفرار الذي أشاعته كلماته على وجه السيدة دو غوا . رأى هولو ان الصافر هو نفس الحوذي الذي كان يشد جياده الى العربة . فتخلى عن ظنونه على قدر ما بدا له انه من المحال ان يتورط الناعقون في قلب مدينة ألنسون فاعتذر عما بدر منه .

وفيما كان القائد يدخل الغرفة ، أسرت الام في أذن ابنها قائلة :

– سامحته الآن . ولكنه سيدفع غالياً ثمن الوقت الذي حجزنا فيه هنا .

كان الضابط النشيط يحمل على وجهه تعابير كفاح قاس فرضته واجباته على قلبه الطيب بطبيعته .ولعله حافظ علىمظهره الخشن لانه كان يعتقد بانه مخدوع. الا انه تناول كأساً من نبيذ بوردو وقال للبحري : اعذرني ايها الرفيق : ان مدرستك تورد الى الى الجيش ضباطاً صغار السن .

– وهل للعصابات ضباط اصغر سناً ؟ سأل البحري المزعوم ضاحكاً . وهنا سألت مدام دو غوا القائد :

ـ من كنت تحسب ابني ؟

ـ كنت احسبه « الغار » ، اي الرئيس الموفد الى الناعقين والى الفانديين من قبل وزارة لندن والذي يسمونه المركيز دو مونتوران .

قال القائد ذلك وحدج بانتباه عميق وجه الشخصين المشبوهين اللذين تبادلا

النظر وقد ارتسمت على وجهها تعابير فريدة تنم عن جهل مطبق لما يسمعانه وكان من الممكن تفسيرها بهذا الحوار :

ـ ألك علم بذلك ؟

ـ كلا ، وانت ؟

ـ لا علم لي البتة .

ـ ماذا يقول لنا اذن ؟

ـ انه يهذي. ثم يلي ذلك ضحكة ساخرة مهينة لمهزلة حسبت انها انتصرت.

ان تصرفات ماري دو فرنوي والارتعاشة الخفية التي ارتقت الى وجهها وهي تسمع لفظة اسم الجنرال الملكي ، لم يحسها سوى فرانسين ، الفتاة الوحيدة التي تعرف كل ما يعلو وجه سيدتها من اختلاجات داخلية . واذ شعر القائد بهزيمته ، التقط عن الارض قطعتي سيفه ونظر الى الآنسة دو فرنوي التي حركت قلبه بانفعالاتها الحارة وقال لها . اما في ما يخصك ايتها الآنسة ، فلن اتراجع عن قولي ، غداً تصل الى بونابرت قطعتا سيفي الا اذا ...

ـ وما همني من بونابرت ومن جمهوريتك ومن الناعقين والملك و « الغار » !

قالت ذلك وهي تختصر انفعالاً فيه الكفاية من القرف . لقد كانت في حالة نفسية صعدت الى وجهها الواناً براقة من العناد ، فبدت وكأن العالم باسره لم يعد في نظرها شيئاً يذكر ، ولكنها تظاهرت بالهدوء فجأة عندما رأت انظار جميع الحاضرين منصبة عليها .

نهض القائد بغتة ، وبقلق واضطراب لحقت به الآنسة دو فرنوي. اوقفته في الرواق بلهجة رسمية : هل لديك اسباب وجيهة لتظن بالشاب أنه هو «الغار» ؟ فأجابها :

ـ يا للعجب يا آنسة ، ان الحارس الذي برفقتك جاء يخبرني بان الناعقين قد قتلوا ركاب العربة وساعي البريد ، الأمر الذي كنت اعرفه . ولكن الشيء الذي اجهله هو اسماء القتلى وبينهم اثنان من غوا سان سير .

فقالت بشيء من الاشمئزاز :

ـ اذا كان لكورنتان علاقة في القضية فلا مجال للاستغراب .

ابتعد القائد وهو يتجنب النظر الى الآنسة دو فرنوي التي شغلت قلبه بجمالها الخطر . وقال في نفسه :

لو بقيت معهـــا دقيقتين اخريين لبلغت بي الحماقة حد استعادة سيفي والسير في ركابها .

ورأت مدام دو غوا ان الشاب لم يحول بصره عن الباب الذي خرجت منه الآنسة دو فرنوي ، فاقتربت من اذنه وقالت له :

ـ انت دائماً هكذا، لن تهلك إلا بسبب امرأة، حتى الدمية تفقدك صوابك، لماذا رضيتَ ان تتناول الطعام معنا؟ ما هي هذه المدعوة الآنسة دو فرنوي التي تقبل ان تتعشى مع اناس تجهلهم ، والتي يرافقهـا الزرق ، وتجردهم من أسلحتهم برسالة تحتفظ بها كأثمن شيء في حقيبتها ؟ انها احدى المخلوقات العاطلات اللواتي يستعين بهن « فوشه » على اعتقالك . وما أعطيت لهـــا الرسالة التي أبرزتها إلا لحشد الزرق ضدك .

اجابها بلهجة قاسية أصابتها كطعنة خنجر في الصميم :

ـ آه ايتها السيدة ، انها تكذب ظنك بكرم اخلاقها . اذكري جيداً ان مصلحة الملك هي وحدها التي تجمعني بك ، فبعـــد ان سقط « شاريت » على قدميك ألم يصبح العالم بأسره فارغاً في نظرك ؟ ألم تعودي تفكرين بالثأر له ؟

بعد سماعها هذه الكلمات ، جمدت مدام دو غوا في مكانها شاردة الفكر كمن يتأمل في كنوزه وهي تغرق في البحر ، وقلبه يزداد تعلقاً بثروته الضائعة .

وخلت الآنسة دو فرنوي الى مخدعهـا بعد ان بادلها الشاب نظرة وابتسامة فيها سخرية ناعمة محببة. فعلى الرغم من غموض المستقبل ، وعلى الرغم من التشاؤم بامكانية اتحادهما ، فان الامل ما برح يدغدغ قلبيهما. وعلى الرغم من قصر النظرة التي تبادلها الاثنان، فانها لم تخف عن عين مدام دو غوا البصيرة . فتقطب جبينها بعض الشيء ، وظهرت دلائل الغيرة على وجهها . وكانت فرانسين تراقبهـــا : فرأت عينيها تلمعان وخديها يرتعشان . وخيل اليها ان روحاً شريرة تطفو على

هذا الوجه الذي عصفت فيه ريح ثورة رهيبة، لكن للحظة اقصر من لمح البرق . اذ سرعان ما استعادت مظهرها المرح بقوة اذهلت فرانسين التي خالت نفسها في حلم . واذ تبينت في هذه المرأة عنفاً يضاهي عنف الآنسة دو فرنوي ، خافت وتوقعت اصطدامات مخيفة بين امرأتين متشابهتين في حدة الطباع ، وقد ارتعشت وهي تشاهد الآنسة دو فرنوي تقترب من الضابط الشاب وترمقه بنظرات محمومة ، ثم تأخذ بيديه ، فتشده اليها وتديره نحو النور بحركة انيقة ومليئة بالخبث وتقول له وهي تحدق الى عينيه :

ـ اعترف الآن ، ألست المواطن غوا سان سير ؟

ـ اجل يا آنسة .

ـ لكن هذا ُقتل مع امه اول امس .

أجاب ضاحكاً :

ـ متأسف . على كل حال . اني اكن لك واجب الاعتراف بالجميل وارجو ان اتمكن من الاعراب عنه .

ـ كنت اظن اني انقذت مهاجراً . الا اني احبك جمهورياً .

كلمات انطلقت من بين شفتيها خطأً ، فارتبكت وتراءى الخجل في عينيها. لم يعد في مجمل كيانها سوى عذوبة العواطف الناشطة ، فتركت يدي الضابط لا خجلاً ، بل بدافع فكرة ثقلت على قلبها وتركت الشاب يعلل نفسه بالأماني العذاب . ولكنها عادت فجأة فحيت رفيقي الطريق ، ثم توارت مع فرانسين .

في الغرفة ، شبكت فرانسين اصابعها وراحت تتأمل سيدتها وقالت :

ـ آه يا ماري ، كم من الاشياء مرت في وقت قصير ؟ ليس لهذه المشاكل سواك !

قفزت الآنسة دو فرنوي الى عنق فرانسين وقالت لها :

ـ انا سعيدة ، انا في السماء !

ـ بل لعلك في الجحيم .

ـ آه ! اذهبي انت الى الجحيم ، هات يدك ، ضعيها على قلبي وتحسسي

اختلاجاته . اراني محمومة . العالم باسره لم يعد يتسع لي، لطالما رأيت هذا الشاب في الحلم ، ما اجمل رأسه وما احدّ بصره !

وبصوت رقيق ثابت ووجه غمرته الكآبة سألتها فرانسين :

ـ هل يحبك ؟

ـ اتسألين ؟ ولكن ، قولي لي ، هل يستحيل ذلك ؟

ـ كلا ، لكن ، هل يحبك دائماً ؟

تبادلا النظر لحظة ، فرانسين تستطلع اختباراتها ، وماري تستجلي لأول مرة مستقبلاً سعيداً وسط العذاب ، وكأنها منحنية على حافة هاوية تختبر عمقها بالقاء حجر ، وتجيب فرانسين على سؤالها بقولها :

ـ هذا شأني، لن ألوم أي امرأة ُخدعت في حبها . وعلى كل امرأة انتتحمل مسؤولية فشلها في الحب . سأعرف كيف أحافظ على الرجل الذي امتلك قلبه، حياً او ميتاً .

وبعد صمت أردفت قائلة بدهش: ولكن، من أين لك كل هذه الخبرة يا فرانسين؟

ـ أسمع وقع خطوات في الرواق .

ـ آه ! ليس « هو » ولكن .. أهكذا تجيبين ؟.. لقد فهمتك : سأنتظر جوابك او سأكتشف ذلك بذاتي .

كانت فرانسين على حق ، فقد سمعت ثلاث دقات على الباب قطعت الحديث . وكان الطارق الضابط ميرل . فأذنت له الآنسة ، فدخل . وفيما هو يؤدي التحية العسكرية غامر بالقاء نظرة عليها ، فبهرته بجمالها . ولم يجد ما يقوله لها سوى :

ـ انني رهن اوامرك يا آنسة؟

ـ انت اذن حارسي بعد استقالة رئيسك القائد هولو !

ـ رئيسي الادجودان ماجور جيرار هو الذي أرسلني .

ـ هل اخيف قائدك كثيراً ؟

ـ اعتذري يا آنسة ، هولو لا يخاف احداً ، ولكنه لا يتعامل مع النساء ، ولا يهون عليه ان يجابه رؤساءه بسبب امرأة .

ـ بناء عليه فمن واجبه ان يطيع رؤساءه . انني احب النظام العسكري ، واحذرك بأني لا أريد مقاومة .

ـ ليس من السهل مقاومتك يا آنسة .

ـ لنعقد جلسة .. لديكم هنا قوات مرتاحة ترافقني الى مايان فنبلغها هـذا المساء ، هل بالامكان العثور على جنود جدد ليرافقونا دون ان نتوقف ؟ ان الناعقين يجهلون بعثتنا الصغيرة ، فاذا رحلنا في الليل ، نخشى ان نلقاهم فنعجز عن مقاومتهم ان كان عددهم كبيراً . قل لي ، هل يمكن ذلك !

ـ اجل يا آنسة .

ـ كيف حال الطريق من مايان الى فوجير !

ـ وعرة ، فيها طلوع ونزول ، هذا بلد خليق بالسناجيب .

ـ هيا بنا ، تقدمنا طالما لا يوجد خطر . وسنلحق بك .

خرج ميرل وهو يقول في نفسه عن الآنسة دوفرنوي :

ـ كأنها تحمل عشرسنوات من الرتب ، هولو على خطأ ، فهذه الفتاة ليست من طينة اللواتي يعملن ثروة في سرير ناعم ، وحق ألف رصاصة ، ان شاء الضابط ميرل ان يصبح لواءاً فخير له ألا يخلط ما بين القديس وابليس .

أثناء اجتماع الآنسة دوفرنوي بالضابط ميرل ، كانت فرانسين قـد خرجت الى نافذة الرواق لفحص نقطة معينة من الباحة ما برحت تجتذب فضولهـا منذ وصولها الى النزل . تأملت قش الاسطبل بانتباه عميق كأنها تصلي امام العذراء ، رأت مدام دو غوا تتجه نحو مارش آتير بحذر كأنها قطة تتجنب الدوس على الماء ، واذ رأى الناعق هذه السيدة نهض ووقف امامها بكل احترام . فثـار فضول فرانسين واندفعت الى الباحة متسللة على امتداد الجدران ، خفيـة عن نظر مدام دو غوا ، وحرصت ان تختبىء خلف باب الاسطبل . مشت على أطراف قدميها وهي تمسك أنفاسها الى ان تمكنت من التمركز بالقرب من مارش آتير دون ان تثير انتبـاهه . وراحت تصغي الى ما يدور بين مدام دو غوا ومارش آتير من حديث :

قالت مدام دو غوا : اذا ظهر ، بعد كل هذه المعلومات ، ان هـــذا الاسم ليس اسمها الصحيح ، اطلق عليها الرصاص بلا شفقة كأنها كلبة هائجة .

قال مارش آتير : سمعاً وطاعة .

ثم ابتعدت السيدة وبقي الناعق واقفاً يفرك أذنه كمن وقع في حيرة ، واذا بفرانسين تظهر له كما في الحلم فصرخ :

ـ يا قديسة حنة !. وأسقط السوط على الارض وضم يديها الى بعضها كأنه أصيب بذهول . احمر وجهه قليلاً والتمعت عيناه وقال بصوت مخنوق :

ـ أهذه حقاً بنت كوتان ؟ يا لها من « غودين ! » .

غودين كلمة غريبة يستعملها العشاق من أبناء الارياف للتعبير عن الحسان ذوات الاناقة والجمال الفتان .

وأضاف مارش آتير قائلاً وهو يقرب يده الخشنة من فرانسين ليتحسس ثقل سلسلة ذهبية تطوق عنقها وتهبط الى صدرها : أنا لا اجرؤ على لمسك .

ـ تحسن صنعاً يا بيــار . اجابت فرانسين بوحي من فطرة في المرأة تجعلهـا جائرة اذا لم تكن في ضنك من العيش. وتراجعت بترفع بعد ان استمتعت بمفاجأة الناعق . إلا انها عوضت عن قساوة كلماتها نظرةً ملؤها اللطف والعذوبة ، ثم اقتربت منه وقالت له :

ـ بيار ، لقد كانت هذه السيدة تكلمك عن الآنسة الشابة التي اخدمهـــا ، اليس كذلك ؟

لزم مارش آتير الصمت المطبق ، وانقبض وجهـــه . واصبح كالفجر بين الظلمة والنور . تطلع الى وجـــه فرانسين ، ثم الى السوط الذي اسقطهُ من يده على الأرض ، ثم الى السلسلة الذهبية التي اعجب بها اشد الاعجاب . وكأنه اراد ان يضع حداً لاضطرابه فالتقط سوطه ولكن لسانه ظل معقوداً .

قالت فرانسين وقد عرفت امانة الناعق العميقة لها وشاءت ان تبدد الاوهام.

ـ آه ! ليس من الصعب ان ادرك ان السيدة امرتك بقتل سيدتي .

خفض مارش آتير رأسه بطريقة معنوية اعتبرتهـا بنت كوتان جواباً فقالت له :

ـ حسناً يا بيار. اذا نال سيدتي اي ضرر، اذا سقطت شعرة واحدة من رأسها فسيكون لقـاؤنا هنا آخر لقاء، والى الابد، اذ اكون انا في الجنة وانت في جهنم.

ما كان اصدق المتعلقين باوامر الكنيسة اشد اضطراباً من مارش آتير وهو يسمع هذه النبوءة، تلفظ بايمان حار ترك في نفسه ما يشبه التأكيد. والقى على الفتاة نظرة ممزوجة بحنان وحشي، ثم استسلم لعصبية الأيمان وكانت فروضها اكثر الزاماً له من الحب، وبدا اكثر توحشاً عندمـا لحظ سيماء التسلط على حبيبته البريئة، ففسرت سكوته على طريقتها وقالت له معاتبة :

اذن، فانت لا تريد ان تفعل شيئاً من اجلي ؟

ـ لدى سماعه هذه الكلمة، القى الناعق على حبيبته نظرة قاتمة اشد قتوماً من الغراب. وسألها بصوت هامس :

ـ أأنت حرة ؟

فأجابته بامتعاض :

ـ اكنت اكون هنا... وانت ماذا تفعل هنا ؟ انك ما زلت تنعق، تركض في الطرقات كالحيوان الهائج، آه ! يا بيار لو كنت عاقلاً لجئت معي. ان هذه الآنسة الحسناء التي كانت في الماضي رضيعاً عندنا (ولك وحدك اقول ذلك) قد اعتنت بي وضمتني اليها. دخلي اليوم عندها لا يقل عن مئتي ليرة ! واشترت لي بيت عمي توماس بخمسماية ليرة ذهبية، ولدي في بنك التوفير الفان من الليرات.

غير ان ابتسامتها وتعداد كنوزها فشلا امـام التعبير الخفي الذي تخلل جملته التالية :

ـ لقد اعلن المرشدون الحرب، ودم كل « ازرق » يساوي غفراناً من الله.

ـ ولكن. قد يقتلكم الزرق.

اجابها على ذلك بارخاء ذراعه كأنه يستخف بحياته التي نذرها لله وللملك،

فقالت بحسرة :

ـ وماذا يحل بي ؟

حدق مارش آتير الى وجه فرانسين ببلاهة ، عيناه تتسعان ، وانسكبت منهما دمعتان تدحرجتا على وجنتيه ثم الى جلد المعزى الذي يغطيه واطلق زفرة من اعماق صدره . فصرخت فرانسين :

ـ يا قديسة حنة الاورية!.. اهذا كل ما تقوله لي بعد فراق دام سبع سنوات يا بيار ؟ لشدّ ما تغيرت !

اجاب بصوت مخنوق :

ـ مازلت احبك .

ـ كلا انت لا تحبني ، انت تحب الملك اكثر مني .

ـ ان ظللت تنظرين الي هكذا فسأذهب في سبيلي .

قالت بأسى :

ـ الوداع اذن .

ـ الوداع .

قال مارش آتير ذلك وأمسك بيد فرانسين ، فضغط عليها وقبلها ، ثم رسم على وجهه اشارة الصليب وهرب الى الاسطبل كالكلب الذي ظفر بعظمة .

وفي الاسطبل قال لبيل ميش رفيقه : لقد أفلست من التبغ أتحمل جعبتك؟

ـ يا للوقعة الزرقاء!.. أجاب بيل ميش وهو يبحث في جيبه تحت جلد المعزى.

وناول مارش آتير قبعاً صغيراً من قرن الثور يضع فيه البريتونيون التبغ الناعم الذي يسحقونه بأنفسهم في سهرات الشتاء الطويلة . ورفع الناعق ابهام يده بطريقة تشكل في رسغ يده اليسرى نقرة يقيس بها العجزة حاجتهم من التبغ . خض بقوة القراب فتساقط من الثقب الذي في طرف القبع مسحوق استنشقه مارش آتير وكرر هذه العملية أكثر من سبع مرات كأن هذا المسحوق قد تسلط عليه وغير طبيعة أفكاره . وفجأة أطلق حركة يائسة . أعاد القراب لبيل ميش وأخذ بندقيته التي كانت مخبأة بين القش وقال لرفاقه بصوت أجش :

ـ هيا بنا ، لدينا مهمة .

وفي الحال رفع ثلاثون ناعقاً، كانوا نائمين تحت المعالف وبين القش، رؤوسهم، فرأوا مارش آتـــير منتصباً على قدميه . فتواروا من باب يؤدي الى البساتين ومنها الى الحقول .

عندما خرجت فرانسين من الاسطبل وجدت العربة على أهبة الرحيل وقـد جلست فيها الآنسة دوفرنوي ورفيقا السفر . ارتجفت البريتونية عندما رأت سيدتها جالسة داخل العربة الى جانب المرأة التي أمرت بقتلها، والشاب «المشبوه» أمامها. وما ان اتخذت فرانسين مقعدها حتى أقلعت العربة الثقيلة بسرعة فائقة.

الشمس تبدد غيوم الخريف الرمادية في السماء ، وشعاعها يمسح كآبة الحقول لتدب فيها البهجة والشباب ، وهي ظاهرة طبيعية يتفاءل بهـــا الكثيرون من العشاق ، ومع ذلك دهشت فرانسين للصمت الذي ساد، في بادىء الأمر ، ركاب العربة . فقد كانت الآنسة دوفرنوي قد استعادت مزاجها الرائق وبدت مخفضة العينين ، ملوية الرأس ، يداها مندستان تحت جبة ، تشبه المعطف ، تلفّها ، فان رفعت عينيها ، فلتشاهد مناظر الطبيعة المتوارية دون ان تبالي بشيء منها على الرغم من ان بعضاً منها يثير الاعجاب . كانت في موقفها اللامبالي هذا أميل الى التخنث منها الى البراءة التي أبت ان تضفي عليها جمالها لأنها حصرت كل تعابيرها في عواطف الحب . والشاب ، الذي كان تحت سلطان تلك الفرحة التي تواكب المغامرات العاطفية عند بزوغها ، لم يكن يشغل فكره بتفسير التنافر البادي بين دلع هذه الفتاة الفريدة وبين حميتها واندفاعها . كان يتأمل بلذة محياها ، الرائع في سكينته كما كان رائعاً في هياجـه . وما كان الفتى المعجب ليتساءل عن مدى الصدق في تلك البراءة المصطنعة . فنحن نسيء الظن بالينبوع الذي نغترف منه لذاتنا .

يصعب على المسافرة ان تتقي نظرات رفاق السفر. تلصق بها أبصارهم كأنها تبحث عن ملهاة تقاوم بها رتابة الطريق . لذا اغتنمها ، الضابط الشاب ، فرصة لارضاء نهم حبــه الوليد وراح ينعم النظر في الخطوط البريئة المتجلية في قسمات وجه الآنسة دوفرنوي التي بدت له كلوحة فنية . فتارة كان النور يبرز اللون

الوردي الشفاف على المنخرين وعلى القوس المزدوج الذي يصل الانف بالشفة العليا . وطوراً تعرض أشعة الشمس الحائلة تموجات اللون للنور فتظهرها لؤلؤية تحت العينين وحول الفم ، وردية على الخدين ، وكامدة قرب الصدغين وحول العنق . تأمل في تعاكسات النور والظل التي يحدثها شعرها ذو الحلقات السوداء المتاوجة حول وجهها فتضفي عليه جمالاً سرعان ما يزول . فكل شيء في المرأة موقت سريع الزوال ، ان جمالها اليوم هو غير جمالها بالامس ، ولربما كان ذلك من حسن حظها ! وكان في سن تدعو الرجل للاستمتاع حتى بتفاهات الحب ، فتوسم السعادة في رفة جفونها المتكررة ، وفي حراك صدرها الشهي اذ يموج بفعل تنفسها .

ويرمق ببصره الحاد من وقت لآخر التجاوب القائم بين تعبير العينين وبين اهتزازات الشفتين الخفية ، كان يرى في كل حركة من حركاتها روحاً ، وفي كل اشارة وجهاً جديداً لهذه الفتاة الخارقة ، اذا اختلجت قسماتها تحت تأثير بعض الأفكار ، او اذا غشيت وجهها حمرة عابرة ، او اذا أشاعت الابتسامة فيه الحياة ، تراه يلتهب لذةً وهو يحاول خرق اسرار هذه المرأة الغامضة وكل شيء فيها كمين للروح وأحبولة للحواس . والصمت الذي لم يقم أي عقبة في سبيل تفاهم القلبين ، أصبح الرابط المشترك بين الافكار ، فقد أدركت ماري دو فرنوي من تلاقي نظراتها بنظرات الشاب الغريب ان هذا الصمت سيعرضها للخطر . فراحت تطرح على السيدة دو غوا بعض الأسئلة التافهة التي تمهد للاحاديث الطويلة ، غير انها لم تستطع ألا ان تشرك ابنها ، قالت لها :

ـ كيف استطعت ، يا سيدتي ، ان تدخلي ابنك في البحرية ؟ ألا يسبب لك ذلك هموماً لا نهاية لها ؟

ـ لقد كتب على النساء ، اردت ان اقول على الامهات ، ان يعشن في قلق دائم على أعز كنوزهن ، يا آنسة .

ـ السيد يشبهك كثيراً .

ـ فعلاً يا آنسة . هذا الاقرار البريء الذي أيدت به مدام دو غوا سنها

المزعوم ، دفع الشاب الى الابتسام وأثار في صدر الام المرتجلة قهراً جديداً . فكان حقدها ينمو ويتعاظم لكل نظرة حب يلقيها ابنها على ماري . فكان الصمت والكلام يثيران فيها عاصفة مقنّعة بأعذب مظاهر اللطف .

قال الشاب مخاطباً الآنسة دوفرنوي :

ـ انت على خطأ يا آنسة ، ان البحارة ليسوا اكثر تعرضاً للخطر من سائر العسكريين . يجب على النساء ألا يكرهن رجال البحرية :

انا نمتاز عن سائر قوات البر بالامانة لحبيباتنا ؟

ـ آه ! قالت الآنسة وهي تضحك : آه ! امانة اضطرارية .

فأجابتها مدام دو غوا بلهجة شبه قاتمة :

ـ أمانة على كل حال .

وتطور الحديث وشمل مواضيع لا تهم سوى المسافرين الثلاثة ، ففي مثل هذه الظروف يعطي الاذكياء معانٍ جديدة للتفاهات . الا ان الموضوع الذي طاب للثلاثة ان يناقشوه حبياً اخفى رغائب وعواطف وآمالاً تقض المضاجع ، فقد فهمت مدام دو غوا من لباقة وخبث ماري التي ما فتئت واقفة لها بالمرصاد، ان لا شيء سيمكنها من التغلب على عدوة مقتدرة بجمالها وذكائها الا الوقيعة والغدر والخيانة .

لحقت عربة المسافرين الحاشية فخففت من سرعتها . ورأى البحري طريقاً منحدرة فاقترح على الآنسة دو فرنوي بذوق وأدب القيام بنزهة . فرضيت الباريسية بالعرض الا انها سألت مدام دو غوا اذا كانت توافق على ذلك واذا كانت ترغب في النزهة . فقالت وهي تنزل من العربة :

ـ يا للفتاة اللعوب !

سارت ماري والشاب معاً ، انما منفصلين ، وكان البحري بشوق الى اسقاط قناع التحفظ الذي يحاط به ، وهو الذي لا يغفل عن شيء. وخيل اليه ان باستطاعته ذلك عن طريق مباسطة الفتاة في ظل الكياسة الفرنسية ، تلك الروح الخفيفة حيناً ، الجدية حيناً آخر ، روح الفروسية السائدة ، الساخرة احياناً التي امتاز

بها رجال مرموقون من الارستوقراطية المبعَدَة . غير ان الباريسية الضاحكة مازحته بخبث وقد اخذت عليه امانيه الطائشة واحلامه الخفيفة مؤثرةً عليها ما كان يبرز في حديثه ، بالرغم من ارادته ، من افكار قوية وروح وثابة ، حتى انتهى الى معرفة حقيقة ما يرضيها .

وتغير الحديث ، وقد حقق الغريب الآمال التي ابرزتها تعابير وجهه ، وكان يعاني من وقت الى آخر صعوبات جديدة في استجلاء حقيقة تلك الحورية التي ازداد تعلقه بها .

وبعد ان تأمل طويلاً جمالها وافتتن به ، انقاد الى روحها مدفوعاً بفضول طاب لماري ان تثيره فيه . وبصورة لاشعورية اتخذ الحديث طابع الصداقة الحميمة على الرغم من اللامبالاة التي اجتهدت الآنسة دو فرنوي ان تطبعه بها دون جدوى .

اما مدام دو غوا ، فقد لحقت بهما الا انهما تقدماها بمسافة طويلة . كان هذان المخلوقان الجميلان يعبثان بأديم الطريق ، يحدوهما شغف طفولي الى توحيد وقع خطواتهما ، حبيبان تلفهما اشعاعة واحدة ، يبدو انها من اشعاعات شمس الربيع الدافئة ، ويتنشقان معاً روائح الخريف المثقلة برواسب نباتية كانها غذاء ينقله الهواء لكآبة الحب الوليد . وعلى الرغم من ان كليهما لم ير في اجتماعهما المؤقت سوى مغامرة عادية فالسماء والموقع والفصل وكل ما حولهما نبه عواطفهما الى وجه الخطورة في مظهر حبهما . فقد بدآ يتمدحان النهار ومحاسنه . ثم تحدثا عن لقائهما الغريب وعن قرب قطع علاقة محببة ، وعن سهولة التعارف في السفر بين اشخاص لا يكادون يتقابلون حتى يفترقوا . وعلى ذكر الملاحظة الاخيرة اغتنمها الشاب فرصة سانحة لابداء شيء من مكنونات صدره وحاول المجازفة ببعض الاعترافات كرجل اعتاد مثل هذه الحالات فقال لها :

ـ هل لاحظت يا آنسة كيف تسير العواطف في الازمنة المضطربة . انها قلما تتبع الطريق المشتركة في زمن الارهاب الذي نعيش فيه . أليس كل شيء تحت رحمة المصادفات ؟ اننا اليوم نحب ونبغض لنظرة عابرة ، نجتمع لمدى

الحياة ، او نفترق ، بنفس السرعة التي يقبض بها ملاك الموت ارواح البشر ، السرعة، السرعة في كل شيء. وذلك شأن الامة ايضاً في حياتها الجديدة الصاخبة. ففي باريس كما في ميدان القتال بات كل فرد ما تعنيه في الحقيقة مصافحة هـذا لذاك ، او ذاك لهذا .

فأجابته :

ـ انه الشعور بضرورة اغتراف الحياة على نطاق واسع ، لأن الحياة قصيرة .

وبعد ان رمت رفيقها الشاب بنظرة عبرت عن فحوى رحلتها القصيرة ، قالت بخبث :

ـ انك ولا شك خبير بشؤون الحياة بصفتك شاباً خريج معهد .

بعد فترة صمت قال الشاب :

ـ وما هو رأيك في ؟ قوليه دون رياء . فأجابت ضاحكة :

ـ لا شك انك تريد بذلك ان تحصل على حق ابداء رأيك في؟.. وبعد لحظة سكوت اردفت قائلة :

– انك لا تجيب، انتبه جيداً، فالسكوت غالباً ما يكون جواباً . وقالت:

ـ أتراني لم ادرك كل ما تريد ان تقوله لي ؟ لقد تكلمت كثيراً .

ـ آه ! لو اننا نتفاهم لكنت احصل على اكثر مما اجرؤ ان اتوقعه .

واسترسلت في الابتسام بلطف وايناس الى حـد بدت كأنها قبلت المنازلة الحبية التي يطيب لكل شاب ان يهدد بها المرأة . وقد عرفا بالجد والمزاح انه من المستحيل ان يكون احدهما للآخر غير ما هما عليه الآن . فبامكان الشاب ان يسترسل في حب بلا مستقبل ، وبامكان ماري ان تضحك على نفسها . واذ رفعا الحاجز الوهمي بينهما ظهرا كأنهما مستعجـلان للاستفادة من الحرية الخطرة التي اشترطاها ، فقد عثرت ماري فجأة بحجر ، فقال لها الشاب :

ـ خذي بذراعي .

ـ هذا ما يلزم ، يا لي من مغفلة ! ما أشد ما يكون افتخارك لو رفضت ، ألا ابدو ، اذ ذاك ، انني اخافك ؟

فاجابها وهو يضغط على ذراعها ليشعرها بدقات قلبه :

– آه ! يا آنسة سأكون جد فخور بهذا الانعام .

– حسناً ، ان تساهلي ينتشلك من اوهامك .

– وتريدين ان تدافعي عني ضد خطر التأثرات التي تسببينها لي ؟

– ارجوك ان تكف عن تطويقي بآراء رخيصة تشف عن الحرد ، وبألغاز صبيانية من نسج الشارع ، انا لا احب ان اجد في رجل من مستواك عقلية البلهاء. ارأيت ؟ اننا تحت سماء جميلة ، وفي قلب البرية ، وكل شيء امامنا عظيم . تريد ان تقول لي انني جميلة أليس كذلك ؟ نظراتك تنبىء بذلك . وانا اعرف انني جميلة ، الا انني لست المرأة التي تؤخذ بالمدائح ، ام انك تريد ان تحدثني عن عواطفك؟ أو تظنني من البساطة بحيث اصدق لياقات طارئة من شأنها ان تسيطر على حياة بكاملها بمجرد ذكرى صبحية عابرة ؟

ـ كلا ، ليست ذكرى صبحية . بل ذكرى امرأة جميلة بدت كريمة .

ـ انك نسيت اموراً خطيرة اخرى : قل امرأة مجهولة كل شيء فيها يبدو غريباً ، الاسم والصفة والوضع ، حرة التفكير . حرة التصرف .

ـ انت لست غريبة في نظري . لقد عرفتك ولا اريد مزيداً على مزاياك الا القليل من الثقة في الحب الذي اوحيته منذ البداية .

ـ آه ايها الولد في السابعة عشرة من عمرك ! اتتكلم عن الحب ! حسناً. لكن هنا سر حديث بين شخصين . انك لن تجد فيّ ، لا التواضع المصطنع ولا الخسة والصّغار . مثل هذه الكلمة استطيع ان اسمعها بلا خجل ولقد سمعتها عدة مرات من اللسان وليس من القلب ! فلم تعد تعني شيئاً بالنسبة الي ، سمعتها تكراراً في المسرح ، وفي الكتب ، وبين الناس ، وفي كل مكان ، الا انني لم اصادف شيئاً من مثل هذه العاطفة الرائعة .

ـ وهل طلبتِها ؟

ـ اجل .

لفظت كلمة اجل بمزيد من اللامبالاة دهش له الشاب ، فحدق الى ماري طويلاً كأنه غير رأيه فجأة بخلقها وبوضعها الحقيقي .

فقال بانفعال لم يحسن اخفاءه :

ـ يا آنسة ، أأنت فتاة ام امرأة ! ملاك ام شيطان !

ـ هذا وذاك ، ألا يوجد شيء من الشيطان وشيء من الملاك في بنت لم تُحَب ، ولم تحِب ، وقد لا تعرف الحب ابداً ؟

ـ افأنت سعيدة هكذا !

قال ذلك بلهجة من يحس انه استعاد حرية فكره وحركاته ، فبات اقل اهتماماً بحررته . فأجابته على سؤاله قائلة :

ـ سعيدة ؟ كلا ، لو فكرت بأنني وحيدة مقيدة بشروط اجتماعية تجعلني اصطناعية بضرورة الحال فقد احسد الرجل على امتيازاته ، ولكن ، اذا فكرت في جميع الوسائل التي اسبغتها علينا الطبيعة لتطويقكم انتم الرجال ، لاصطيادكم في شباك غير مرئية بقوة لا يمكن لأي منكم ان يقاومها فاني عندئذ اضحك من الدور الذي امثله في الحياة الدنيا ، وبغتة يبدو لي الرجل صغيراً وأشعر بأنني احتقره اذا بدا فريسة مفاتن عادية . الحظ تارةً طغياننا فيعجبني ثم يبدو لي مروعاً فأرفضه ، حيناً احس في نفسي الرغبة في الاخلاص الذي يضفي على المرأة جمالاً اصيلاً ، ثم لا ألبث ان اعاني رغبة ملحة في السيطرة التي تبتلعني ، لعلها المعركة الطبيعية بين الخير والشر التي يعيشها كل مخلوق على وجه الارض ، ملاك وشيطان ، انت قلت ، ولكنني ما بقيت الى اليوم حتى عرفت طبيعتي المزدوجة ، إلا اننا ، نحن النساء ، ندرك احتياجاتنا اكثر منكم معشر الرجال. أليس فينا غريزة تجعلنا نحسن في كل شيء ما من المحال ادراكه ؟

واضافت قائلة وهي تنظر الى السماء وتصعد زفرة :

ـ ولكن الذي يكبرنا في نظركم ...

ـ أننا ...

فأجابت : اننا جميعاً نكافح مصيراً لم يكتمل .

ـ لماذا اذن نفترق هذا المساء يا انسة ؟

قالت وهي تبتسم للنظرة الأليمة التي رماها بها الشاب :

ـ آه ! لنعد الى العربة فالهواء الطلق لا يواتيك .

واستدارت ماري فجأة فلحق بها الشاب وضغط ذراعها بطريقة خالية من الاحترام الا انها عبرت عن رغائب كمينة وعن اعجاب في نفس الوقت . وحثت خطاها ، فأدرك الشاب انها تريد ان تهرب من مصارحة قد تكون مزعجة . فما زاده ذلك الا اضطراماً . جازف بكل شيء لينتزع منها المنحة الاولى وقال لها وهو يرمقها بنعومة : اتريدين ان اطلعك على سر .

ـ اوه ! قله بسرعة اذا كان يتعلق بك .

ـ انا لست في خدمة الجمهورية ، فحيثما تذهبين اذهب .

لدى سماعها هذه الكلمة ارتجفت ماري بعنف . سحبت ذراعها منه . وغطت وجهها بيديها لتخفي ما انتابه من الحمرة أو الأصفرار . الا انها عادت فكشفت عن وجهها وقالت بصوت متأثر :

ـ على ذلك فقد ابتدأت من حيث كان يمكن ان تنتهي .. لقد خدعتني ؟

قال : أجل .

على هذا الجواب ادارت ظهرها للعربة التي كانا قد اتجها نحوها ، واخذت تركض او تكاد . فقال لها :

ـ الهواء الطلق لم يواتك ؟

ـ آه ! لقد انقلب اتجاهه.

قالت ذلك بصوت عميق وهي تتابع سيرها فريسة افكار عاصفة .

ـ اتسكتين ؟ سألها الغريب وقد امتلأ قلبه بشعور ناعم كذلك الشعور الذي يبعثه ترقب المسرات :

قالت باقتضاب :

ـ آه ! لقد بدأت المأساة بسرعة .

ـ اي مأساة تعنين ؟

توقفت عن السير ، ورمقت الشاب بمزيج من الخوف والفضول ، ثم اخفت

تحت ستار كتيم من الهدوء والمشاعر التي كانت تهزها . وبرهنت على انها فتاة سبرت غور الحياة بقولها :

ـ من انت ؟.. ولكنني عرفتك ، لقد ارتبت بك من النظرة الاولى ، انت الزعيم الملكي الملقب بـ « الغار » . لقد كان اسقف اوتان السابق على حق عندما قال بوجوب الايمان بهواجس القلب التي تنبىء بما سيقع من المصائب .

ـ أي مصلحة لك بالتعرف الى هذا الشاب ؟ أي مصلحة له في التخفي عني ما دمت انقذت حياته ؟ كذلك كنت أتساءل في قلبي .

واخذت تفتعل الضحك . ثم قالت : لقد أحسنت صنعاً بمنعك من مصارحتي بحبك . والآن فاعلم يا سيدي أنني اكرهك ، انا جمهورية وانت ملكي . كان علي ان اسلمك لو لم اقطع لك عهداً ولو لم انقذك مرة ، ولو ... وامسكت عن الكلام .. فأثار تقلبها العنيف والخصومة التي لم تهتم باخفائها قلق الرجل. فحاول ان يرافقها لكن دون جدوى .

قالت : فلنفترق في الحال ، تلك ارادتي ، الوداع .

قالت ذلـك وارتدت الى الوراء بسرعة . خطت بضع خطوات ثم عادت لتقول له : كلا ، لي مصلحة كبرى في ان اعرف من انت . لا تخف عني شيئاً . قل الحقيقة بعينهـا ، من انت ؟ انك لست أكثر من تلميذ مدرسة ولم تتجاوز السابعة عشرة من عمرك ...

ـ انا بحري على استعداد للتخلي عن البحر لأتبعك حيث يحلو لخيالك ان يذهب بي .

ليت شعري لم تخلطين شؤون القلب، حيث بدأنا بالتفاهم والتقارب ، بشؤون الحياة العويصة. وان كان في وجودي سر غامض يثير اهتمامك فما اسعدني بذلك، وما اشد رغبتي في الاحتفاظ بما يهيج فضولك .. قالت بصوت عميق :

ـ قد كان بامكان روحينا ان تتفاهما يا سيدي. لكن لا يحق لي ان اطلب ثقتك. انك لن تعرف قط مدى واجباتك نحوي ولذلك فاني الزم الصمت.

وتقدما بضع خطوات مطرقين الى ان قال الشاب :

ـ لكم تهمك حياتي !

ـ سيدي ارجوك ، قل اسمك والا فاصمت .

واضافت وهي ترفع كتفيها : انكَ ما زلت ولداً ، وانك لتثير اشفاقي .

لقد جعله اصرار المسافرة على معرفة سره يتردد ما بين رغباته والاستمرار في التكتم. فللمرأة المشتهاة، حين يدب فيها دبيب الكيد والأسى، جاذبية ساحرة: انها جبارة في خضوعها كما هي في تمردها. تصيب الرجل في الف وتر في صميمه فتنفذ اليه وتخضعه ، فهل كان ذلك بالنسبة للآنسة دو فرنوي لوناً جديداً من الوان دلّها الفاتن ! لقد وجد الرجل الغريب ، على الرغم من غرامه المتأجج ، القدرة على تحدي امرأة شاءت ان تنتزع منه ، بعنف ، سراً يتوقف عليه امر حياته ومماته . وقال وهي تترك له يدها بصورة لاشعورية :

ـ لماذا هدم تهوري حلاوة هذا النهار الذي بنيت عليه مستقبلي ؟

واذ بدت الآنسة دو فرنوي متألمة قال لها :

ـ باي شيء احزنتك وكيف يمكنني ان اخفف عنك ؟

ـ قل لي ما اسمك ؟

لزم الصمت بدوره . وفجأة وقفت الآنسة دوفرنوي كأنها اتخذت قراراً خطيراً وقالت :

ـ سيدي المركيز دو مونتوران ، مهما يكلفني الأمر ، فاني سعيدة بالخدمة التي أديتها لك ، هنا سنفترق ، ان العربة والحرس ضروريان لسلامتك بحيث لا يمكنك ان ترفض أياً منهما ، فلا تخش شيئاً من الجمهوريين ، جميع هؤلاء الجنود ذوو نخوة وشرف . وسأعطي الضابط اوامر لينفذها في الحال بكل امانة ، اما انا فاني استطيع ان اصل الى ألنسون مشياً على القدمين مع وصيفتي بحراسة بعض الجنود . اصغ اليّ جيداً فالمسألة تتعلق بحياتك ، ان قابلت الشاب المخنث الكريه الذي رأيته في النزل قبل ان تبلغ شاطىء الامان فاسرع بالهرب وإلا فسيسلمك في الحال . اما من جهتي انا ... وتوقفت عن الكلام لحظة ثم تابعت كلامها : اما من جهتي ، فانني، سأعود بكبرياء لألقي بنفسي في تعاسات الحياة.

قالت ذلك بصوت خافت وهي تغالب دموعها .

– الوداع يا سيدي ، ارجولك السعادة في حياتك ، الوداع ...

وأشارت الى ميرل وكان يقترب من قمـــة الهضبة . ولم يكن الشاب يتوقع خاتمة كهذه الخاتمة الخاطفة فاستوقفها بلهجة تصنع فيهـا اليأس العميق . وتلك النزوة العجيبة التي بدرت من فتاة كان يستعذب الموت في سبيلها حملته على ابتكار حيلة خرقاء يخفي بها اسمه ويرضي بها فضول الآنسة دوفرنوي في الوقت ذاته فقال:

ـ كدت تعرفين حقيقتي ، فأنا مهاجر محكوم بالموت ، اسمي الفيكونت دو بوفان ، قادني حب وطني الى فرنسا لأكون الى جانب شقيقي على امل ان يُشطب اسمي من اللائحة بواسطة نفوذ مدام دو بوهارني زوجة القنصل الاول ، فان خاب رجائي ، فسأموت على تربة بلادي مناضلاً الى جانب صديقي مونتوران ، الذي بعث لي بجواز سفر وانا ذاهب سراً الى بريتانيا لأرى هل بقي لي فيها شيء من أملاكي .

فيما كان النبيل يتكلم ، كانت الآنسة دوفرنوي تتفحصه بنظرة ثاقبـــة . حاولت ان تشكك بصحة اقواله ، إلا انها وهي السريعة التصديق ، استعادت هدوءها وهتفت : احقاً ما قلته يا سيدي ؟

ـ بكل تأكيد .

تنفست الفتاة الصعداء . وكميت عادت اليه الحياة هتفت :

– آه ! انني الآن سعيدة .

ـ ألهذا الحد تكرهين صديقي البائس مونتوران ؟

ـ كلا ، انك لا تفهمني . لم أشأ ان تكون انت عرضة للأخطار التي تهدده والتي سأحاول ان ادفعها عنه طالما انه صديقك .

ـ ومن قال لك ان مونتوران في خطر !

ـ ما كنت لأعرف ذلك لو لم أكن قادمة مـن باريس حيث لا قضية سوى قضيته . اعتقد ان قائد ألنسون أخبرنا ما فيه الكفاية عنه .

ـ على ذلك أسألك كيف يمكنك ان تنقذيه من الخطر ؟

ـ وان رفضت الاجابة علىهذا السؤال ؟ .. ثم بأي حق تريد ان تقف على أسراري ؟

ـ بالحق الذي يملكه رجل يحبك .

ـ منذ متى؟.. كلا يا سيدي انك لا تحبني. انك تجد فيّ ملهاة عابرة، وذلك حسبك .. ألم اكشفك منذ رأيتك ؟ من ذا الذي خبر حياة المجتمع ثم ينخدع وهويصغي الى تلميذ يستعمل تعابير مختارة ويخفي، على اسوأ ما يكون التكلف، كما فعلت انت ، تصرفات السادة العظام تحت قشور الجمهوريين ، لكن ذرور التأنق لا يزال عالقاً في شعرك ، ولا يزال يفوح منك عطر النبلاء وهو اول ما تشمه سيدة المجتمع ! إن ضابطاً جمهورياً حقيقياً تخرج حديثاً من المدرسة لا يعتبر نفسه في امان وهو بقربي ولا يمكن ان يعتبرني محتالة حسناء . اسمع لي يا سيد بوفان ان اقدم لك بهذه المناسبة درساًفي المرأة، أأنت صغير السن الى حد ان تجهل ان اصعب مخلوقة، من بنات جنسنا، للاخضاع هي ذات السعر المحدد بالارقام والتي باتت تضجرها الملذات !..

مثل هذه المرأة لا تستجيب ، على ما قيل لي ، الا للاغراءات الجسيمة ، ولا تتبع الا نزواتها . فاذا زعم احدهم انها تهواه لذاته فذلك من حمق الغرور لدى الرجال . ولندع جانبا هذه الطبقة من النساء التي تكرمت فتخيلتني منها .. عليك ان تفهم جيداً أن شابة نبيلة، جميلة وذكية (انك تطريني باكثر من ذلك) لا تباع ولا يمكن الحصول عليها الا بطريقة واحدة ، هي ان تكون محبوبة ، اتسمعني ؟ ومتى كانت محبوبة وطاب لها ان ترتكب حماقة فيجب تبريرها بشيء من التعظيم اعذرني لهذه « الفخفخة » المنطقية النادرة عند بنات جنسنا ، والتي هي من مستواك ومستواي . انا لا اريد ان ننخدع بميزاتنا . ولا اريد ان يدخل في روعك ان في وسع الآنسة دو فرنوي ، سواءاً كانت ملاكاً ام شيطاناً بنتاً أم امرأة ، ان تستسلم بالغزل المبتذل التافه .

قال المركيز وقد اشتدت دهشته وان خفيت ، وتحول فجأة الى رجل مجتمع

من الطبقة العالية :

ـ ارجوك يا آنسة ان تصدقي انني اقبلك كشخصية نبيلة ذات قلب كبير مليء بالعواطف السامية ، او .. كبنت طيبة ، كما تشائين .

ـ لا اطلب منك كل ذلك يا سيدي . دعني احتفظ بصفتي المتنكرة فان قناعي اكثر احكاماً من قناعك . وهكذا اريده لا لشيء الا لمعرفة الناس الذين يحدثونني عن الحب أهم مخلصون ام لا .. وبناءً عليه فلا تخاطر بنفسك بخفة وانت بقربي .

ثم قالت له وهي تضغط على ذراعه بقوة :

ـ لو انك تستطيع ان تثبت لي حباً حقيقياً لما وجدت قوة بشرية تفصلني عنك . أجل ، بودي ان ارتبط برجل ذي كيان عظيم ، بودي ان اتزوج الطموح والأفكار الجميلة. ان القلوب النبيلة ليست خائنة والصبر من شيمها. بذلك ادرك الحب والسعادة بل سأكون دائماً على استعداد لأن اجعل من جسدي درجة يرتفع عليها الرجل الذي احبه ، لأن اضحي بنفسي من أجله واتحمل كل شيء فيه ، حتى ولو فتر حبه لي. لم اجرؤ قط في حياتي ان أأمن قلباً آخر لا على تمنياتي ولا على وثبات الشوق الى العظمة التي تقض مضجعي . ولكن ، بامكاني ان اقول لك شيئاً ما دمنا سنفترق حالما تصبح في أمان .

ـ نفترق ؟ كلا ، ابداً ، قالها وهو مبهور النفس باصداء هذه الروح الجبارة التي بدت كأنها تغالب عاملاً رهيباً في داخلها .

واردفت الآنسة دو فرنوي قائلة بلهجة مزدرية : أأنت حر ؟

ـ آه ! اجل الا من الحكم بالاعدام .

عندئذ قالت له بصوت مليء بالعواطف المريرة :

ـ لو لم يكن كل هذا حلماً من الاحلام فاي حياة رائعة انت تحيا . ان كنت قد تفوهت ببعض الحماقات المجنونة فعلينا ان نتجنب ارتكاب مثيلاتها .

عندما افكر بما ينبغي ان تكون لتقدرني حق قدري ، فاني ارتاب بكل شيء .

ـ اما انا فلن ارتاب بشيء ان شئت ان تكوني لي ...

ـ صه ! هتفت وهي تسمع هذه الجملة التي تفوه بها باصدق ما في هواه من حمية واضافت :

ـ الهواء الطلق لا يواتينا. فلنلحق برافقينا .

لم تلبث العربة ان لحقت بهما فعادا الى مقعديهما واستغرقا لبعض الوقت في صمت مطبق ، ولو ان احدهما وجد موضوعاً للحديث فان أعينهما لم تعد تخشى الالتقاء . كل منهما وجد له مصلحة في التحفظ واخفاء السر الخطير. إلا انهما شعرا بشيء يشدهما الى بعضهما برغبة واحدة ما فتئت منذ لقائهما تحرك مكامن الحب فيهما. اذ ان كلاً منهما اعترف للآخر بصفات ترفع من شأن الرغبات التي تعللا بها سواء في الخصومة او الزواج . لعلهما ، وكل منهما يعيش حياة المغامرة ، قد توصلا الى هذا الوضع العقلاني الفريد ، اما تضجراً او تحدياً للمصير ، فامتنعا عن التجاذبات الجدية واستسلما الى مصادفات الحظ باتباعهما خطة بلا عاقبة لأنهما يتوقعان انفصاماً لا بد منه . او ليس للطبيعة العقلانية كما للطبيعة الجسمانية مهاويها وأغوارها حيث يطيب للطبائع الحادة ان تغوص مجازفة بالحياة كالمقامر الذي يجب ان يلعب على ثروته ! وبشكل ما ، اكتشف النبيل والآنسة دوفرنوي هذه الامور التي أصبحت مشتركة والتي نتجت عن اجتماعهما ، وعلى ذلك تقدما خطوة واسعة في علاقتهما اذ ان الميل الروحي يتبع ميل الحواس . وبقدر ما يشعران به من الجاذبية المشؤومة التي تشد احدهما نحو الآخر ، كانا يشعران بالحاجة الى درس بعضهما، لا لشيء إلا لرفع مبلغ متعاتهما ومسراتهما في المستقبل. وقد تساءل الشاب، وهو مندهش بعمق أفكار هذه الفتاة الغريبة ، كيف يمكنها ان توفق بين ذلك المقدار من المعارف وبين نضارة شبابها الريان . ولقد خيل اليه انه اكتشف في ذاته رغبة قصوى بالتحلي بمظاهر العفاف ، بل بأقصى ما يكون من العفاف الذي تحاول ماري ان تضفيه على تصرفاتها . اتهمها بالمداجاة وثار على حبه ولم يعد يرى في هذه المرأة المجهولة سوى ممثلة ماهرة ، وكان على حق . فالآنسة دوفرنوي ، كجميع بنات المجتمع ، تظاهرت بالمزيد من التواضع الى حد الشعور بحرارة الايمان ، لقد حرصت ان تجعل احتشامها طبيعياً الى حد

بعيد . فتحت هذا المظهر تخفي النساء عموماً رغباتهن الحارة . كل امرأة تريد ان تتقدم من الحب وهي عذراء طاهرة ، فان لم تكن كذلك ففي تخفيها بالتظاهر بها تكريم للحب ، بل تقديس له . تلك انعكاسات مرت سريعاً في خاطر النبيل فسر بها، ومثل هذا الامتحان لا بد ان يكون خطوة كبيرة نحو الهدف لكليهما. وقد بلغ الحب المرحلة التي يجد فيها الرجال في اخطاء الحبيبات اسباباً لاغراقهن بالمزيد من الهيام . ولقد طال تفكير الآنسة دوفرنوي . ربما قفز بها خيالها الى ابعد مراحـــل المستقبل . وفيما كان الشاب مستسلماً لواحد من الوف العوامل النفسية التي يجب ان يعانيها في حياته كرجل متزوج ، كانت الفتاة ترى الحيـاة كلها في ارضاء الغريب الذي سيملأ حياتها بالسعادة والعواطف النبيلة .

لقد حاولت ، وهي سعيدة في تصوراتها ، مأخوذة بالأوهام أكثر منهـــا بالحقيقة ، وبالمستقبل أكثر منهـا بالحاضر . حاولت ان ترتد الى الشاب لتبسط سيطرتها على قلبه الفتي متصرفة ، بالفطرة ، تصرف جميع النساء ، وبعد ان قررت ان تمنحه نفسهـا كلياً ، رغبت في ان تقاضي نفسها بالتفصيل ، تمنت لو تستطيع ان تستعيد من الماضي جميع اعمالها واقوالها ونظراتها لتضعها جميعاً في كفة تتساوى مع كرامتها كامرأة محبوبة ، هذا ، بينما عيناها ما برحتا تعبران ، من وقت الى آخر ، عن الرعب الشديد حين يخطر في بالها ما أبدته من القساوة حيال الشاب أثناء الحديث معه . ولكنها لم تشك وهي تتأمل وجهه المعبر عن القوة ، في ان مخلوقاً مقتدراً مثله لا بد ان يكون كريم النفس ، وهنـأت نفسها بهذا « النصيب » الذي وجدته افضل من نصيب الكثيرات من الفتيات ، فقد وجدت فيه الرجل النبيل السامي ، رجلاً محكوماً بالاعدام جاء يجازف برأسه ليحارب الجمهورية .

مجرد تفكيرها بانها احتلت قلب الشاب بدون منازع جعلهـا ترى كل شيء قد تبدل ففي خلال خمس ساعات رأت عالم الموت حين اجتهدت في مضايقـة النبيل ، وعالم الحياة حين خيل اليها انها ، بنظرة واحدة ، تستطيع ان تؤثر فيه فتنال ما تريده : ضحكات قلبية ، وحركات مراحة ، تخفي وراءهـــا هوى

عظيماً ، اشبه شيء بالمحنة التي تدهم المرء وعلى وجهها قناع باسم .
وفي استكانة الروح وطمأنينتها تحول كل شيء خارجي الى عدم في نظر الآنسة دو فرنوي ، فقد مرت العربة في قرى وأودية وجبال دون ان ينطبع اي منظر منها في ذاكرتها . ووصلت الى مايان . وتغير رجال الحرس ، وكلمها ميرل فجاوبته ، ثم اجتازوا مدينة بكاملها وتخطوها الى الطريق ، غير ان الوجوه والمنازل والشوارع والمناظر والرجال وكل شيء آخر مرت امامها مهزوزة كما في الحلم.
هبط الليل وماري سائحة تحت سماء من الماس تغمرها اشعاعة لطيفة من النور ، وتسمر في طريقها غير منتبهة الى تغير حالة السماء . وما علمت ما هي مايان ، ولا ما هي فوجير ، ولا الى اين هي ذاهبة . اما مسألة امكانية افتراقها بعد ساعات قليلة عن الرجل الذي اختارته ، والذي اعتقدت انه اختارها فلم تكن واردة في ذهنها ، فالحب هو العاطفة الوحيدة التي لا تحتمل ماضياً ولا مستقبلاً . وان خانها منطق النطق ، احياناً ، فانها تنطق بعبارات مجردة من كل معنى على انها تقع على قلب حبيبها كوعود وعهود . لقد كان هذا الحب الصاعد يخطو خطوات مروعة في نظر بطليه . وكانت فرانسين تعرف ماري اكثر مما تعرف هذه الأخيرة الشاب المجهول . وكانت الاثنتان تتوقعان بصمت بعض التفكك في عرى تلك العلاقة بدافع من خبرة الماضي .
وفي الواقع ، فانه ما كاد الوقت يمتد قليلاً حتى شهدنا نهاية هذه المأساة التي كانت الآنسة دوفرنوي قد أسمتها وهي آسفة ، دون ان تدري ، الفاجعة .
ما كاد المسافرون الاربعة يقطعون احدى ضواحي مايان ، حتى سمعوا وقع حوافر حصان عليه رجل يتجه نحوهم بأقصى السرعة ، واذ حاذي العربة انحنى ليتطلع الى الآنسة دوفرنوي التي عرفت أنه كورنتان . ذلك الشخص المشؤوم الذي رماها بنظرة جافة أرفقها باشارة خفية فيها من رفع الكلفة ما يعد اذلالاً لها وتحقيراً . ومضى في سبيله ، فامتعض رفيقها لهذا التظرف الذي لم يخف على امه المزعومة ، اما ماري فقد جذبته اليها بلطف وبدت كأنها تريد اللجوء الى قلبه ، كآخر ملجأ لها على الارض . عندئذ التمع جبين الشاب وهو يلتهم تلك

العاطفة التي أشعرته بها حركة حبيبته بمدى تعلقها به. وسادت موجة من الرعب قضت على المغازلة . وظهر الحب ، لبعض الوقت ، مجرداً من كل قنـاع . فلزما الصمت ليستمتعا بحلاوة هذه الفترة، لكن، مدام دو غوا كانت بينهما ويا للاسف، وكانت ، تحصي أنفاسها وتقيس حياتها ، كالبخيل الذي يقيم وليمة .

وفي غمرة من السعادة وصل الحبيبان ، دون ان يحسا بالطريق التي قطعاها ، الى نقطة من الدرب بأسفل وادي عرنه الذي يشكل احد الاحواض الثلاثة التي جرت فيها حوادث هذه القصة .

في هذا المكان أشارت فرانسين الى وجوه غريبـــة تتحرك كالظلال خلال الاشجار وفي الغياض التي تحيط بالحقول . وحين وصلت العربة الى اتجاه هـــذه الظلال دوّت الطلقات دفعة واحدة وأزّ الرصاص فوق الرؤوس معلناً للمسافرين ان ما رأوه من ظلال تتحرك هو شيء واقعي ، وان الحرس قد وقعوا في كمين .

حيال اطلاق النــار ندم الضابط ميرل اشد الندم لاشتراكه في الخطأ الذي وقعت فيه الآنسة دوفرنوي اذ لم تدعه يأخذ معه أكثر من ستين رجلاً ثقةً منها بسلامة الرحلة القصيرة تحت جنـــاح الليل ، فما كان منه إلا ان قسم الفرقة الى فصيلتين لحراسة جانبي الطريق . واتجه كل من الضابطين، ميرل وجيرار،بسرعة الى الحقول والغياض محاولين صد المهاجمين قبل احصائهم ، واخذ الزرق يقاتلون عن اليمين واليسار تلك السياجات الكثيفة ببسالة خالية من الحذر وهم يصبون على الناعقين نيران بنادقهم المصوّبة على الاسيجة التي انطلقت نيران الاعداء من خلالها . وكان اول ما فعلته الآنسة ان قفزت خارج العربة وركضت الى الوراء بعيداً عن ميدان المعركة ، إلا انها خجلت من خوفها وتحلت بالروح التي ترفعها في عيني المخلوق الذي أحبته، فوقفت مكانها محاولة ان تراقب سير المعركة بهدوء.

لحق بها المهاجر ، فأخذ بيدها ، ووضعها على قلبـه فقالت له باسمةً : لشد ما خفت ، اما الآن ..

وقبل ان تنهي كلمتها صرخت الوصيفة فرانسين :

ـ انتبهي يا ماري !

وقبل ان تتمكن الوصيفة من النزول من العربة ، شعرت بيد قوية توقفها . وما أحست بضخامة هذه اليد حتى أطلقت صرخة عنيفة . ولكنها سرعان ما لزمت الصمت حين تعرفت الى وجه مارش آتير . وفي هذه اللحظة كان الشاب الغريب يقول للآنسة دوفرنوي : — بفضل ذعرك اكتشفت اعذب اسرار القلب، وبفضل فرانسين عرفت انك تحملين اسم ماري اللطيف ، الاسم الذي لفظته في جميع أشجاني واضطراباتي ، ماري ، الاسم الذي سألفظه من الآن وصاعداً في افراحي ومسراتي، الاسم الذي ان لفظته الآن فاني ارتكب خطيئة لأنني أخلط بين الدين والحب ، ولكن ، ترى هل من الجريمة في شيء ان يصلي المرء ويحب في الوقت نفسه ؟

وفيما كانا يتبادلان النظر بصمت وقد عقل الحب لسانيهما ، كان مارش آتير يقول لفرانسين بشراسة وفي صوته الاجش تعبير قتال من اللوم ، متوخياً ايقاع الفتاة القروية في حيرة وذهول : لا خطر عليكم انتم الاربعة .

لأول مرة لحظت الفتاة المسكينة وحشية في نظرات مارش آتير . كان هذا البريتوني المتوحش يحمل قلنسوته بيد وبندقيته الثقيلة باليد الاخرى . وكان ملفوفاً كالعفريت وضوء القمر يضفي عليه أشكالاً هي اقرب الى الجان منها الى مخلوق بشري . وكان في ظهوره الفجائي وفي لهجته الوحشية شيء من سرعة الاشباح. وبغتة، التفت نحو مدام دو غوا ، فتبادل معها بعض كلمات خاطفة ، لم تفهمها فرانسين لأنها كانت قد نسيت اللهجة البريتونية انما لاحظت انها تعطي مارش آتير اوامر متعددة ختمتها بايماءة نحو الحبيبين. وقبل ان يعلن خضوعه للاوامر، ألقى نظرة اخيرة على فرانسين ، نظرة أسى عميق كأنه يريد ان يقول لها شيئاً ولا يستطيع، وامام تقطيب جبينه الخشن وتقارب حاجبيه تساءلت فرانسين :
— أتراه يقاوم الامر المتكرر بقتل الآنسة دوفرنوي؟. وبدا في تقطيبه اشد قبحاً في نظر مدام دو غوا، بينما استلطفت فرانسين بريق عينيه وأدركت من نظرته ان بامكانها ان تضع صلابة هذا الرجل المتوحش تحت ارادتها وان تبقى ، بعد الله، هي المتحكمة بقلبه القاسي .

وعادت مدام دو غوا الى الحبيبين لتقطع حديثهما اللطيف بنداءاتهـــا لماري واجتذابها بهلع كأن خطراً ما يتهددها ، ولكنها في الحقيقة لم تقصد من ذلك سوى افساح المجال لاحد اعضاء اللجنة الملكية في ألنسون ليتكلم مع المهاجر على حدة وهذا ما قاله :

ـ « اعتق نفسك من الفتاة التي قابلتها في فندق « المغاربة الثلاثة ».

اسرّ الشفاليه في أذن الشاب هذه الجملة واختفى مـــع جواده البريتوني في الآجام من حيث اتى. وفي هذه اللحظة جرى تبادل اطلاق النار بكثير من الشدة ولكن دون ان ينال احـــد الطرفين من الآخر فقال « مفتاح القلوب » للضابط جيرار :

– سيدي الضابط الا ترى انه هجوم مزور يقصد من ورائه خطف المسافرين في العربة وفرض فدية ماليه لاعادتهم ؟

– اتبعني .

قال جيرار ذلك وانطلق في الشارع لمواصلة المعركة ، الا ان رصاص الناعقين اخذ يخف شيئاً فشيئاً . اذ انهم لم يكونوا يقصدون من المناوشة سوى تأمين الاتصال برئيسهم بواسطة ذلك الفارس ، واذ رآهم ميرل يفرون ، فرادى ، عبر السياجات ، لم ير فائدة من مطاردتهم ومنازلتهم في معركة خطيرة لا طائل تحتها. وعلى ذلك اصدر جيرار امره للحرس باستعادة مركزه على الطريق ومتابعـــة السير . ولما كان الشاب النبيل ما برح مصعوقاً مما سمعه وشاهده فقـــد عرض الملازم ميرل يده للآنسة دو فرنوي ليساعدها في الصعود الى العربة . الا انهـــا رفضت تأدب الضابط الجمهوري وصعدت دون مساعدته . التفتت نحو حبيبها فرأته جامداً كالاموات وقد هالها التغير الذي طرأ عليه اثر الكلمة السرية التي سمعها من الفارس . فقد عاد الى العربـــة ببطء وهيأته تكشف عن اعمق شعور الاشمئزاز ، وما كاد يقترب حتى اقبلت عليه مدام دو غوا واسرت في اذنه قائلة وهي تقوده الى العربة :

ـ كنتُ على حق حين ايقنت اننا بين يدي مخلوقة استخدمها الاعداء للمتاجرة برأسك .اليس كذلك ؟ لكن ، بما انها حمقـاء الى حد التعلق بك بدلاً من ان

تقوم بمهمتها ، فلا تتصرف انت تصرف الأولاد ، بل تظاهر بانك تحبها الى ان تصل الى فيفتيير وهناك !.. واذ رأت الشاب ساهيا في مكانه، لا يحير جواباً، لزمت الصمت وفي خاطرها يجول هذا السؤال :

– اتراه افتتن بها ؟

في العربة التي انطلقت على الطريق بسرعة تلفتت ماري حولها فرأت كل شيء قد تغير . احست بدبيب الموت يسري في حبها . اما فرانسين فقد فهمت من نظرة مارش آتير اليها ان مصير الآنسة دو فونوي هو بين يدي رجل آخر غيره ، ولذلك امتقع وجهها ولم تستطع امساك دموعها حين تطلعت سيدتها اليها. كما ان السيدة المجهولة لم تحسن اخفاء حقدها تحت ابتسامات مفتعلة. وطرأ تغير مفاجىء على عطفها على الآنسة دو فرنوي التي رأت في هيأتها ، ولحظت في صوتها ، ما يثير المخاوف فارتجفت تلقائياً وهي تتساءل :

– ترى لماذا ارتجف ؟ انها امه .

ولكنها ارتجفت بكل جوارحها بغتة حين خطر في بالها ان تتساءل :

ـ اتراها امه ؟ ولقد اتضحت لها الهوة المطلة في النظرة الأخيرة التي القتها على الشاب فقالت في نفسها بحسرة : هذه المرأة تحبه . ولكن ، لماذا تغمرني بالاحسان والاكرام بعد ان كانت تنظر الي ببرود واستخفاف ؟ اتراني هالكة ؟ ام انها تخافني؟. اما من جهة النبيل فقد كان وجهه يمتقع ويحمر ، وهو هادىء ، منخفض الرأس ليخفي الانفعالات التي تهزه . لقد انتابته افكار صاخبة هائجة شحب من جرائها وجهه وامحى ذلك الحنان الناعم عن شفتيه حتى ان الآنسة دو فرنوي لم تستطع ان تحزر اذا كان لا يزال يحتفظ ببقية من حب في اضطرابه .

اظلمت الطريق المحاطة بالغابات فتعذر على الحبيبين الصامتين تبادل الاسئلة بالنظر . كما ان صوت الهواء وحفيف اوراق الاشجار ووقع اقدام الحرس المتزن زادت في تجهم المشهد وفي خفقان قلبيهما، وعجزت الآنسة دو فرنوي عن البحث عن سبب هذا التحول ، لقد مر كورنتان في خاطرها كالوميض ونقل اليها الصورة الحقيقية لمصيرها الأسود .

لأول مرة منذصباح ذلك اليوم انصرفت الى التفكير جدياً بموقفها المتأزم وقد كانت حتى هذا الحين مستسلمة لسعادة الحب غير مكترثة بنفسها ولا بالمستقبل. واذ عجزت عن تحمل آلام نفسها ، اخذت تبحث وتتوقــع بصبر المحب ، بل وتتوسل بحرارة نظرةً واحدةً من عيني الشاب ، وكان في اصفرارها وارتجافها بلاغة نافذة . فترنح ، ولكنه تمالك نفسه ولجم عواطفه حين سألها :

ـ اتتألمين يا آنسة ؟

هذا الصوت المجرد من كل عذوبة ، وهذا السؤال بالذات ، وطريقة القائه وتلك النظرة الجافة ، كلها اقنعت الفتاة المسكينة ان احداث النهار كانت من نوع السراب الروحي ، وقد تبددت كما تتبدد الغيوم امــام الرياح . فقالت له بابتسامة مفتعلة :

ـ ان كنت اتألم ؟ كدت اطرح عليك نفس السؤال .

وقالت مدام دو غوا مازحة :

ـ كنت أظن انكما متفاهمان .

لم تلق جواباً لا من الشاب ولا من الآنسة دوفرنوي ، فقــد تضاعف غضب الفتاة وغاظها ان ترى جمالهــا المقتدر كليلاً . كان بامكانها ان تعرف ساعة تشاء سبب هذا الوضع ، ولكنها ، وربما لأول مرة ، تتراجع امرأة امام الألغاز ، لم تكن لتحفل كثيراً باستجلائه. فحياة الانسان حافلة بالأوضاع المؤلمة التي لا يعود للفكر حيالها أي مستند ، ولا أي جوهر ولا أي نقطة انطلاق ، حيث لا يجد الحاضر أي علاقة له بالماضي ، وذلــك يحدث إثر استغراق في التأملات او إثر كارثة طارئة .

تلك كانت حالة الآنسة دوفرنوي ، وهي جالسة في داخل العربة جامدة كالشجرة المقلوعة ، مطرقة ، متألمة لا تلوي على شيء ، ملتفعةً بحزنها ، غارقة في عالم مجهول، حاصرة ذهنها في عالم يائس بائس لم تعد معه تدرك أي شيء آخر.

مر سرب من الغربان فوق العربة ولكنها لم تأبه لهــا على الرغم من وجود زاوية في قلبها للتأثر بالخرافات والاوهام .

قطعت العربة بعض الاميال وركابها صامتون . وكانت الآنسة دوفرنوي تحدث نفسها قائلة : ها نحن مفترقان . لم اسمع احداً ينطق بكلمة من حاشيتي ، أترى كورنتان هو الواشي ؟ ولكن ذلك ليس في صالحه . فمن يا ترى استطاع ان يتهمني بشيء ؟ ما كدت اجد حبيباً حتى فوجئت بلوعة الانفصال ، انني ازرع الحب واحصد الهوان ، لقد قيض لي ان أرى السعادة وأضيعها .

اضطرب قلبها ، فهي ، فعلاً ، تحب لأول مرة ، إلا انها لم تستسلم للحب الى درجة العجز عن إيجاد مصادر ضد تسرب الالم الى كبريائها الاصيل كشابة جميلة، سر حبها ، هذا السر الذي احتفظت به في اصعب الظروف ، لم يفلت منها . خجلت من ان تقيس حبها بمقياس عذابها الصامت ، فنهضت ونفضت رأسها بطريقة مرحة ، كشفت عن وجه ، او بالاحرى عن قناع ضاحك ، ثم غالبت صوتها لتخفي لهجة عدائية وقالت لميرل وكان بجانب العربة :

ـ أين نحن الآن ؟

ـ على بعد ثلاث مراحل ونصف المرحلة من فوجير يا آنسة .

ـ قربنا اذن .

قالت ذلك وهي ترمي الى تشجيعه على مبادلتها الحديث لتبدي له بعض التقدير .

وتابع ميرل كلامه قائلاً :

ـ هذه المراحل ليست طويلة انما يحتمل ألا يكون لها نهاية في هذا البلد ، فعندما تصبحين في منبسط الناحية التي تجتازينها الآن ، تشاهدين وادياً أشبه بالوادي الذي سنغادره قريباً ، وفي آخر حدوده تشاهدين قمة البلرين . عسى الله ان يمنع الناعقين من القيام بأخذ الثأر .. ومن بلرين تشاهدين ايضاً ...

ما ان سمع المهاجر هذه الكلمة حتى اختلج للمرة الثانية، انما اختلاجته كانت خفيفة الى حد لم يلحظها احد سوى الآنسة دوفرنوي التي سارعت الى سؤال الضابط عن بلرين فأجابها :

ـ انها قمة جبل اطلق اسمه على وادي ماين الذي سندخله قريباً والذي يفصل

هذا القطاع عن وادي كويسنون وفي أقصى هذه الوادي تقع فوجير أولى مدن بريتانيا حيث انهزمنا في معركة مع « الغار » وأتباعه ، وما كنـــا لننهزم لو لم نأت بالمجندين المصادرين الذين حاولوا ان يقتلونا على الحـدود حتى لا يغادروا بلادهم . إلا ان هولو مسيحي صلب ، فلم يلبث ان اعطاهم ...

– اذن لا بد انك رأيت « الغار » فكيف هو ؟

فاجابها ميرل وهو يحدق الى وجه الفيكونت دو بوفان المزعوم :

– انه شديد الشبه بالمواطن دو غوا ولو لم يكن ببزة مدرسة البوليتكنيك لراهنت على انه هو بذاته .

انعمت الآنسة دو فرنوي النظر الى وجه الشاب المتعالي الساكن الذي كان يزدريها فلم تلحظ عليه أي بادرة من بوادر الخوف،فرشقته بابتسامة مرة، عبرت فيها عن اكتشافها للسر الذي اخفاه عنها بمكر لئيم . ثم مالت برأسها بطريقة تمكنها من رؤية الشاب والضابط ميرل في الوقت ذاته وقالت بصوت هـــادر وانف منتفخ بالغبطة مخاطبة الضابط الجمهوري :

– ايها الكابتن . ان هذا الرئيس الملقب بالـ« غار » يثير مخـــاوف القنصل الأول . انه جريء على ما قيل ، الا انه يروغ في بعض المهمات كالزرزور ولا سيما حيال النساء .

– هذا ما نعتمد عليه لتصفية حسابنا معه . لو اننا نمسكه لمدة ساعتين فقط فسنفرغ في رأسه قليلاً من الرصاص . ولو قابلنا لفعل بنـا مثل ذلك ولقضى علينا بالهلاك .

قال الشاب :

ـ لا موجب للخوف ، فجنودك متعبون ولا حاجة الى بلوغ البلرين هـــذه الليلة ، وبامكانهم ، لو شئت ، ان يستريحوا على بعـد خطوتين من هنا . ستنزل امي في « فيفتيير » وهاك هي الطريق ، على مرمى رصاصة من هنا . وهاتان السيدتان بحاجة الى الراحة . لا بد ان تكونا قد سئمتا طول الطريق، من ألنسون الى هنا، وبما ان الآنسة (قالها بأدب مفتعل وهو يلتفت نحو حبيبته) قـــد

تكرمت باضفاء المزيد من البهجة والامان على هذه المرحلة ، فقد تتكرم بقبول الدعوة للعشاء عند امي ...

وأضاف قائلاً وهو يلتفت نحو الضابط :

ـ ثم ان الزمن لم يسؤ بعد الى حد انقطاع الخمرة المعتقة . الغار لم يستول عليها كلها ، وسيجد رجالك في فيفتيير ما يروي عطشهم من شراب التفاح . هذا ما تراه امي على الاقل ، فهيا بنا ...

ـ امك ؟ ...

قالتها الآنسة دوفرنوي مقاطعة كلامه بسخرية لاذعة ، دون ان تجيب على دعوته الفريدة من نوعها بكلمة .

فأجابتها مدام دو غوا بقولها :

ـ لست ِ على يقين من عمري على ما يبدو ، يا آنستي ، لقد تعستُ بزواج باكر . وكنت في الخامسة عشرة من عمري حين ولدت ابني ...

ـ لا تغلطي يا سيدتي ، لعلك كنت في الثلاثين من عمرك يومذاك ؟ ...

اصفر وجه مدام دو غوا وهي تلتهم هذه السخرية . وشاقها ان تنتقم ، فوجدت نفسها مرغمة على الابتسام ، كانت بحاجـة ملحة ، وبكل الظروف والتضحيات ، الى معرفة الشعور الذي يحرك الفتاة ، لذلك تظاهرت بعدم الفهم وقالت موجهة الكلام الى فرانسين والى سيدتها :

ـ لم يشهد الناعقون رئيساً أقسى من الرئيس الحالي . صحيحة هي الشائعات التي تروج عنه .

فأجابتها الآنسة دوفرنوي :

ـ اما كونه فظاً غليظ القلب ، فذلك ما لا اصدقه ، الا انه كذاب مراوغ ، ويبدو لي ساذجاً جداً . ولا يجوز لرئيس ان يكون ألعوبة بيد احد من الناس .

ـ هل تعرفينه ؟ سألها المهاجر ببرود .

فأجابت وهي تسدد اليه نظرة احتقار :

ـ كلا .. كنت اظن اني اعرفه ...

واردف الضابط ميرل قائلاً وهو يهز برأسه :

ـ آه ! يا انسة . انه « ماكر » فعلاً .

وارفق هذه الكلمة بحركة معبرة من وجهه ، تتناسب وذلك المعنى الخاص الذي كانت هذه الكلمة تعنيه اذ ذاك ، والذي فقدته مع الزمن . واسترسل في كلامه قائلاً :

– ان تلك الأسر العريقة تنجب ، في بعض الأحيان ، ذرية ذات بأس وقوة . ويقال إن هذا الفتىقد عاد من بلاد لم يجد فيها النبلاء ما يصبون اليه من خفض العيش ومتع الحياة . والرجال ، كما تعلمون ، كثمار الزعرور الجـُوي ، احسنما تنضج على القش. فان حذق هذا«الغار»دوره وكان ماهراً فسيتعبنازمناً طويلاً..لقد عرف كيف يقابل فرقنا الحرة بفرق خفيفة. وشل جهود الحكومة. فان احرقنا قرية ملكية ، أحرق قريتين جمهوريتين . انه ينشر رجاله في مدى واسع ، فنضطر الى استخدام عدد كبير من الجنود ، وجندنا قليل .

– آه ! انه خبير بتصريف الأمور.

هنا قاطع جيرار ميرل قائلاً بصوت قوي :

– انه يطعن وطنه .

فقال النبيل :

– اذا كان في موته خـلاص للوطن فاسرعوا في قتله . قال ذلك ورمق الآنسة دو فرنوي بنظرة عميقة مستطلعاً خفايا نفسها. وجرت بين الاثنينمعركة صامتة ، قصر البيان عن التعبير عن تفاصيلها وماجرياتها. فازاء خطر الموت ، تتحرك الشفقة حتى على احط المجرمين . والآنسة دو فرنوي وان كانت تعلم علم اليقين ان الحبيب الذي يحقرها انما هو ذاك الزعيم الخطر ، فانها لم تشأ ان تضمن السلامة بهلاكه . كلا ، بل كان لها أرب آخر يستهويها ، ولذلك فضلت ان ترتاب وتشكك حسب مزاجها وراحت تلعب بالخطر، بنظرات غادرة ساخرة. كانت تنبه الزعيم الشاب الى وجودالجنود وعلى محياها سيماء الظفر، عارضةً عليه صورة الخطر الذي يحيط به ، متوخية اشعاره بقساوة ان حياته متوقفة على

كلمة واحدة تتحرك بها شفتاها . وبقسوة الأميركي البـدائي المتوحش راحت تتصور وجه عدوها المشدود الى الخشبة اذ تنزل على عنقه المقصلة بهدوء مستمتعة بانتقام بريء . وانها لتعاقبه كحبيبة لا تزال تحب .

قالت للسيدة الغريبةالتي الم بها الضيق وظهرتعليها امارات الخوفالشديد:

– لو كان لي ولد كولدك للبست عليهثوب الحداد في نفس اليوم الذياعرّضه فيه للاخطار . وبعد ان كررت الالتفات نحو الضباط اكثر من عشرين مرة ، استدارت فجأة نحو مدام دو غوا فلم تكتشف اي اشارة سرية تؤكد علاقتهـا الحميمة بالغار ، تلك العلاقة التي كانت الآنسة ترتاب بها . فالمرأة تستعذب التردد في معركة الموت او الحياة عندما يكون الأمر بيدها . اما الزعيم الشاب : فقد كان يبتسم بهدوء كلي ويتقبل دون خوف العذاب الذي تسومه به الآنسة دو فورنوي . وكان في موقفه وتعبير قسمات وجهه مـــا يشير الى انه رجـل يهزأ بالمخاطر وكانه ، في موقفه هذا ، يقول لها :

« امامك فرصة للانتقام لغرورك الجريح فاغتنميها ، فانا لن ارجـــع عن احتقاري لك » .

وراحت الآنسة دو فرنوي تتفحص الزعيم الشاب،من شامخ عليائها بوقاحة وتعاظم في الظاهر . وهي في الواقع ، معجبة بجرأته وثبات جنانه .

سرها ان يحمل حبيبها لقباً ذا امتيازات رفيعـــة تستهوي النساء جميعاً ، وشاقها ان تلقاه في وضع حرج، بطلاً لقضية زادتها الآلام نبلاً وقدراً ، يناضل، بكل ما أوتي من عزيمة وقلب كبير ، ضد جمهورية انتصرت في ميادين عديدة . كما شاقها ان تراه ، يجابه الخطر الاكبر بشجاعة رائعة تثير نوازع الاعجاب في قلب كل امرأة . لقد وضعته أكثر من مرة تحت التجربة مدفوعة بغريزة المرأة التي يحلو لها اللعب بالفريسة كما تلعب القطة بالفأر قبل افتراسه .

وسألت ميرل :

– بموجب أي قانون تحكمون على الناعقين بالموت ؟ فأجاب :

– بموجب قانون ١٤ شباط ، القاضي بتشكيل المجالس العرفية في المقاطعات الثائرة .

التفتت الآنسة دوفرنوي نحو الزعيم الشاب الذي كان ينعم النظر فيها وقالت له :

– والآن. اي شيء فيّ يلفت انتباهك حتى توليني شرف هـــذه النظرات التي تسددها الي ؟

– عاطفة يُمسِك اي رجل مهذب نفسه عن التعبير عنها لأي امرأة مهما كان شأنها. بذلك اجاب المركيز دو مونتوران بصوت خافت وهو يميل اليها، واردف قائلاً بصوت عال :

– كان ينبغي ان نعيش في هذه الايام حتى نرى فتيات يقمن بدور الجلاد ويتفوقن عليه بطريقتهن الخاصة باللعب بالفؤوس .

رمته بنظرة سديدة . ثم همست في اذنه ، ضاحكة بمكر لذيذ . وقد سرها ان يشتمها ، وفي يديها حياته ومماته :

– رأسك يا بس يرفضه اي جلاد لذا أحتفظ به لنفسي ..

وقف المركيز مذهولاً يتأمل هذه الفتاة الغامضة التي يقهر الحب فيها كل شيء حتى الاهانات اللاذعة ، والتي تثأر لنفسها بغفران اهانة لا تغفرهـا اي امرأة اخرى، وقد اصبحت نظراته اقل قساوة وبرودة. وغشت وجهه كآبة، وادرك ان هواه اقوى بكثير مما كان يظن . اما الآنسة دو فرنوي ، وقد اكتفت بهذا العطاء اليسير لتوطيد المصالحة المرجوة ، فقد رمقت الشاب بحنان وافترّت له عن بسمة كاللثمة . ثم جلست مطمئنةً في داخل العربة ، آملةً الا تهدد مرةً اخرى مأساةَ سعادةٍ ظنت انها احكمت عقدها بذلك الابتسام .

لشد ما كانت جميلة ! لشد ما حذقت تذليل الصعاب وازالة العقبات ، في سبيل الحب . وتعودت الاستهانة بكل شيء والسير مع الأقدار .

وبأمر المركيز تحولت العربة عن الشارع الكبير، واتجهت نحو فيفتيير ، عبر طريق عميقة محاطة بمنحدرات عالية مغروسة بشجر التفاح ، وهي اشبه بخندق منها بالطريق . قال بوبيه :

– ما اشبه هذا الدرب بطريق الجنة !

بفضل خبرة الحوذي ، لم تلبث الآنسة دو فرنوي ان شاهدت قصر فيفتيير وهو عبارة عن منزل قائم على لسان من الأرض يحيط به غديران عميقان يحولان دون الوصول اليه ، الا من ممر ضيق، وكان القسم الذي يحضن السكان والحدائق في شبه الجزيرة هـــذه ، يقوم على بعد قليل خلف القصر محفوفـــاً بخندق تصب فيه المياه المتدفقة من الغديرين المتصلين بها وتجعل من تلك الأرض جزيرة آمنة يتحصن فيها الرئيس دون ان يخشى مفاجأة ، الا اذا كان في الأمر خيانة .

لدى سماعها صرير البوابة الحديدية، وبمرورها تحت الرتاج المتهدم بفعل الحرب السابقة ، اطلت الآنسة دو فرنوي برأسها من العربة . وما كادت ترى اللوحة القاتمة التي بدت لناظريها ، حتى تلاشت من ذهنها صور الحب ومشوقاته ، فقد دخلت العربة في ساحة شبه مربعة ، مقفلة بضفتي الغديرين. والضفتان الموحشتان كانتا ترفلان في مياه تبرقعها بقع خضراء واسعة ، لا يزينها سوى اشجار مائية عارية من الورق ، قصيرة الجذوع بغصون طويلة تفرع القصب طولاً .. وذلك السياج البشع ضج بالحياة فجأة اذ غادرته الضفادع وهي تنق وشردت من بينه الطيور المائية التي استيقظت على ضجيج العربة . وكانت الساحة ، مطوقـــة بالاعشاب العالية ، ليس عليها مسحة من الجمال ، اما القصر فقـد بدا مهجوراً منذ زمن بعيد . فالسطوح تكاد تلتوي من ثقل العشب النابت عليها. والجدران المبنية بالحجر الصفيحي الصلب، غشيها اللبلاب وارسل في شقوقها مخالبه. بناءان يتصلان ، على شكل مثلث ، ببرج عال باتجاه الغدير ، كانا يشكلان القصر بكامله . الابواب ودرف النوافذ متساقطة مهترئة ، ودرابزون السلالم التوى . كل شيء في هذا القصر بدا متداعياً تعصف فيـــه ريح الشمال عبر الخرائب . والقمر ، بنوره الحائل ، يضفي عليه صورة مهيبة لشبح رهيب .

قصر خرب فارغ مظلم ، حجارته متباعدة ، شبابيكه بلا زجـاج ، وبرج مشقق، لا سقف لـــه ، أشبه شيء بالهيكل العظمي . وخلف البيت بضع أشجار من الشربين ، ترمي فوق السطوح اوراقها الميتة القاتمة .

والأبواب بزخرفها الغريب ، ومجموع البناء الذي لا انسجام فيه ، كلها كانت

ترمز الى ذلك الطابع الاقطاعي الذي تتباهى به بريتانيا . وقد تكون على حق ، إذ انه يشكل على هذه الأرض الغاليّة نوعاً من التاريخ الأثري للأزمنة السحيقة التي سبقت قيام الحكم الملكي ذاته .

ان كلمة « قصر » وحدها ، بعثت في مخيلة الآنسة دو فرنوي ، أشكال الصورة الحقيقفة الأصيلة له . واذ تبينت الخطوط الجنائزية في اللوحة البادية أمامها ، ارتاعت وقفزت بخفة من العربة لتتأملها ملياً ، وهي تفكر بالموقف الذي ينبغي ان تتخذه . أما فرانسين فقد لاحظت مدام دو غوا وهي تتنفس الصعداء لوجودها خارج نفوذ الزرق وترسل هتافاً عفوياً لدى انغلاق البوابة حيث شعرت بأنها باتت في أمان داخل قلعة شبه طبيعية .

أما ما كان من المركيز دومونتوران ، فقد اقترب من الآنسة دو فرنوي ، ولم تخفَ عليه هواجسها ، وقال لها بشيء من اليأس :

– لقد هدمت الحرب هذا القصر ، كما هدمت أنت المشاريع التي أعددتها من اجل سعادتنا .

وإذ فوجئت بهذا الكلام . صاحت :

– ماذا تقول ؟ فأجابها بسخرية :

– أأنت « امرأة شابة وجميلة ، نبيلة وذكية »؟..

– من قال لك العكس ؟

– أصدقاء جديرون بالثقة يحرسونني ويحبطون كل مؤامرة تحاك ضدي .

– مؤامرة !. أفهل صارت ألنسون وهولو بعيدين عن هذا المكان ؟ انك ضعيف الذاكرة وهذه الصفة خطأ يعرض رئيس الحزب للخطر. قالت ذلك بلهجة ساخرة وأضافت :

– ولكن ، ما دمتَ في احضان اصدقاء يتحكمون بقلبك ، فاحتفظ بهم ، لا شيء يضاهي لذة الصداقة ... الوداع ، فلا أنا ، ولا جنود الجمهورية سندخل هذا المكان . قالت ذلك ومشت نحو البوابة بازدراء وعنفوان جريح ، إلا انها أظهرت في تصرفها هذا نبلاً أصيلاً ويأساً مريراً غيّرا كل نوايا المركيز . وكان قد

بذل الكثير من الجهد ليتخلى عن رغباته ويبقى على حذر دائم . لكنه كان مغرماً كما كانت هي، وكلاهما لا يبغيان طول الخصام، فقال المركيز بلهجة المتوسل:

ـ قولي كلمة اخرى فأصدقك .

ـ كلمة اخرى ! كلا ، بل ولا اشارة اخرى ، قالت ذلك بسخرية ظاهرة .

ـ أنبّيني على الاقل ! قال متوسلاً وهو يحاول عبثاً لمس يدها واضاف :

ـ أنبّيني ان كنت تجرؤين على مشاكسة زعيم ثوار كان منذ قليل طروباً مطمئناً ، وهو الآن حذر متجهم عبوس .

فاذا رمقته ماري بنظرة لا حنق فيها اردف قائلاً :

ـ انك تعرفين سري ، وانا لا اعرف سرك.

وهنا امتقع وجه ماري، وبعد ان ألقت نظرة فاحصة على المركيز اجابت:

ـ سري ؟ لن تعرفه ابداً .

كل كلمة وكل نظرة في الحب لها مغزاها العميق . الا ان الآنسة دو فرنوي لم تبد شيئاً واضحاً في هذا الشأن . وعلى الرغم من نباهة المركيز دو مونتوران بقي سرها مكتوماً وان تجلت في صوتها انفعالات نفسية غير اعتيادية اثارت فضوله . فقال لها :

ـ لديك طريقة محببة في تبديد الشكوك .

ـ الا زلت تحتفظ ببعض تلك الشكوك ؟

قالت ذلك بلهجة من تريد ان تقول :

ـ ألك بعض الحقوق علي؟ !

فأجابها الشاب وفي محياه استسلام لا يخلو من الحزم :

ـ يا آنستي . السلطة التي تمارسينها على جنود الجمهورية ، وهذه الحاشية ...

فقاطعته بلهجة لا تخلو من التهكم :

ـ ذكّرتني... حراسي ، وانا ، يعني منقذيك ، هل سنكون في امان هنا؟

ـ أجل ، أياً كنتم انت واتباعك ، فلا خوف عليكم في بيتي . كلام شرف..

تلفظ بهذا العهد بولاء وصدق مؤكداً للآنسة دو فرنوي ان بامكانها ان تطمئن على مصير الجمهوريين الذين معهـــا . وكانت الآنسة تستعد للكلام واذا بمدام دو غوا تفرض عليها الصمت .

لقد سمعت هذه السيدة لا بد جزءاً من الحديث الذي جرى بين الحبيبين وانجلت امامها الحقيقة بحيث لم تشك بزوال كل خصومة من بينهما ، وذلك ما اثار فيها قلقاً شديداً . وحين رآها المركيز اخذ بيد الآنسة دو فرنوي وسار بها نحو البيت بنزق ، ليتخلص من رفقة مزعجة ، فتجمدت السيدة في مكانها وهي تقول في نفسها :

ـ أصبحت ازعجه . ورافقت بنظرها الحبيبين ، وقـــد تم بينهما الوئام ، وتقدما نحو الردهة حيث توقفا ليتحدثا بعيداً عنها . ورددت في نفسها :

ـ أي نعـــم ! اصبحت ازعجها ! لكن . بعد قليـل لن تزعجني هي . سيكون الغدير قبرها باذن الله . وأي خوف عليها تحت المياه ؟ الا تكون في امان حسب عهدك لها ايها النبيل ؟

وفيما كانت ترمق صفحة البحيرة الصافيـــة الى جهة اليمين ، اذا هي تسمع حفيف العليق والعوسج على الضفة ، ولمحت في ضوء القمر وجه « مارش آتير » الذي انتصب خلف جذع صفصافة . وكان لا بـــد لها من التعرف الى الناعق لتتبينه وسط تلك المجموعة من الاشجار المشذبة خفيّة المعالم .

ألقت مدام دو غوا اول نظرة حذر حولها ، فرأت الحوذي يقود جياده الى اصطبل قائم في جنـــاح القصر المواجه للضفة التي تخفي مارش آتير ، ورأت فرانسين متجهة نحو الحبيبين ، وكانا في هـــذه اللحظة في غفلة عن كل ما يجري حولها . عندئذ ، تقدمت واصبعها على شفتيها طالبة السكوت التام .

فهم الناعق ، أكثر مما سمع ، الكلمات التالية :

ـ كم انتم هنا ؟

ـ سبعة وثمانون .

ـ انهم هناك ليسوا أكثر من خمسة وستين ، لقد عددتهم .

وهنا توارى الناعق وهو متيقظ لكل حركة تبدر من فرانسين التي رآها تتلفت باحثة عن العدوة التي كانت تراقبها بالغريزة .

وفي هذه الفترة ظهر في أعلى الردهة الرئيسية سبعة او ثمانية اشخاص كانوا قد انتبهوا الى ضجيج العربة وصاحوا :

ـ هوذا« الغار »،ها هو بلحمه وعظمه ! وركض رجال آخرون على هـــذا الهتاف فقطعوا بمجيئهم الحديث بين العاشقين . هرع المركيز نحوهم طالباً منهم السكوت ، ومشيراً الى أعلى الجادة حيث سار الجنود الجمهوريون . واذ شاهد المتآمرون البذلات الزرقاء ذات الردّات الحمراء والحراب اللامعـــة ، صرخوا مندهشين :

ـ أجئتَ لتغدر بنا ؟ فأجابهم المركيز متبسّماً :

ـ لو كان ما تقولون صحيحاً لمـــا رحت احذركم وأدعوكم الى لزوم الصمت والانتباه . ان هؤلاء الزرق يشكلون حرس هذه السيدة الشابة التي تكرمت فأنقذتنا بأعجوبة من هلاك تعرضنا له في احد فنادق ألنسون . وسنروي لـكم تفاصيل تلـك المغامرة . والآنسة وحاشيتها هم هنا في عهدتي ويجب استقبالهم كأصدقاء .

في هذا الوقت كانت مدام دو غوا وفرانسين قـد وصلتا الى الردهة حيث أعطى المركيز يــده للآنسة دو فرنوي ومر وإياها وسط الرجال الذين انفصلوا وانتظموا في صفين متساويين ، وجميعهم حاولوا تبيّن سمات السيدة المجهولة . وكانت مدام دو غوا قد اثارت فضولهم ببعض الاشارات والايماءات التي كانت ترسلها خلسة اليها .

شاهدت الآنسة دو فرنوي في الصالة الكبرى مائدة كبيرة حسنة الترتيب ، معدة لعشرين مدعواً ، وصالة الطعام هذه متصلة بصالة اخرى واسعة ، اجتمعت فيها الشخصيات الموجودة في القصر . والحجرتان انسجمتا ومعالم الخراب البادية في خارج القصر . فالخشبية الجوزية مصقولة محفورة لكن بأشكال خشنة قبيحة . وكانت سيئة الصنع ، متشققة ، توشك ان تسقط ، ولونها القاتم يزيد في كآبة

الصالتين ، حيث لا زجاج ولا ستائر ، وفيها اثاث يعود الى مئة سنة او أكثر يتجاوب تماماً وهذه المجموعة من البقايا البالية .

ورأت ماري على المائدة الكبيرة خرائط جغرافية وتصاميم مطوية. كما رأت في زوايا المنزل أسلحة وبنادق متراكمة . كل شيء كان يشهد على انعقاد مؤتمر خطير ، بين رؤساء فانده ورؤساء الناعقين .

وقاد المركيز الآنسة دوفرنوي الى مقعد كبير مصقول، بالقرب من المدفأة. ووقفت وراءها فرانسين خادمتهـــا مستندة الى ظهر المقعد ، وقبل ان يتركها سألها هل تأذن له بأن يتصرف كرب المنزل حيال ضيوفه فأذنت له بكياسة .

رأت فرانسين جميع الرؤساء يسارعون الي اخفاء اسلحتهم ، بطلب مـــن مونتوران ، حتى لا يثيروا شكوك الضباط الجمهوريـــين ، وبعضهم نزعوا زنانيرهم الجلدية المحتوية على مسدسات وسكاكين صيد . اوصاهم بالتكتم الشديد وخرج معتذراً ليهتم بضيوف مزعجين قذفه بهم القضاء من حيث لا يريد .

اما الآنسة دو فرنوي ، فقد بسطت قدميها امام النـــار لتدفئهما وادارت ظهرها للمجتمعين وهم يرجون رؤية وجهها . وبذلك كانت فرانسين الشاهـــد الوحيد على التبدل الذي طرأ إثر خروج مونتوران . فقد تحلق الرؤساء حول مدام دو غوا . واثناء الحديث السري الذي اجرته معهم لم يحجم احد منهم عن التطلع الى الفتاتين الغريبتين .

قالت مدام دو غوا :

ـ انكم تعرفون مونتوران ، لقد تعلق بحب هذه الفتـــاة ، وبات يرتاب في فضل النصائح التي قدمتها له . ولم يحفل بالتحذير الذي سمعه من صديقنـــا في باريس ، المسيو « فالوا ودسكرينيون دالنسون » ، بان الجمهوريين ينصبون له فخاً ، بالقائهم مخلوقة حسناء في طريقه . وها هو متعلق برداء اول مخلوقـــة صادفها ، وهي فتاة علمت انها تحمل اسماً كبيراً لتبهره وانها وانها .. الخ

هذه السيدة (دو غوا) التي عرفنافيها المرأة التي قررت مهاجمة عربة البريد ستظل تحمل في هذه القصة الاسم الذي نجت به من خطر محتم اثناء عبورها ألنسون .

ففي اعلان اسمها الحقيقي اهانة لاسرة نبيلة يكفيها ما رزئت به من سيرة هذه السيدة الشابة التي قدر لها ان تكون موضوعاً لقصة شائكة اخرى .

اما الموقف الفضولي الذي اتخذه المجتمعون فلم يلبث ان تحول الى موقف فيه قحة وشبه عداء بلغت بعض الفاظه فرانسين، فاسرّت كلمة في اذن سيدتها، ومضت تختبىء في فجوة حائط . واذ ذاك نهضت ماري والتفتت الى السفهاء المتطاولين ، ورمتهم بنظرة ملؤها الكبر والاحتقار ، وما لبثوا ان تأثروا بجمالها ولباقة حركاتها وكبريائها، واذا هم يغيّرون فجأة موقفهم منها. وكان اثنان او ثلاثة منهم شفّ ظاهرهم عما اكتسبوه من عادات الكياسة والأدب والظرف ، في حياة البلاط واوساطه الرفيعة . فاقتربوا من ماري بتأدب ولباقة وقد فرضت عليهم الاحترام ، بادبها وقوة شخصيتها . فلم يجرؤ احد منهم ان يبدأها الكلام . وبدلاً من ان تكون متّهمة ، بدت وكأنها هي التي تحكم وتتهم ، لقد بدا زعماء الحرب الناشبة باسم الله والملك قليلي الشبه بتلك الصور التي كونتها عنهم، فيما مضى ، في خيالها . وذلك النضال العظيم حقاً ، تضاءل في نظرها فجأة واتخذ صفة الهوان والمسكنة حين رأت هؤلاء الرجال، عدا اثنان أو ثلاثة منهم، قد تجردوا من معاني الحياة ومقوماتها !

وبعد ان غاصت ماري في بحر من الخيال ، دخلت فجأة في نطاق الحقيقة ، وتبين لها ان تلك الوجوه هي أقرب لأعلان حاجتها الى الدسائس منها الى انتزاع الامجاد ، لقد قضت المصلحة على هؤلاء الرجال بامتشاق السلاح، ولكنهم، وان كانوا قد حصلوا على بعض البطولات عملياً ، فانهم حيالها بدوا كلا شيء ..

إلا ان ماري ، بفقدانها ميزة بُعد النظر ، كانت ظالمة جائرة الحكم ، وعاجزة عن تبيان صفة الاخلاص الحقيقي الذي رفع شأن الكثيرين من هؤلاء الرجال .

هذا ، وفي حين بدرت من معظمهم حركات مشتركة ، كانت هي تستعيد في ذاكرتها شكليات النهج الارستوقراطي . وإذ هي تعترف لهؤلاء الرجال ، بصورة عامة ، بالذكاء واللباقة لم تجد فيهم اثراً لتلك البساطة الرائعة التي

ألفتها لدى رجال الجمهورية . لقد أضحكها ذلك الاجتماع الليلي في قلعة عتيقة متداعيـــة ، هي التي رغبت في رؤية مشهد يرمز الى الملكية الفخيمة حقـاً . والشيء الوحيد الذي سرها التفكير فيه هو ان المركيز يلعب الدور الأول بين هؤلاء الناس في قضية تبدو خاسرة ، وذلك منتهى الاخلاص .

وفيما كانت الآنسة دوفرنوي مسترسلة في التفكير ، كان وقع اقدام المركيز يسمع في الصالة المجاورة . وفي الحال توزع المتآمرون حلقات . وساد الصمت ، تماماً كما يفعـل التلاميذ لدى حضور المعلم ، ودخل المركيز فراق منظره ماري ، فراحت تتأمله وسط رجاله ، وقد بدا اصغرهم سناً واجملهم طلعة ، كان هو الاول والزعيم . وكالملك في بلاطه راح يتنقل من حلقـــة الى اخرى موزعاً ابتساماته ، مصافحاً الايدي ، مسايراً ومعاتباً ومنصتاً ، يؤدي مهمته كرئيس حزب حاذق ، وهو الذي اتهمته سابقاً بالغفلة والتهاون ، وبوجوده وضع حـداً للفضول بشأن شخصية الآنسة دوفرنوي . إلا ان خبث مدام دو غوا ترك مفعوله . فالبارون دو غونيك الملقب بالـ « أنتيميه » – وكان يحق له خـــلافاً للجميع ، ان يخاطب مورنتوران برفع الكلفة – اخذ المركيز من ذراعه وانفرد به في زاوية وقال له :

ـ اسمع يا صديقي المركيز إننا نراك ، ونحن على غاية من الألم ، على وشك ارتكاب حماقة .

ـ ماذا تعني بهذا الكلام ؟

ـ هل عرفت من اين جاءت هذه الفتاة ؟ من هي ؟ وما هي مقاصدها منك؟

ـ يا عزيزي الأنتيميه ، الكلام بيننا ، غداً تزول كل علاقة بيني وبينها ..

ـ فان سلمتك هذه المخلوقة لأعدائك قبل الفجر ؟

ـ اجيبك على ذلـك لو أجبتني انت لماذا لم تسلمني الفتاة حتى الآن ؟ وكان بوسعها ان تفعل في مناسبات عديدة .

ـ انك ترضيها الآن وهي لا تريد ان تخونك قبل ان ترتوي منك .

ـ يا صديقي ، انظر اليها ، افحص حركاتها ، تمعن في جمالها ، ثم اجرؤ على

القول بأنها ليست امرأة ممتازة . ولو منحتك نظرة رضى أفلا تشعر في قرارة نفسك ، بشيء من الاحترام والمودة لها ؟ ثمة امرأة أثارتك ضد هـــذه الآنسة وأهاجت وساوسك . لكن ، بعد كل ما سمعته انا منها وسمعته هي مني فلسوف أقتلها اذا ما تأكد لي انها ، كما يتهمونها، من بنات الهوى .

وهنا تدخلت مدام دو غوا وقالت للشاب :

– اتظن ان « فوشه » كان احمق عندما بعث اليك بهذه المرأة التي التقطها من الشارع ؟ لقد قاس مفاتنها على مستوى مقامك ، وان كنت انت أعمى فعيون صحابك ساهرة عليك .

فأجابها « الغار » بحدة :

– احذرك الا تتعرض لها ولا لحاشيتها بسوء ، والا فـــلا عاصم لك من انتقامي . آمرك ان تعاملي الآنسة دو فرنوي باحترام كلي كامرأة تخصني . ولعلك تعلمين ان اسرة دو فرنوي من حلفائنا .

المعارضة التي لقيها المركيز تركت في نفسه أثراً لا بد منه . فهو ، وان يكن عامل الآنسة دو فرنوي بخفة ، وتظاهر بان حبه لها ليس اكثر من هوس عابر فقد تجاوز حداً في تدلهه بها، بوفائه لها وجدها جديرة بكل احترام وراح يقنع الرؤساء المجتمعين بانها تحمل اسم دو فرنوي عن جدارة واستحقاق . وانها خير من يوثق به . فبدد بذلك الاشاعات والشكوك حولهـــا . فاذا اطمأن اليهم ، اقترب من حبيبته وقال لها بصوت خفيض :

– لقد سلبوني وقتاً ثميناً من السعادة .

– اراني جد سعيدة بوجودك قربي . واحذرك باني فضوليـــة وارجوك الا ازعجك باسئلتي . قل لي اولاً من هو ذلك الرجل صاحب السترة الخضراء ؟

– انه المجور بريفو وهو من رجال « ماريه » صاحب « المرحوم ميرسييه » ذاك الذي كانوا يطلقون عليه لقب : « الفانديه ».

– ومن هو الاكليركي الضخم ذو الوجه الشاحب الذي يتحدث معه المجور عني؟

– اتعرفين ماذا يقولان ؟

– يا له من سؤال ؟
– لا استطيع اطلاعك دون ان اغيظك .
– ما دمت تسمح باهانتي تحت سقف بيتك دون ان تنتقم لي ، فالوداع ايها المركيز . لا اريد البقاء هنا دقيقة واحـــدة . اني اشعر بتبكيت الضمير لاني خدعت أولئك الجمهوريين الاوفياء.

ـ اصغي الي يا عزيزتي ماري، اقسم لك بشرفي اني نقضت افكارهم ومزاعمهم الشريرة قبل ان اعرف أهي صحيحة ام بهتان وزور ، ومن كان في مقامي، جاز لخاصته وصحابه ان يسيئوا الظن بامرأة في مثل جمالك ، خصوصاً بعد ان علموا ان اصدقائي في باريس حذروني من أي امرأة اجدها في طريقي مؤكدين ان « فوشه » ينوي استخدام « دليلة » اخرى لإيقاعي في الفخ .

كان المركيز يتكلم وعيناه في عيني الآنسة دوفرنوي . فامتعضت ولم تستطع إمساك دموعها وقالت بألم :

ـ انا جديرة بهذه الاهانات ، وأشد ما اصبو اليه ان اراك واثقاً بأني مخلوقة حقيرة ، وانك بالرغم من ذلـك تحبني . اذ ذاك أثق بك وأومن بحبك ، لقد صدقتك وانت تخدعني . وانت لا تصدقني وانا صادقة ، فلنقف عند هذا الحد يا سيدي .

قالت ذلك وهي مقطبة الجبين، منسرقة اللون كأنها مشرفة على الموت . ثم اردفت قائلة بمرارة :

ـ الوداع .

وانطلقت خارج صالة الطعام بيأس شديد ، فهتف المركيز في اذنها قائلاً :

ـ ماري ! حياتي لك .

ـ كلا ، كلا ، سأكون كريمة ، لم أكن أفكر حين تبعتك لا بماضيّ ولا بمستقبلي ، كنت مجنونة ، الوداع .

ـ كيف تتخلى عني حين اقدم لك حياتي .

ـ تقدم لي حياتك وانت في نشوة الحب والمتعة ..

ـ بل الى الابد ، وبلا ندم .

فعادت اليه . ولكي يخفي اضطرابه استرسل قائلاً :

ـ ذلك الرجل الضخم الذي سألتني عن اسمه .. انه رجل رهيب الجانب ، الأب غودن ، وهو جزويتي متعصب . بقي في فرنسا على الرغم من المرسوم الذي صدر سنة ١٧٦٣ لطرد الجزويت من الاراضي الفرنسية ، انه هو جذوة الحرب في هذه المناطق ، والمروج الاكبر للجمعية الدينية المسماة بجمعية القلب الاقدس . انه ، وهو المعتاد على استخدام العقائد اداة ، يعرف كيف يبقيهم على تعصبهم بنبوءات محكمة . ماذا تريدين ? للوصول الى الهدف ينبغي استخدام المصالح الخاصة عند اي شخص ، ذلك هو سر السياسة .

ـ وذلك العجوز الذي لا يزال اخضر العود، ذو الوجه المنفر والعضلات القوية ، هناك ، لابس الجبة المعدة للمحامين .

ـ المحامين ?! .. انه يطالب برتبة المارشالية ، افلم تسمعى باسم لونغي ?

ـ اهذا هو نفسه ? وانت تستخدم مثل هؤلاء الرجال ?

ـ صه ، قد يسمعك ? اترين الرجل الآخر الغارق في حديث اجرامي مع مدام دو غوا ?

ـ صاحب اللباس الأسود ? الشبيه بالقاضي ?

ـ انه احد مفاوضينا ، اسمه « لا بيلارديير » ، وهو ابن مستشار في برلمان بريتانيا . انه حائز على ثقة الامراء .

ـ وجاره الذي يضغط على غليونه الغضاري الأبيض ويسند يده على اطار المقعد ؟

ـ انه حارس الغابة السابق لدى المرحوم زوج هذه السيدة ، وهو الآن آمر فرقة مشاة ، وهو ومارش آتير ربما كانا من اخلص اتباع الملك .

ـ والسيدة ? من تكون هي الاخرى !

ـ انها آخر عشيقات الزعيم الثائر المرحوم شاريت، وهي صاحبة نفوذ كبير على الجميع .

ـ وهل ظلت وفية لعهده ؟

جواباً على هذا السؤال أتى المركيز بحركة مبهمة ، فسألته ماري :

ـ وهل تحترمها ؟

ـ انك تبالغين في الفضول .

ـ انها عدوتي بعد ان لم يعد بامكانها ان تكون منافستي . انني اغفر لها اخطاءها الماضية فلتغفر لي هي اخطائي ... وذلك الضابط ذو الشنب ، من هو؟

ـ اسمحي ألا ّ اسميه ، انه ينوي القضاء على القنصل الاول بمهاجمته وجهاً لوجه ، وسواء نجح ام لم ينجح فسوف تعرفينه ، سيصبح شهيراً .

ـ وانت ترأس مثل هؤلاء الناس ؟ قالت ذلك برعب واردفت :

ـ أهؤلاء هم المدافعون عن الملك ! فأين رجال البلاط من مشاهير النبلاء والسادة الفحول العظام ؟

ـ انهم منتشرون في جميع بلاطات اوروبا ، ولو لا وجودهم هنالك فمن ذا الذي يحمل الملوك ووزاراتهم وجيوشهم ليكونوا عوناً على هذا النظام الجديد الذي يهدد بالقضاء على النظام القديم .

اجابت ماري باضطراب شديد :

ـ آه ! كن لي من الآن فصاعداً معيناً صافياً أستقي منه ما انا شديدة الاحتياج اليه من المعرفة ، ولكن ، دعني اعتقد انك النبيل الوحيد الذي يقوم بواجبه بمهاجمة فرنسا بالفرنسيين لا بجيوش الاجانب . اني امرأة ، واشعر انني لو ضربني ابني عن غضب استطيع ان اغفر له ، اما ان سكت عن مجهول يمزقني فهو في نظري وحش مخيف .

ـ ستبقين كما انت جمهورية .

ـ جمهورية ؟ كلا ، لم اعد جمهورية ، ولن احترمك اذا خضعتَ للقنصل الاول . لكنني لا اريد ان اراك على رأس اناس ينهبون زاوية من فرنسا بدلاً من اجتياح الجمهورية بكاملها .. لمن تقاتل ؟ وماذا تتوقع من اناس يستعيدون حقوقهم على ايديكم ؟ ثمة امرأة سبق لها ان قامت بمثل هذا العمل فكانت النتيجة

ان تخلى عنها من ناصرتهم فأحرقت حية . اولئك تبوؤا هم باذن ربهم .. فدعهم لربهم يفعل ما يشاء .. ان شاء رفعهم ثم يخفضهم ثم يرفعهم تارة اخرى . كل ذلك باذنه ومشيئته وقضائه . لو انك قدرت المكافأة التي تعود عليك لكنت في نظري أكبر مما كنت احسب بعشر مرات .. اذ ذاك دسني بقدميك أكن سعيدة .

ـ انت رائعة في حدتك . لا تجربي ان تعطي هؤلاء السادة ، حتى لا اصبح بلا جنود .

ـ آه ! لو سمحت فسمعت دعوتي تدعني ، اذن لبعدنا معاً الف مرحلة عن هذا المكان .

ـ ان هؤلاء الذين لا تخفيها استهانتك بهم لا يحجمون عن التضحية بأنفسهم في ساحة الجهاد . اما عيوبهم فسوف تنسى . وبعد ، وإن تكللت جهودي ببعض النجاح ، افلن تخفي أكاليل الغار كل شيء ؟

ـ لا ارى هنا احداً غيرك يخاطر بشيء ذي بال حقاً .

ـ لست وحدي المجاهد الصادق ، انظري هذين ، انهما زعيمان جديدان لفانده ، احدهما ، الملقب بجاك الكبير ، هو الكونت دو فونتين ، والآخر هو لا بيلاردير .

ـ وهل نسيت كيبيرون ، حيث مثل لابيلاردير دوره المعروض ؟

قالت ذلك وقد دهمتها تفاصيل تلك الذكرى . فقال « الغار » :

ـ صدقيني ان لابيلاردير حمل الكثير من اوزار غيره. فخدمة الأمراء ليست نزهة على بساط من الورد .

ـ انك لتروعني يا مركيز ! صرخت ماري ثم قالت كأنها اكتشفت شيئاً مخبأ فيه سرها الشخصي يكفي لحظة واحدة ليزيل وهماً وليكشف اسراراً تتعلق بحياة وسعادة الكثيرين. وصمتت هنيهة كأنها تخشى كثرة الكلام ثم اردفت قائلة :

ـ اريد ان اطمئن الى سلامة جنود الجمهورية .

فقال لها مبتسماً ليخفي اضطرابه :

ـ اطمئني ، اني شديد الحذر ، كفي عن الكلام عن جنودك لقد قطعت عهداً بحمايتهم .

ـ بعد هذا اي حق لي عليك بيننا نحن الاثنين ؟ فكن سيداً ، ان منتهى التعاسة ان اكون حبيبة عبد ذليل .

وقطع المجور بريغو الحديث بين الاثنين بقوله :

ـ الى متى يبقى الزرق هنا يا سيدي المركيز ؟

ـ الى ان يرتاحوا قليلاً من عناء المسير . قالت الآنسة دو فرنوي .

والقى المركيز نظرة فاحصة على الجماعة ، واذ لاحظ ان هناك اضطراباً ، ترك الآنسة دو فرنوي مع مدام دو غوا ، تلك المرأة التي افتعلت ابتسامة ماكرة خفيت على الزعيم الشاب . وفي هذه اللحظة ، اطلقت فرانسين صرخة عنيفة . واذ رات ماري خادمتها الامينة منطلقة نحو صالة الطعام ، تطلعت في مدام دو غوا فدهشت للاصفرار الذي يعلو وجهها ، شاءت ان تعرف سر ذهاب فرانسين المفاجىء ، فتقدمت نحو النافذة . واذا بعدوتها تتبعها لتبدد الشكوك التي قد تكون اثارتها وابتسمت لها بخبث لا يمكن وصفه . وبعد ان القت المرأتان نظرة على مناظر البحيرة ، عادتا معاً الى المدفأة . لم تلحظ ماري ما يبرر هرب فرانسين ، بينما مدام دو غوا عادت مسرورة لتأكدها من تنفيذ أوامرها .. فعلى ضفة البحيرة رأت مارش آتير في طريقه نحو الحفرة وسط البساتين بايحاء منها .

وفيما كانت فرانسين تراقب بعدم اكتراث تحركات الاغصان وانحناءاتها ، خيل اليها انها ترى وجه رجل ينساب بين البساتين الا انها لم تتأكد من صحة هاجسها بسبب التموجات السائدة تحت ضوء القمر الباهت ، ولكنها عادت فرأت شبح رجل آخر ، ثم ظهر رجال آخرون .. بمرورهم تميل اغصان الشجيرات الصغيرة بعنف حسب اتجاههم .

ورأت فرانسين على الآثر صفاً طويلاً من المخلوقات يتعرج في السير كافاعي الهند باشكالها الاسطورية . ثم ظهرت لها عدة اضواء تتحرك هنا وهناك . واذ

انعمت النظر خيل اليها انها تعرفت الى الوجه الأول من تلك الوجوه وجه ، حبيبها مارش آتير وقد تأكدت انه هو بعينه من دقات قلبها .

الآن ، وقد استنارت فرانسين بشارة خفية ، ولشدة اهتمامها لمعرفة ما اذا كان هذا الزحف الغامض لا يخفي وراءه مكيدة ما ، انطلقت نحو الساحة ، واذ وصلت الى المنبسط الأخضر نظرت حولها وفي كل مكان فلم تكتشف شيئاً عن تلك الحركة . اصاخت السمع فسمعت ضجيجاً خفيفاً أشبه بوقع اقدام حيوان مفترس في الغابة ، غشاها الفضول فلجأت الى الحيلة ، رأت عربة فاختبأت فيها ، تربصت فلمحت بيل ميش يخرج من الاصطبل برفقة قرويين وكان الثلاثة يحملون حزمات من القش فرشوها بشكل سرير طويل أمام البناء المهجور حيث كان الناعقون يسيرون بهدوء . وفجأة سمعت فرانسين صوتاً عرفته يقول :

ـ انك تقدم لهم القش كانهم سينامون عليه فعلاً . كفى ، كفى يا بيل ميش.

ـ الن يناموا ؟ قال بيل ميش وهو يطلق ضحكة بليدة . واضاف . الا تخشى ان يستاء الغار ؟ فاجاب مارش آتير بصوت خافت لم يبلغ سمع فرانسين :

ـ سيستاء ، ولكننا نكون قد قتلنا الزرق ، واردف قائلاً :

ـ هيذا عربة يقتضي علينا ادخالها .

وجر بيل ميش العربة من مقدمها ودفعها مارش آتير من دواليبها بسرعة قبل ان تتمكن فرانسين المختبئة في داخلها من التفكير . وخرج بيل ميش من الحظيرة ليأتي بوعاء الخمر الذي أمر المركيز بتوزيعه على جنود الحاشية . ومشى مارش آتير بمحاذاة العربة لينسحب بدوره ويقفل الباب واذا بيد تقبض عليه من سترته الجلدية . تطلع فيها فتعرف على عينيها اللتين طالما مارستا سحرهما عليه فبقي بعض الوقت ذاهلاً مسحوراً .. وقفزت فرانسين بخفة من العربة وقالت له بصوت عدائي كامرأة منفعلة :

ـ ما هي الاخبار التي حملتها في الطريق لتلك السيدة ولابنها ؟ ماذا تفعل هنا ، ولماذا تختبىء . اريد ان اعرف كل شيء .

هذه الكلمات تركت على وجه الناعق المتوحش تعبيراً لم تفهمه فرانسين .

ثم قاد حبيبته البريئة الى عتبة الباب وادارها نحو ضوء القمر وقال لهـــا وهو يتطلع فيها بعينين قاسيتين :

ـ سأجيب على اسئلتك يا فرانسين اذا اقسمت لي على هـــذه السبحة ، قال ذلك واراهـــا سبحة اخذها من جيبه وقال :

ـ اقسمي على هذه التعويذة التي تعرفينها انك تجيبين بصراحة على سؤال واحد.

امتقع وجه فرانسين وهي تنظر الى تلك السبحة التي كانت هي، ولا وشك، عربون حبهما . واردف الناعق قائلاً :

ـ على هذه السبحة اقسمت انت .

وقبل ان يتم كلمته وضعت القروية يدها على شفتي عشيقها فارضة عليـــه السكوت . وقالت :

ـ وهل انا بحاجة الى القسم ؟

اخذ يدها برفق ، تأمل فيها لحظة ثم قال :

ـ هل الآنسة التي تخدمينها تدعى الآنسة دو فرنوي فعلاً ؟

حيال هذا السؤال بقيت فرانسين مبسوطة اليدين ، خافضـــة العنين صفراء محنية الرأس مكبوته .

ـ انها ساقطة ! قال مارش آتير بصوت رهيب .

هنا ايضاً حجبت اليد الناعمة شفتي المتكلم ، الا انه هذه المرة تراجع بعنف ولم تعد ترى فيه الفتاة البريتانية حبيباً بل حيواناً مفترساً بكل وحشيته، مقطب الحاجبين يصر على اسنانه ويكشف عن انيابه كالكلب عندما يدافع عن سيده وقال لها :

ـ تركتك زهرة ووجدتك مزبلة . آه ! ترى لماذا تخليت عنك ! لقد جئت لتخوننا ! لتسلمي الغار !

كانت عباراته اقرب الى الزئير منها الى الالفاظ ، وفرانسين ، وان تكن قد ارتعبت من كلامه الاخير ، فقد تجرأت على تأمل وجهه ، بعينين ملائكيتين وأجابته بهدوء :

ـ اقسم بخلاصي ان ذلك خطأ ومن اختلاق تلك السيدة .

هنا خفض مارش آتير رأسه بدوره فأخذت بيده والتفتت نحوه قائلة :

ـ لماذا نحن في ورطة يا بيار ؟ اسمعني جيداً، لست اعلم كيف تفهم الامور، لا علم لي بشيء ، ولكن ، تذكر ان هذه الآنسة الحسناء النبيلة قد أحسنت الي واليك ايضاً ، واننا ، هي وانا نعيش معاً كشقيقتين ، وما دمت معها فلا يجب ان تتعرض لسوء ، اقسم لي على ذلك ، انا في هذا المكان لا أثق بأحد إلا بك .

ـ لست صاحب الامر هنا . اجاب الناعق بلهجة صارمة ووجه عابس .

اخذت فرانسين تلاطفه وتداعب اذنيه الطويلتين فاذا لان قالت له :

ـ عدني بأنك ستبذل أقصى جهدك من اجل سلامة المحسنة الكريمة .

هز رأسه دلالة على الشك في امكانية نجاحه فارتاعت الفتاة البريتونية ، وفي هذه اللحظة المحرجة ، كانت الحاشية قد وصلت الى الطابق الارضي وكان وقع اقدام الجنود وصليل اسلحتهم يبعثان الاصداء في الساحة ، وبظهورهم وضعوا حداً لتردد مارش آتير فقال لعشيقته :

ـ قد اخلصها اذا كان بامكانك ان تبقيها في المنزل ، وأضاف : على كل حال ابقي معها والزمي الصمت المطبق .

ـ اعدك بذلك ، اجابت من اعماقها .

ـ حسن ، عودي ، عودي حالاً واخفي اضطرابك عن الجميع ، حتى عن سيدتك .

ـ سأفعل . قالت ذلك وضغطت على يد الناعق فرمقها بنظرة أبوية وهي راكضة بخفة الطير نحو الردهة ، ثم تغلغل بين اشجار البستان .

لدى وصول رجال حاشية الآنسة دو فرنوي الى القصر قال جيرار لميرل :

ـ هذا المكان يبدو لي مسحوراً يا ميرل .

ـ هكذا أرى ، أجاب الضابط قلقاً .

وسارع الضابطان الى وضع حراس ليؤمنوا الحراسة على المدخل ، ثم القيا نظرات الحذر في كل مكان وقال ميرل :

– اما ان ندخل الساحة بكل ثقة والا فلا .

– لندخل ، اجاب جيرار :

وباشارة من الرئيس سارع الجنود الى وضع بنادقهم بشكل هرمي واصطفوا بشكل جبهة صغيرة أمام فراش القش حيث يوجد اناء الخمر. ثم انفصلوا الى فرق واخذ قرويان يوزعان عليهم الزبدة والخبز . واقترب المركيز من الضابطين وقادهما الى الصالون ، واذ صعد جيرار الى الردهـــة وتطلع في الجناحين حيث يبسط الشربين اغصانه السوداء، استدعى اليه بوبيه ولا كلي دو كور وقال لهما:

– انتما ستذهبان وتتحريان البساتين والسياجات، مفهوم ؟ ثم تضعان حارساً امام راية فرقتكم .

– هل يمكننا ان نشعل النار قبل البدء في الاستكشاف !

– أجل .

وخاطب بوبيه رفيقه لا كلي دو كور « مفتاح القلوب»بقوله :

– ارأيت كيف ان الرقيب جيرار قد اخطأ في الدخول الى هذا الوكر ، لو كنا بقيادة هولو لما وصلنا الى هنا ابداً ، اننا في هذا المكان وكأننا في قِدر .

– انت احمق ، اجاب لا كلي دو كور. الا تعرف وانت اخبث الخبثاء ، ان هذا المحراب هو قصر الحسناء المغفلة التي يحوم حولها الضابط ميرل ليتزوجها ، ذلك شيء واضح لا لبس فيه ، فهو اجمل الضباط ، وفي زواجه من فتاة من هذا العيار شرف للفرقة .

ـ الحق معك ، يا بوبيه ، ويمكن ان تضيف قائلاً :

ـ ها هي خمرةالتفاح اللذيذة! إلا اني لا اشربها باستمتاعامام هذه السياجات المقيتة فما زلت اتخيل لاروز وفيو شابو وهما يتدحرجان في الهوة في البلرين ، لن أنسى ما حييت هذا المشهد .

ـ يا بوبيه ، يا عزيزي ما اوسع خيالك ، كان من الافضل لك ان تكون في المعهد الوطني تنظم الاغاني من ان تكون جندياً .

ـ اذا كان لدي ذاكرة قوية فلا يلزمني وقت طويل لأصبح قنصلاً ، اما انت فعلى العكس .

قطع « لاكلي دوكور » الجدال بضحكة عالية وقال لرفيقه :

ـ لنقم بالدورية ، انت تأخذ جهة اليمين وانا جهة اليسار .

ـ حسناً ، ولكن ، لحظة ، سآخذ جرعة من الخمر ابلل بها حلقي الجاف .

كانت جهة اليسار من البساتين التي تهاون لاكلي دوكور في تفتيشها في الحال هي الضفة الخطرة التي رأت فيها فرانسين تحركات الرجال ..

في الحرب كل شيء يدعو الى المخاطرة ، فعندما دخل جيرار الى الصالون وحيا الفرقة وألقى نظرة ثاقبة على رجالها عاودته الشكوك واضطربت نفسه . اقترب من الآنسة دوفرنوي وقال لها بصوت خفيض :

ـ في رأيي ان تنسحبي في الحال ، لسنا في امان هنا . فأجابته ضاحكة :

ـ أتخشى شيئاً وانت في بيتي ؟ انك هنا في امان أكثر من أي مكان آخر .

تكلمت الآنسة بالنيابة عن حبيبها بكل ثقة في النفس . فاطمأن الضابطان، وفي هذه اللحظة انتقلت الفرقة الى صالة الطعام .

خلال السكوت الذي يسبق عادة البدء بالطعام، استطاعت الآنسة دوفرنوي ان تعطي بعضاً من انتباهها الى هذا الاجتماع الغريب في وقت جعلتها الظروف ، بشكل ما ، هي سببه بجهالة امرأة اعتادت ان تتدخل في كل شيء وتنفذ أشرس ما في الحياة من اجل غاية دنيئة .

ثمة واقع أثار انتباهها. فالضابطان الجمهوريان يهيمنان على الحضور بقوة شخصيتهما، فالشعر المشدود الى الوراء بشكل جديلة على العنق يرسم خطوطاً تضفي على وجهيهما مزيداً من الكبر والنبل ، والبذلة الزرقاء المخرّجة بالقماش الاحمر حتى حشوة الكتفين الهابطة الى الوراء تنبىء عن طول جهاد عنيف ، وكل ما فيهما يميزهما عن سائر الرجال حولهما . وهتفت من اعماقها .

ـ آه ! هنا الامة .

ثم التفتت نحو الملكيين وقالت :

ـ وهنا رجل ، هنا ملك بامتيازات .

وما امكنها إلا ان تتأمل معجبة وجه ميرل ، ذلك الجندي الطروب الذي يعطي السائل فكرة مستوفية عن كل ما يريد معرفتـــه عن جنود فرنسا الذي يحسنون صفير الالحان وسط القنابل ..

وما غفلت عن تأمل رفيقـــه جيرار الذي بدا صارماً رابط الجأش بروح جمهورية حقة هي نفس الروح المتغلغلة في صفوف جيوش فرنسا التي تميزت بجرأة فريدة . فقالت في نفسها :

ـ هوذا احد رجالي مـلء البصر ، الاثنان يهدمان الماضي لصالح المستقبل ويتوكآن على حاضر ظافر .

واذ رأت المركيز محاطاً برجاله الذين كانوا على شيء من الشجاعة ، المتعصبين المتربصين لمهاجمة جمهورية منتصرة على امل احيـاء ملكية رميمة وديانة محرمة وامراء مشردين وامتيازات ضائعة ، اذ رأته كذلك قالت :

ـ ان هذا ليس في مستوى ذاك ، انه متربع على انقاض ويسعى لأن يجعل من الماضي مستقبلاً .

غذت نفسها بالتصورات فوقفت مترددة بين الخرائب القديمة والجديدة ، فقد كان ضميرها يصرخ قائلاً ان واحدهما يقاتل من اجل رجل والثاني من اجـــل البلاد ، من اجـل امة ، إلا انها وصلت بالعاطفة الى نقطة تؤدي ، عن طريق العقل ، الى الاعتراف بأن الملك هو رمز الامة .

سمع المركيز وقع اقدام رجل فنهض لملاقاته . عرف انه الضيف المنتظر الذي فوجىء بوجود الهيئة فحاول الكلام . الا ان « الغار » أومأ اليه ، خفيـة عن الضابطين الجمهوريين ، بان يصمت ويأخذ مكانه على المائدة .

اما ميرل وجيرار ، فقد وقعا من جديد فريسة الظنون والمخاوف بعد ان امعنا في تحليل قسمات وجوه مضيفيهما . فلباس الاب غودن الاكليركي وغرابة بدلات الناعقين ايقظت فيهما الحذر الشديد مضاعفاً انتباههما واكتشفا تناقضات مضحكة بين حركات المدعوين واحاديثهم . فبقدر ما تجلت الروح الجمهورية في

بعض الحاضرين . كانت حركات البعض الآخر ارستوقراطية .

تلك الغمزات المتبادلة بين المركيز وضيوفه ، تلك الكلمات ذات المعاني المبطنة ولا سيما تمشيط اللحى المستديرة على الاعناق المخفية تحت عقدة العنق ، كل هذا كشف للضابطين عن حقيقة اذهلتهما معاً ، فأعربا عن افكارهما المشتركة بنظرة واحدة ، فقد فصلتهما مدام دو غوا عن بعضهما بلباقة فراحا يتخاطبان بالاعين ، كان موقفهما يدعو الى التصرف بحذق ونباهة . لم يكونا يعرفان ما اذا كانا سيدي القصر ام فريستين وقعا في الفخ ، وما اذا كانت الآنسة دو فرنوي مغشوشة ام شريكة في هذه المغامرة المبهمة . الا ان حادثاً غير متوقع عجل في وقوع الأزمة قبل ان يتمكنا من معرفة فداحتها .

لقد كان الضيف الجديد مربع الشكل من اسفل الى اعلى بديناً يميل الى الوراء حين يمشي ، مغروراً يفتعل الحركات ليلفت نظر الذين حوله . على الرغم من كونه احد النبلاء ينظر الى الحياة كاضحوكة في حين ينبغي الاستفادة من الحياة قدر الامكان ، إلا انه مع عنجهيته بدا طيب القلب مهذباً خفيف الروح على غرار هؤلاء النبلاء الذين يعودون الى أراضيهم بعد ان ينهوا مدة تربيتهم في البلاط ، ولا يصدقون أنفسهم انهم قد تمكنوا اخيراً وبعد عشرين سنة من الانفلات من قيود الرسميات .

على المائدة بدا اكولا من طريقة استعماله للشوكة ، تطلع في الهيئة فازداد دهشة عندما شاهد الضابطان معه ، سأل مدام دو غوا ، بالنظر ، عن خبرهما فكان جوابها ان دلته على الآنسة دو فرنوي .

واذ رأى المجهول الضخم الحورية التي بدأ جمالها يفرض الصمت على العواطف التي أهاجتها اولاً مدام دو غوا اطلق ابتسامة غاشمة وساخرة تضمنت قصة خطيرة كاملة . ومال الى اذن جاره وأسر ببعض كلمات بقيت سراً على الضابطين وعلى ماري فقط ، اما الآخرون فقد تبادلوها من اذن الى اذن ومن فم الى فم إلى ان بلغت مسامع ذلك الذي اصيب فؤاده بسهم قاتل . وحول زعماء فانده والناعقون انظارهم نحو المركيز دو مونتوران بفضول مخيف . واخذت

مدام دو غوا تنزه بصرها بين المركيز والآنسة دوفرنوي وهي تطلق بريق الابتهاج . وكان الضابطان القلقان يتشاوران بانتظار نتيجة هذه المسرحية المبهمة ، ثم ، بلحظة واحدة جمدت الشوكات في الايدي وساد الصمت في الصالة وتعلقت اعين الجميع « بالغار » مفجرة هياجاً رهيباً في الوجه الدموي الغضوب الذي اعتراه الشحوب . والتفت الزعيم الشاب نحو الضيف الذي انطلقت منه تلك الانباء المكتومة وبصوت مبطن بالنعومة قال له :

– يا لنفسي الحزينة يا سيدي الكونت . هذا صحيح ؟

ـ بشرفي ، اجاب الكونت وهو ينحني امامه .

خفض المركيز عينيه ثم رفعها لينظر الى ماري ، وكانت منتبهة لكل ما جرى حولها ، وليلقي عليها بنظرة ملؤها الموت . وقال بصوت خافت :

– بودي لو ابذل حياتي لانتقم في الحال .

فهمت مدام دو غوا عبارته من حركة شفتيه فابتسمت له كما يبتسم الصديق لصديقه الذي استعاد رجاءه بعد يأس . وبلغ امتعاض الضابطين الجمهوريين حده الاقصى حين لاحظا دلائل الاحتقار للآنسة دو فرنوي مرتسمة على وجوه الجميع فنهضا فجأة . اذ ذاك سألتهما مدام دو غوا :

– ماذا تبتغيان ايها المواطنان ؟

– نبتغي سلاحنا ايتها « المواطنة » اجابها بسخرية .

ـ لستما بحاجة اليه على المائدة ، قال المركيز ببرود .

ـ صحيح ، انما نريد ان نلعب لعبة تعرفها . اننا هنا اقرب الى بعضنا منا في البلرين ، أجابه جيرار وهو يحاول الدنو منه .

وقف جميع من في الصالة وكأن على رؤوسهم الطير ، وفي هذه اللحظة سمع دوي رهيب في الساحة . فهرع الضابطان الى الشرفة ومنها شاهدا مئة ناعق يصوبون فوهات بنادقهم على بعض الجنود ويطلقون عليهم النار كأنهم ارانب . هؤلاء البريتونيين خرجوا من الضفة حيث وضعهم مارش آتير لمصيرهم المحتوم . فبعد الطلقات الاخيرة ، سمع ، عبر صراخ المائتين ، بعض الناعقين يسقطون في المياه

حيث تدحرجوا كما تتدحرج الحجارة في هوة .

وفيما كان بيل ميش يسدد فوهة النار على جيرار كان مارش آتير يفرض الصمت على ميرل .

وقال المركيز لميرل مردداً الكلمات التي قالها عنه :

« وهكذا الرجال كشجر الاكيدنيا لا ينضجون إلا على القش » .

قال ذلك وباشارة من يده دله على موكب كامل من الزرق مرتمين على بيدر من القش مضرجين بدمائهم ، حيث كان الناعقون لا يزالون يجهزون على الاحياء منهم ويجردون الاموات من ملابسهم بسرعة فائقة ، وأردف المركيز قائلاً لميرل :

ـ كنت على حق حين قلت لك ان جنودك لن يبلغوا البلرين ، كما اني أعتقد ان رأسك سيمتلىء بالرصاص قبل ان يمتلىء رأسي به . فما رأيك ؟

كان مونتوران متعطشاً للانتقام ، كان مستهيناً بكل شيء ، سخريته بالمغلوب ، وحشيته ومكره وخداعه وحتى تلك المجزرة العسكرية التي تمت بدون أمر منه ، كل هذه كانت تتجاوب مع تمنيات قلبه الدفينة ، في غضبه شاء ان يمحو فرنسا بأسرها . كان امامه الزرق المذبوحون وبين يديه الضابطان على قيد الحياة وجميعهم أبرياء بما اراد « الغار » ان يثأر له . فكانوا بالنسبة اليه كأوراق اللعب التي يلتهمها المقامر الخاسر في شدة قنوطه .

قال جيرار للمركيز بعد ان شاهد الجنود غارقين بدمائهم ، عراةً :

ـ لأهون علي ان اهلك هكذا من ان أنتصر مثلك ذلك الانتصار الدنيء الذي احرزته بقتلهم غدراً وجبناً .

ـ كما قتلتم لويس السادس عشر ، اجابه المركيز على الفور .

ـ أيها السيد ، اجاب جيرار ، يوجد في دعوى الملك أسرار لن تفهمها قط .

ـ أتتهم الملك ايها الضابط ؟ قال المركيز بغضب .

ـ وانت ، أتحارب فرنسا ، قالها بلهجة احتقار .

ـ هراء .

ـ عاق ! قاتل امك !.

ـ عاق ! قاتل الملك !.

وهنا صرخ ميرل مخاطباً جيرار بقوله:

ـ اتؤخر وقت موتك للمخاصمة باللسان .

ـ صحيح ، قال جيرار بفتور وهو يلتفت نحو المركيز واضاف :

ـ ان كنت تنوي قتلنا ، تكرم واقتلنا في الحال على الاقل .

ـ احسنت يا جيرار ، انما يا صديقي ، اذا كانت الرحـــلة بعيدة وليس بالامكان تناول الفطور في اليوم الثاني ، فلنتعش على الأقل ! قال ميرل ..

ودون ان يتلفظ جيرار بكلمة واحدة انطلق بكبر وعنفوان نحو السور فسدد عليه بيل ميش فوهة بندقيته وهو يتطلع في المركيز الذي بقي جامداً ، فاعتبر سكوته امراً ، وفي الحال خر جيرار مضرجاً بدمه واسرع مـارش آتير يقاسم بيل ميشل ثياب القتيل وكغرابين جائعين راحا يتقاتلان على الجثة قبل ان تبرد .

وقال المركيز لميرل الذي شاء ان يحتفظ به للمبادلة:

ـ ان شئت ان تتعشى يا كابتن فانت حر في ان ترافقني الى المائدة .

وسار الكابتن ميرل بتهاون الى جانب المركيز وهو يقول بصوت خافت كمن يلوم نفسه :

ـ تلك البنت الشيطانة هي السبب في كل هـــذه المأساة ، ترى ماذا عساه يقول هولو ؟

ـ بنت ؟! صرخ المركيز بصوت عال ، على ذلك فهي « بنت » خفيفة فعلاً ؟

بدا الكابتن وكأنه قتل مونتوران الذي كان يتبعه اصفر اللون مغلوباً على أمره ، حزيناً حتى الموت يمشي بخطى متثاقلة .

هذا ، في حين كانت تجري في صالة الطعام مسرحية اخرى اتخذت اثناء غياب المركيز طابعاً مشؤوماً الى حد ان الآنسة دو فرنوي توقعت تنفيذ حكم بالاعدام اصدرته ضدها عدوتها اللدودة في غياب شفيعها المركيز .

على دوي الرصاص في الخارج ، نهض الضيوف لاستطلاع الخبر ما عدا مدام دو غوا التي خاطبت الجميع بقولها :

ـ اجلسوا ، لا شيء هناك يستحق الاهتمام ، أتباعنا يقتلون الزرق !
واذ رأت مدام دو غوا المركيز خارجاً ، نهضت وقالت للحضور :
ـ هذه هي الفتاة التي جاءت لتختطف «الفار» ، لتحاول تسليمه الى الجمهورية !
فردت الآنسة دوفرنوي عليها بقولها :
ـ لو كان في نيتي تسليمه لفعلت ذلك منذ الصباح في عشرين مناسبة سنحت، لكني أنقذت حياته ودافعت عنه .
وما كادت ماري تنهي كلمتها حتى أطبقت عليها مدام دو غوا بسرعة البرق وأمعنت فيها ضرباً ولكماً ، مزقت ثيابها وانتزعت من مكان خفي في جسدها رسالة مخفية وأنشبت يديها في خناقها وتركت آثار اظفارها على يديها وهي تعاني رغبة جامحة في اذاقتها ذل الدعارة المقيت . وأثناء المقاومة الضعيفة التي أبدتها ماري حيال تلك المرأة الفاجرة تقطعت ازرار معطفها فسقط عن جسمها كما انحل رباط شعرها فتبعثر وسقط على وجهها .
امتقع وجه الفتاة المسكينة بحمرة الخجل وخطت الدموع دروباً على خديها وزادت في اضطرام عينيها، ثم وقفت وهي ترتجف امام الضيوف في منظر مؤثر يدفع حتى القضاة الى الحكم ببراءتها بمجرد النظر الى اوجاعها وهوانها.
كان وقع هذه الكراهية سيئاً الى حد ان مدام دو غوا لم تجد أذناً صاغية عندما صرخت ، سكرى بخمرة النصر :
ـ أرأيتم ايها السادة ؟ هل افتريت على هذه المخلوقة الفظيعة ؟
ـ ليست فظيعة الى هذا الحد، قال الضيف الجسيم مثير هذه الكارثة. واضاف:
ـ ما احبها الي من فظيعة !
واردفت المرأة الطاغية قائلة :
ـ اليكم مضمون امر موقع بامضاء لابلاس ومصادق عليه من قبل دوبوا .
لدى سماع هذين الاسمين رفع الجميع رؤوسهم ، وتابعت مدام قراءة الامر :
« على المواطنين الضباط العسكريين من جميع الرتب والدرجات اداريين ونائبين عامين ونقابيين الخ ... في اقاليم الثوار وبنوع خاص في الأماكن التي

يرتادها المركيز دو مونتوران رئيس قطاع الطرق الملقب بالـ « غار » ان ينجدوا ويعاونوا المواطنة ماري دو فرنوي وان ينفذوا اوامرها كل بحسب نطاق عمله الخ . »

وزادت على ذلك قولها :

ـ ابنة الاوبرا تتخذ اسماً شهيراً تغطي به عهرها .

وقال البارون دو غونيك ساخراً .

ـ لا تعادل بين الفريقين اذا كانت الجمهورية تستخدم جميلات من هـذا العيار ضدنا .

ـ ولا سيما فتيات بلا رصيد .. قالت مدام دو غوا .

ـ كيف ؟ سأل الفارس دو فيسار ، ان الآنسة تملك مزرعة كبيرة تدر عليها مالاً وفيراً .

وقال الأب غودن :

ـ قد تكون الجمهورية تحب الضحك بارسالها لنا فتيات هوى للمتعة .

مدام دو غوا : ولكن ، مع الاسف ، فالآنسة تبحث عن ملذات قاتلة .

وقالت الضحية وهي تنهض بعد ان اصلحت بعض زينتها :

ـ كيف بقيتِ على قيد الحياة الى الآن يا مدام ، (ولم تقتلك ملذاتك ..) ؟

هذه الاهانة الجارحة اتخذت طابع الاحترام لضحيـة فخورة ، وفرضت الصمت على الجمعية ، ولمحت مدام دو غوا ابتسامة ساخرة على شفاه الزعماء الملكيين ، فخافت . وقبل ان ترى المركيز والكابتن في طريقهما الى ردهـة الاجتماع ، نادت على بيل ميش وقالت له وهي تشير الى الآنسة دو فرنوي :

خذها ، انها نصيبي من « الجبنة » اهبها لك ، اصنع بها ما تشاء .

ما كادت المرأة تتلفظ بهذا الكلام حتى اضطرب جميع من في الصالة . فقد ظهر من وراء ظهر المركيز رأسا مارش آتير وبيل ميش وبهما انجلى العقاب بابشع مظهر .

في الزاوية وقفت فرانسين جامعةً يديها كأنها تصلي صامتة جامدة كأن على

رأسها الطير . ولما استعادت الآنسة دو فرنوي وعيها ، ألقت نظرة جافة على المجتمعين ، وبازدراء وكبر اخذت الرسالة من يد مدام دو غوا وانطلقت نحو الباب حيث رأت المركيز واقفاً كالتمثال فاقداً مروؤة الدفاع عنها في محنتها هي الجريحة الكرامة الكارهة للحياة .

هذا الرجل الذي وهبته قلبها سمع الاهانات التي وجهت اليها وشهد التنكيل الذي لحق بها ولم يهرع لنجدتها او يعمل شيئاً من اجلها ، قد يمكن ان تغفر له مهما أساء اليها .. انما امتعاضها كان يفوق حد التصور بسبب رؤيته إياها في حالة زريةمن الذل والهوان.. رمته بنظرة ملؤها الحقد والكراهية لأنها شعرت فيهذه اللحظة بميل جامح لانتقام رهيب يتولد في قلبها . رأت الموت وراءها فهبت في رأسها عاصفة من الجنون وغلى الدم في عروقها وتوهمت العالم بأسره شعلة من نار ، وعندئذ ، بدلاً من ان تقتل نفسها ، تناولت السيف وطعنت به المركيز . إلا ان الطعنة جاءت بين الذراع والخاصرة ، وكان ان قبض« غار » علىمعصمها وجرها خارج الصالة بمساعدة بيل ميش الذي انقض على تلك المخلوقة الهائجة حين حاولت قتل المركيز .

امام هذا المشهد ، أطلقت فرانسين صرخة مدوية :

ـ بيار !! بيار ؟! بيار ! ولحقت بسيدتها .

اما المركيز ، فقد ترك المجتمعين في حيرة وخرج الى الردهة وهو لا يزال ممسكاً بيد المرأة ضاغطاً عليها بحركة تشنجية فيما اصابع بيل ميش المتوترة تكاد تخترق العظم ، ومع ذلك لم تحس بغير يد الرئيس الشاب الذي نظرت اليه ببرود وقالت له :

ـ انك تؤلمني. وكان جوابه ان تأمل طويلاً في وجه عشيقته التي قالت له :

ـ اعندك شيء للثأر بنذالة كما فعلت تلك المرأة ؟

واذ رأت جثث الجنود ممددة على القش ، ارتعدت وقالت بسخرية مميتة ..

ايه ! ايه ! ما اجمله من يوم !! هذا هو وعد نبيل وقسم شريف !..

ـ أي نعم ، يوم جميل ... وبلا غد . قال المركيز ذلك وترك يد الآنسة

دوفرنوي بعد ان زود بنظرة اخيرة تلك المخلوقة الرائعة الجمال التي كاد يعجز عن التخلي عنها . لم يشأ أي من الحبيبين المتكبرين ان يلين امام الآخر . ربما كان المركيز يتوقع دمعة . إلا ان عيني الفتاة أمسكتها باباء وغطرسة، فاستدار بحدة تاركاً لبيل ميش فريسته ، فقالت له :

ـ الله يصغي الي يا مركيز ، اطلبُ منه تعالى لك يوماً بلا غد !

تحير بيل ميش وارتبك حيال فريسته الجميلة وقادها برفق ممزوج بالاحترام والسخرية . فتنفس المركيز الصعداء ودخـل القاعة عارضاً على الضيوف وجهاً شبيهاً بوجه ميت مفتح العينين .

لم يجد ممثلو هذه المأساة تفسيراً لوجود الكابتن ميرل بينهم، فراحوا يتأملونه باستغراب مستشيرين بعضهم البعض بالنظر . واذ لاحظ ميرل دهشة الناعقـين حوله خاطبهم دون ان يخرج عن طبعه المرح انما بابتسامة مريرة قائلاً :

ـ لا أظنكم ايها السادة ترفضون كأساً من النبيذ من رجل في آخر مرحلة من حياته .

في هذه اللحظة ظهر المركيز ثانية في الصالة بوجهه الشاحب ونظره التائه ، فابتدره ميرل بقوله :

ـ سوف ترى كيف يجر الميت الاحياء .

فقال المركيز بحركة المستيقظ من سبات :

ـ هوذا انت مستشاري الحربي العزيز . قال ذلك وعرض زجاجـة النبيذ ليملأ كأسه فشكره ميرل بقوله :

ـ شكراً ايها المركيز المواطن قد اخرج عن الوعي .

تجاه هذه البادرة ، خاطبت مدام دوغوا المدعوين بقولها :

ـ لنؤمن له الحلوى .. فأجابها الكابتن :

ـ انك فظيعة في انتقاماتك يا مدام، انسيت ان صديقي القتيل في انتظاري ولا يمكنني ان اخلف موعدي معه ؟

وهنا تدخل المركيز وقال له وهو يرميه بقفازه .

ـ اليك بهذا الجواز ، فانت حر طليق . ان قناصي الملك يعرفون انه لا يجوز قتل جميع حيوانات الغابة .

ـ أأنطلق حياً ؟ ولكنك تخطىء . انني سأجدّ في طلبك ولن ارحمك . قد تكون ماهراً ولكنك لا تساوي جيرار ، ورأسك لا يتساوى مع رأس جيرار لكنني اطلبه وسأحصل عليه .

ـ أكان على عجل من امره الى هذا الحد !

ـ الوداع ، يمكنني ان اشرب الكأس مع جلاديّ ، لكن لا اريد البقاء مع قاتلي صديقي . قال الضابط ميرل ذلك وخرج وسط دهشة المدعوين .

وهنا طرح الغار ببرود على المدعوين السؤال التالي :

ـ ما رأيكم ايهـــا السادة ، بالقضاة والجراحين والمحـامين الذين يسوسون الجمهورية ؟

فأجاب الكونت دو بوفان :

ـ انهم قوم بلا اخلاق ولا تهذيب وهذ احدهم يستهين بنا .

كان لانسحاب الضابط ميرل سبب خفي. فتلك المخلوقة المهانة المحطمة التي قد تكون ماتت او كادت، قد تركت في نفسه اثراً لا ينتسى . وقد قال في نفسه وهو خارج :

« اذا كانت من بنات الهوى فهي ولا شك بنتٌ فوق العادة وسأجعل منها زوجة لي » .

كان ضعيف الامل بتخليصها من ايدي جلاديها، ومع ذلك عقد النية على انتزاعها ووضعها تحت حمايته. ولكن، مع الاسف ، حين وصل الى الشرفة رأى الساحة خالية . نظر حول المكان فلم ير احداً . اصاخ السمع ، فلم يسمع سوى قهقهات الناعقين في البساتين يعاقرون الخمرة . وخاطر بالتجول في الجناح المشؤوم حيث اعدم الجنود الجمهوريون ومن هذا المكان ، وعلى ضوء الشموع البعيد استطاع ان يميز مختلف تشكيلات قناصة الملك . لم يجد بينهم لا بيل ميش ولا مارش آتير ولا فرانسين ولا عرف مكانهم انمـــا ، في هذه اللحظة ، شعر بيد تشده برفق

من سترته واذ التفت، شاهد فرانسين جاثية على ركبتيها فسألها على الفور :

– اين هي ؟

– لست ادري ، لقد طردني بيار وطلب مني ألا اتحرك من مكاني .

– من أي جهة ذهبوا بها ؟

– من هنا ... ودلته على الطريق المعبّدة .

لاحظ الضابط وفرانسين في الاتجاه انعكاس ظلال على سطح مياه البحيرة في ضوء القمر وتعرفا الى تكاوين نسائية خفق لها قلبهما وان بدت غير واضحة ، وقالت الفتاة البريتونية :

– انها هي .

ظهرت الآنسة دوفرنوي واقفةً وسط بضعة اشخاص تبين منحركاتهم انهم في نقاش وخصام ، فقال الضابط :

– هناك عدة اشخاص ، ولكن ، لا بأس ، هيا بنا .

– انك تعرض نفسك للموت بلا فائدة ، قالت فرانسين .

– لقد مت مرة اليوم !

ومشى الاثنـــان نحو البوابة التي جرى المشهد وراءها . وفي وسط الطريق توقفت فرانسين عن متابعة السير وقالت :

– كلا ، لن ابتعد عن هنا ، لقد قال لي بيار ان لا اتدخل ، وإلا افسدنا كل شيء ، افعل ما تشاء يا سيدي الضابط على ان تبتعد عني ، اذا رآك بيـــار يقربي قتلك .

في هذا الوقت ظهر بيل ميش خارج البوابـــة ، استدعى الحوذي المقيم في الاصطبل ، وفجأة لحظ الضابط فصرخ وهو يسدد بندقيته نحوه :

– يا جنة القديسة . لقد كان المدير على حق حين قال لنا ان الزرق يوقعون المعاهدات مع الشيطان ، مهلاً ، مهلاً ، سأبعثك حيا !

واذ رأى ميرل الخطر يتهدده صرخ قائلاً :

– مهلاً ، حياتي مؤمّنة ، هوذا قفاز رئيسك .

– أي نعم ! الارواح تتكلم ، اما انا فلن اضمن حياتك . قال ذلك واطلق الرصاص وأصاب رأس الضابط الذي سقط على الفور .

وحين اقتربت فرانسين من الضابط سمعته يتمتم هذه الكلمات:

– « أحب الي البقاء معهم من ان اعود دونهم » .

وانقض الناعق على جثة القتيل ليعريه من ثيابه وهو يقول :

– من حسن الحظ ان هؤلاء الاشباح العائدين الى الحياة يبعثون احياء بثيابهم.

واذ رأى القفاز ، بيد الضابط ، وقف مذهولاً ، وقال :

– ليت امي لم تلدني ! ثم اختفى بسرعة العصفور .

لفهم هذا اللقاء المشؤوم بالنسبة للضابط، ينبغي ان نتبع الآنسة دو فرنوي منذ ان سلمها المركيز الى بيل ميش ، فقد أمسكت فرانسين بذراع مارش آتير وطالبته باكية بالوعد الذي قطعه لها. وعلى بعد بضع خطوات شوهد بيل ميش يجر ضحيته وراءه كما يجر اي حمل ثقيل، وما ضحيته سوى ماري التي التفتت نحو البحيرة لتجد نفسها في قبضة فولاذية وارغمت على اتباع الناعق الذي كرر التفاتاته نحوها ليجبرها على حث الخطى وفي كل مرة يلتفت نحوها كانت تساوره فكرة سارة تترك على شفتيه ابتسامة مقيتة وقد هتف بصفاقة قائلاً :

– انها بنت نفيسة حقاً .

سمعت فرانسين هذا الهتاف فانحلت عقدة لسانها :

– بيار ؟

– ماذا ؟

– اتراه سيقتل الآنسة ؟

– ليس في الحال . أجاب مارش آتير .

– ولكنها لن تدعه يفعل .. واذا ماتت مت انا وراءها .

– اراك تحبينها كثيراً ، فلتمت .

– اذا كنا اغنياء وسعداء فالفضل في ذلك يعود اليها ، ولكن لا بأس ، الم تعدني بانك ستمنع عنها كل اذية ؟

- سأحاول ولكن ، ابقي هنا ، ولا تتحركي .

وفي الحال افلتت ذراع مارش آتير ، وبعد قليل رأت فرانسين مارش آتير ينضم الى رفيقـــه الذي كان يدفع الضحية للصعود الى العربة ، وسمعته يقول له :

- ماذا ستفعل بكل هذا ؟

- لقد وهبتني « الست الكبيرة » هذه المرأة وكل ما لها فهو لي .

- حسناً ، بالعربة تحصل على المال ، ولكن المرأة ؟ انها ستنقض عليـــك كالهرة .

قهقه بيل ميش ضاحكاً وقال :

- احملها الى بيتي واوثقها .

- حسناً ، فلنقطر الجياد .

بعد قليل صعد بيل ميش الى العربة وجلس دون ان يلحظ ان الآنسة دو فرنوي تستعد لالقاء نفسها في المستنقع فناداه مارش آتير :

- هيه يا بيل ميش !

- ماذا ؟

- سأشتري منك كل غنيمتك .

- أتهزأ ؟ قال الناعق وهو يسحب أسيرته من « تنورتها » كما يفعل اللحام بالثور الذي يحاول الهرب .

- دعني أراها فأقول لك الثمن .

وأرغمت الفتاة التعسة على النزول من العربة ووقفت بين الناعقين اللذين راحا يتأملانها بشراهة ، وبعد ان اطلق مارش آتير زفرة عميقة قال لبيل ميش :

- أتقبل ٣٠ ليرة رزقاً حلالاً لك ؟

- احقاً ؟ قبلت ، انها تساوي هذا المبلغ ، ولكن العربة لمن تكون ؟

- لي ، اجاب مارش آتير بصوت رهيب ينبيء بالسيادة التي تفرضها شراسته على جميع رفاقه .

- ولكن ، ماذا اذا كان في العربة ذهب ؟

– ألم تقل انك قبلت ؟

– اجل .

– اذن اذهب واستدعِ الحوذي الموجود في الاصطبل .

– ولكن ، ربما كان في العربة ذهب .

– هل في العربة ذهب ! سأل مارش آتير الآنسة دوفرنوي .

– فيها مئة ليرة لي .

تبادل الناعقان النظر ثم دنا بيل ميش من اذن مارش آتير وأسرّ قائلاً :

– لن نتقاتل من اجل امرأة من الزرق ، لنلقها في البحيرة بعد ان نربط في عنقها حجراً ولنتقاسم المئة ليرة.

– اعطيك المئة ليرة من نصيبي من فدية دورجمون ، قال مارش آتير وهو يكتم زفرة لهذه التضحية ..

أطلق بيل ميش هتاف الاستحسان وهرع ليأتي بالحوذي . وكان سروره طالع شؤم على الضابط التعس الذي التقاه في الطريق وقتله كما ورد .

وبسماعه الطلق الناري هرع مارش آتير الى المكان حيث وجد فرانسين جاثية ويداها مضمومتان تصلي قرب جثة الضابط ، فابتدرها بقوله :

– اسرعي الى سيدتك ، لقد نجت !

وذهب بنفسه في طلب الحوذي وعاد باسرع من البرق ، واثناء مروره ، مرة اخرى ، أمام جثة ميرل شاهد قفاز الغار في قبضة الميت فصرخ :

– آه ! آه ! لقد اطلق بيل ميش رصاصة الخيانة . لم يكن واثقاً من انه يعيش من مداخيله ، فقتل لينهب !

انتزع القفاز وقال للآنسة دو فرنوي التي كانت قد جلست في العربة مع فرانسين :

– اليك بهذا القفاز ، فاذا هاجمكما احد من رجالنا اصرخي :

– هيه الغار ! واعرضي هذا الجواز فلا يصيبك اذى .

والتفت نحو فرانسين وقال لها وهو يشد يدها :

– ها قد تصافينا مع هذه المرأة ، تعالي معي ودعيها وشأنها .

فأجابته بصوت كئيب !

– اتريدني ان اتخلى عنها الآن ؟

حك مارش آتير جبينه واذنيه . ثم رفع رأسه وكشف عن عينين غضوبتين تعبران عن شراسته وقال :

– الحق معك ، سأتركك معها لمدة ثمانية ايام ، فاذا انقضت هذه المدة ولم تكوني معي ... لم يكمل كلمته ، انما خبط يده على بندقيته مصوباً فوهتها نحو سيدتها مهدداً ثم انسحب دون ان يطلب جواباً .

وما كاد الناعق يسير في طريقه حتى سمعت الفتاتان صوتاً عميقاً كأنه من اعماق المستنقع ينادي :

– مدام ، مدام ..

ارتجف الحوذي والمرأتان من شدة الخوف . فقد طفت بعض الجثث حتى ذلك المكان . وظهر احد الرجال الزرق ، وكان مختبئاً وراء شجرة وقال :

– دعوني أختبىء في صندوق العربة حتى لا اقتل. فكأس الخمرة الملعونة التي شاء «لاكلي دوكور» ان يشربها كلفت أكثر من ضحية، ولو انه اقتدى بي وتحايل لما طافت جثث هؤلاء الرفاق فوق المياه .

فيما كانت هذه الاحداث تجري في الخارج ، كان الرؤساء القادمون من فانده ورؤساء الناعقين يتذاكرون والكأس في اليد ، برئاسة المركيز دو مونتوران . وبتأثير الخمرة المعتقة تطور النقاش في آخر الوليمة وتحول الى خصام . فأثناء تناول الحلوى ، وفي الوقت الذي تقررت فيه خطة العمليات الحربية ، شرب الملكيون على صحة الـ «بوربون» ، وفي هذه اللحظة دوت رصاصة بيل ميش التي أطلقها على ميرل كصدى لحرب وبيلة يضمرها هؤلاء المتآمرون ضد الجمهورية . ارتعشت مدام دو غوا ابتهاجاً لمجرد تفكيرها بأنها تخلصت من غريمتها ، وتبادل

المدعوون النظرات بصمت ونهض المركيز عن المائـــدة وخرج ، فقالت مدام دو غوا بسخرية .

– لقد كان يحبها ، اذهب وكن برفقتــه يا سيد فونتين ، ان تركناه لهمه فسيصبح كئيباً عبوساً اشد ازعاجاً من الذباب .

قالت مدام دو غوا ذلك وأطلت من النافذة على الساحة لترى جثـــة ماري ، ومن هنا استطاعت ان تميز من خلال اشعة القمر العربة المنسابة بسرعة فائقة بين بساتين التفاح . لقد كان شال الآنسة دوفرنوي يلوح خارج العربة في الهواء . امام هذا المشهد ، اهتاجت فتركت الاجتماع حانقة ، وشوهد المركيز متكئاً على الشرفة ، غارقاً في تأملات قاتمة وهو يرى نحواً من مائة وخمسين ناعقاً عادوا بعد ان تقاسموا الغنيمة ، ليقضوا على آخر نقطة خمر ، وعلى آخر رغيف من الارغفة المخصصة للزرق . هؤلاء الجنود الذين تعقد عليهم الملكية الآمال ، كانوا يشربون الخمرة معاً ، فيما كان سبعة او ثمانية جنود على الضفة المواجهة للشرفة يتلهون بربط الحجارة في اعناق جثث الزرق وقذفها الى اعماق البحيرة .

هذا المشهد وغيره من المشاهد ، التي تمثل الاعمال التي كان يقوم بها هؤلاء المحاربون المتهادون ببدلاتهم الغريبة كانت جديدة وفريدة بالنسبة للسيد دو فونتين الذي كان قد اعتاد رؤية الثوار الملكيين في فانده على أتم ما يكون من النظام والنبل والانضباط ، اغتنم هذه الفرصة ليقول للمركيز دو مونتوران :

– ماذا عساك تأمل من هؤلاء الاغبياء ؟

– لا شيء يستحق الذكر . اليس كذلك يا عزيزي الكونت ؟

– هل يستطيعون القيام باي مناورة حيال الجمهوريين ؟

– كلا .

– هل يفهمون وينفذون اوامرك على الأقل ؟

– كلا .

– واي فائدة لك منهم اذن ؟

– ان اغمد سيفي في صدر الجمهورية ، ان احصل بواسطتهم على فوجـــير بثلاثة ايام وعلى بريتانيا باكملها بعشرة ايام. واضاف بصوت عذب:

ـ هيا يا سيدي، اذهب الى فانده، وليزحف دوتيشان وسيزانه والأب برنيه بسرعة كسرعة زحفنا ، على ألا يتفاوضوا مع القنصل الاول كما قيل لي . ثم قال وهو يصافح الكونت :

ـ سنكون في مدى عشرين يوماً على بعد ثلاثين فرسخاً من باريس .

ـ ولكن الجمهورية تهاجمنا بستين الف رجل وعلى رأسهم الجنرال برون .

ـ بستين الف رجل؟ اصحيح ماتقول ؟ وماذا تركت لبونابرت لحملة ايطاليا؟ اما من جهة الجنرال برون ، فانه لن يأتي ، فقد وجهه بونابرت ضد الانكليز في هولندا واحل محله هنا الجنرال هيدوفيل صديق صديقنا بارا . اتفهمني ؟..

لدى سماعه هذه الكلمات حدج السيد دو فونتين المركيز بنظرة عميقة كأنه يلومه على ابهامه بعدم فهم الكلمات المبطنة التي وجهها اليه وعندها تفاهم النبيلان الا ان الرئيس الشاب اجاب بابتسامة طويلة على الافكار التي عبر عنها دو فونتين بنظرته بقوله :

ـ هل تعرف اسلحتي ؟ شعاري في الحياة هو :

ـ « المثابرة حتى الموت » .

واخذ الكونت دو فونتين يد مونتوران مصافحاً وقال :

ـ لقد تُركت وانا مشرفٌ على الموت في « كاتر شيمان » . فلا ترتب بي ، بل ثق بخبرتي ، لقد تغيرت الاحوال .. وهنا تدخل لا بيلارديير وقال :

ـ انك شاب ايها المركيز ، اصغ الي ، الم تُبِع املاكك ...

ـ هل هناك اخلاص بدون تضحية ؟

ـ هل تعرف الملك ؟

ـ أجل .

ـ انك تعجبني .

واردف المركيز قائلا :

ـ الملك هو حامي العقيدة وانا اقاتل من اجل العقيدة والايمان .

وتفرق الجميع . اقتنع الكونت دو فونتين بضرورة التريث حيال الاحداث مع الاحتفاظ بالايمان في القلب. وذهب لابيلارديير ليعود الىانكلترا ومونتوران

ليقاتل بضراوة وليحمل سكان فانده على التعاون معه في العمليات الحربية معتمداً على الانتصارات التي يحلم بها .

هذه الاحداث أثارت الكثير من الانفعالات في قلب الآنسة دوفرنوي فارتمت شبه ميتة داخل العربة وهي تشير للحوذي بالذهاب الى فوجير . ولما كان الحوذي يخاف من مغامرة جديـدة أسرع السير على الشارع الكبير فوصل بعد حين الى قمة البلرين .

اجتازت ماري دوفرنوي وسط ضباب الصباح وادي كويسنون حيث بدأت هذه القصة . ومـن أعالي البلرين رأت الصخرة التي تقوم عليها مدينة فوجير ، واذ شعرت ماري بقرصة البرد ، تذكرت ذلك الجندي المسكين الذي كان مختبئاً خلف العربة فألحت عليه ، رغم رفضه ، ان يجلس بالقرب من فرانسين ، إلا ان منظر فوجير غيّر مجرى تفكيرها مؤقتاً .. المهم في الامر ان المخفر على مدخل سان ليونار يمنع المجهولين من دخول المدينة ، ولذلك تحتم عليها ان تبرز بطاقتها الوزارية وبذلك وجدت نفسها في مأمن من كل اعتداء وهي تدخل المكان حيث السكان كانوا هم المدافعين الوحيدين عن المدينة . ولم يجد لها الحوذي مأوى أفضل من نزل المخفر . وهنا قال الازرق الذي خلصت حياته من الموت للآنسة دوفرنوي :

– يا سيدتي ، اذا احتجتِ يوماً ما الى تسديد ضربة قاتلة الى أي وقح فحياتي لك . انني في امان هنا . اسمي جان فالكون الملقب بـ « بوبيه » ، رقيب في فرقة الارانب التابعة لهولو ، الطابور الثـاني والسبعون المسمى « الماينيز » . اصفحي ياسيدتي عن غروري وجرأتي ، إلا أنني لا املك ما اقدمه لك سوى نفسي . قال هذا واستدار على عقبيه ومشى وهو يصفر فقالت ماري لنفسها :

– بقدر ما نتوغل في المجتمع بقدر ما نصادف عواطف نبيلة مجردة ، هوذا مركيز يميتني لأني وهبته الحياة ، ورقيب بسيط ... ولكن لندع كل ذلك جانباً .

حين أوت الباريسية الحسناء الى سريرها الدافىء انتظرت خادمتها الامينة كلمة تحبب اعتادتها من سيدتها ولكن بدون جدوى ، واذ رأتها ماري واقفة قربها قلقة البال قالت لها والغصة في القلب :

– ويسمون هذا نهاراً يا فرانسين !! اراني هرمت بهذا اليوم الواحد عشر سنوات .

في صباح اليوم الثاني حضر كورنتان فأذنت له ماري بالدخول قائلة لفرانسين:

– آلام نفسي فوق مستوى الوصف يا فرانسين ، حتى لم تعد رؤية كورنتان تؤثر بي .

ولكنها ، بمجرد رؤيتها هذا الرجل عانت ، وللمرة الالف ، كراهية غريزية له لم تتمكن معرفة سنتين ان تلطفها.

قال كورنتان :

– لقد بت موقناً بالنجاح .. واذن ، لم يكن « هو » الذي أمسكته !.

فأجابته ماري ببطء وألم :

– لا تحدثني يا كورنتان عن هذه القضية إلا اذا تحدثت انا عنها اولاً .

وراح الرجل يتمشى في الغرفة ملقياً على الآنسة دو فرنوي نظرات فاحصة محاولاً استجلاء خفايا أفكارها وقال لها بعد فترة سكوت :

– لقد توقعت هذا الفشل ، اذا شئت ان تجعلي مقر قيادتك العامة هنا فقد جمعت المعلومات اللازمة ، نحن هنا في قلب وكر الناعقين ، فهل تريدين البقاء هنا؟

اجابت بحركة ايجابية من رأسها أتاحت لكورنتان ان يتبيّن تخمينات سابقة ، بعضها صحيح ، عن الاحداث التي جرت في النهار فقال لها :

– استأجرت لك بيتاً لم يجرؤ احد على بيعه لأنه يخص مهاجراً صعب المراس. وهو قائم قرب كنيسة القديسة ليونارد يطل على مناظر جميلة ، يمكن الاستفادة من هذه « الزريبة » فهي صالحة للسكن ، فهل تذهبين ؟

– في الحال .

– ولكن ، يلزمني بضع ساعات من الوقت لأرتب وأنظف البيت لكي تجدي كل شيء على ما يروقك .

– لا بأس ، اسكن في الدير او في السجن بكل طيبة خاطر ، انما احرص على ان تجعلني ، هذا المساء ، ارتاح في عزلة تامة . هيــا اذهب ودعني وشأني.

وجودك يسبب لي ضيقاً في الصدر . بودي ان اختلي بفرانسين ، يمكنني ان اتفاهم معها اكثر مني مع نفسي ، مع السلامة .. هيا ، اذهب .. اذهب .

تدافعت كلماتها بسرعة الى شفتيها بمزيج من الاستبداد والتحبب والألم ، ونمت في الوقت ذاته عن سكينة تامة ، اذ لا بد للنعاس من ان يكون قد صنف على مهل انطباعاتها لليوم السابق الذي زين لها الانتقام وان كانت بعض التعابير الغامضة ما فتئت تعلو وجها ، فذلك لانها ما برحت تستنجد بجاسة خفية فيها لدفن اقدس العواطف في النفس بتلك المداجاة التي تسمح بالابتسام عند تقدير الخسائر التي حلت بضحايا تلك العواطف .

لقد اختلت بنفسها منشغلة في البحث عن كيفية اعادة المركيز اليها حياً يرزق. لأول مرة تعيش هذه المرأة رغباتها ، ولكن ، من هذه العيشة لم يبق لها سوى أمنية واحدة هي الثأر ، ثأر غير محدود ، ثأر ناجز بات ، ذلك كان همها الوحيد وشهوة قلبها الفريدة .

تكلمت فرانسين ولكن كلماتها لم تلق جواباً من ماري التي بدت نائمة وعيناها مفتوحتان . وانتهى ذلك النهار الطويل دون ما حركة او عمل يشير الى نطاق ماري الخارجي ، لقد ظلت نائمة إلا انها أطلقت في المساء هذه الكلمات وهي تنظر الى فرانسين :

– يا صغيرتي ، امس فهمت ان الانسان يعيش للحب ، واليوم ادركت ان بامكان الانسان ان يموت من اجل الثأر ، اجل ، من اجل البحث « عنه » حيث يكون ، ومن اجل لقاء جديد ، ومن اجل اجتذابه الي ، ابذل حياتي. ولكن ، اذا لم اجده في مدة بضعة ايام ، جاثياً على قدمي ذليلاً خاضعاً ، ذلك الرجل الذي احتقرني ، اذا لم اجعل منه خادماً لي ، فسأكون دون كل شيء ، لن أكون امرأة ولن اكون انا نفسي .

البيت الذي اقترحه كورنتان على الآنسة دو فرنوي احتوى على جميع اسباب الرفاهية والأناقة المتأصلة في تلك الأبنية ، فقد ضمنه كورنتان كل ما يرضيها ، برغبة الحبيب المتودد لحبيبته او بعبودية رجل مقتدر يحاول ارضاء مرؤوس محتاج

اليه .. وغداة اليوم الثاني جاء يقترح على الآنسة دوفرنوي الذهاب الى ذلـك الفندق المرتجل .

في هذا المنزل لم يتغير شيء على الآنسة دو فرنوي سوى انها استبدلت من الفراش الخشن فراشاً مريحاً على « صوفا » اثرية جميلة ، اما سائر ما اعده كورنتان لهـا من اسباب الراحة ، والترفيه ، فقد كان مألوفاً عندها ولم تر فيه شيئاً جديداً . ويبدو ، وكأن ثمة حلماً جعلها تتجاوب مسبقاً مع هذا البيت الذي سكنته بحقدها وكان بامكانها ان تسكنه بحبها . فقالت :

– على الاقل لم احرك فيه شيئاً لتلك الشفقة المهينة التي تقتل ، ولست مدينة له بالحياة .. وبتلهف اليائس الطعين هتفت من اعماقها :

– آه !! يا حبي الاول والاخير والوحيد ، اي فراق هو هـذا ! واندفعت نحو فرانسين ملتاعة وقالت :

– هل تحبين ؟ أي نعم تحبين ، لقد تذكرت ، انا سعيدة لكوني اعيش مع فتاة تفهمني ، آه يا حبيبتي فرانسين ألا يبدو لـك الرجل مخلوقاً فظيعاً ؟ ايه ! قال انه يحبني ! لم يثبت امام اتفه التجارب ، ولكن ، لو ان العالم بأسره رفضه ، فله قلبي مأوى ، ولو ان العالم كله اتهمه بفرية ، لدافعت عنه . بالأمس كنت أرى العالم مليئاً بالمخلوقات ، تروح وتجيء دون ان احفل بها . لقد كان العالم حزيناً بنظري وليس مخيفاً ، اما الآن ... ما هو الكون بدونـه ؟ هو ، اذا ، يعيش بعيداً عني بعيداً عن نظري ، لا اكلمـه ولا اشمه ولا ألمسة ولا أضمه ... آه ! سأخنقه وهو نائم ...

وهنا تأثرت فرانسين . وبعد ان تأملت سيدتها ملياً قالت لها :

– أتقتلين الرجل الذي تحبين ؟

– طبعاً ، اذا عاد لا يحبني .

وبعد ان تلفظت بهذا الكلام خبأت وجهها بيديها وجلست صامتة .

وفي اليوم التالي مثل امامها فجأة رجل لم يعلمها عن قدومه قبلاً ، رجل بوجه صارم هو هولو . تطلعت فيه وارتجفت :

– أأتيت لتسألني عن اصحابك ؟ لقد ماتوا . فأجاب :

– لقد عرفت ، انهم لم يموتوا في خدمة الجمهورية .

– لقد ماتوا من اجلي وبسببي. انك ستكلمنيعن الوطن ، فهل يعيد الوطن الحياة للذين يموتون من اجله ؟ هل ينتقم لهم على الاقل ؟ سأنتقم لهم ، صرخت بعنف . واذ تدافعت في مخيلتها صور قاتمة عن تلك الكارثة الرهيبة جن جنونها ومشت بخطوات متعثرة نحو القائد وقالت :

– من اجل بضعـة جنود ذبحوا ، سأضع تحت شفرة المقصلة رأساً يساوي ألوف الرؤوس . ان النساء قلما يحاربن، ولكن ، بامكانك، مهما كنت متقدماً في السن ان تتعلم في مدرستي اصول المبادىء الحربية، سأسلم لرماحك أسرةً بكاملها: مستقبله وماضيه وآباءه وأجداده. وبقـــدر ما كنت رحيمة وصادقة معه ، ساكون ماكرة وكاذبة . اجل ايها القائد ، ساستدرج هذا النبيل الى فراشي ليخرج منه مكبلاً الى الموت، وبذلك لن يكون لي منافسة ... لقد حكم الشقي على نفسه بنفسه حين قال : « يوم بلا غد » . ساثأر للجمهورية ولنفسي.

وكررت كلمة للجمهورية بلهجة ارعبت هولو واردفت :

– سيموت الشاب اذا حمل السلاح ضد البلاد؟ ستسلبني فرنسا ثأري الخاص! آه ما أهون الحياة! لا يمحو الموت سوى جريمة. ولكن، اذا لم يكن لهذا الرجل سوى رأس واحد ليقدمه . سيكون لي معه ليلة اجعله يفكر انه يخسر أكثر من حياته.. وعلى كل ايها القائد، انت الذي ستقتله . وأطلقت زفرة عميقة وقالت:

– احرص ألا يتسرب اليه شيء عـن خيانتي ، دعه يموت مقتنعاً بأمانتي . هذا كل ما اطلبه منك . دعه يموت وهو يفكر بي وحدي .

قالت ذلك وصمتت. ولكن كورنتان وهولو لاحظا من خلال امتقاع وجهها ان الغضب والهذيان لم يطفآ فيها جذوة الحياء العذري . فقال لها كورنتان :

– ولكنه كان بين يديك .

– هذا ممكن ، اجابت بمرارة . وقال لها هولو :

– لمَ منعتني حين اردت القبض عليه ؟

– هه أيها القائد ، لم نكن نعلم انه هو بالذات .

وفجأة هدأ روعها وسكنت عاصفة غضبها وقالت باصرار عنيد :

– لمَ كثرة الكلام ؟ ينبغي ان اذهب للبحث عنه !

– للبحث عنه ؟ كرر القائد هولو وأردف :

– احترسي لنفسك يا عزيزتي ، لسنا سادة الارياف ، فـان غامرت بالخروج من المدينة فقد تموتين على مسافة مئة قدم منها .

– ليس هناك مخاطر على الذين يسعون للانتقام، اجابت ماري بحركة استخفاف وازدراء لتطرد من امامها هذين الرجلين اللذين تخجل من رؤيتها معها .

– أي امرأة هي هـذه ! ، قال هولو وهو ينسحب مع كورنتان ، واضاف وهو يهز برأسه :

– ولكنها لن تسلمه ابداً .

– بل ستفعل ، قال كورنتان .

– ألا ترى انها تحبه ؟

– ولهذا السبب ستسلمه. سوف أمنعها عن ارتكاب الحماقات ، ففي شريعتي أيها الرفيق ، ليس من حب يضاهي ثلاثمائة ألف فرنك .

عندما ترك كورنتان القائد العسكري ، شيعه هذا الاخير بنظرة الى ان توارى عن البصر ، واذ ذاك اطلق هولو زفرة وهو يقول لنفسه :

– قد يوجد احياناً سعادة في ألا يكون الانسان سوى حيوان مثلي ، وحق السماء ان لقيت « الغار » لأصطدمن معه في عراك مميت وإلا فلا يكون اسمي هولو ، اذ لو جاء به هـذا الثعلب حياً للمحاكمة لوجدت ضميري قذراً ، اشد قذارة من قميص عسكري سمع الرصاص لأول مرة .

مجزرة فيفتيير والرغبة في الثأر لأصدقائه دفعتا هولو الى استعادة قيـادة الفرقة التي كان قـد قدم استقالته عنها ولم تقبل نظراً للظروف الطارئة ، وقد تلقى بلاغ الرفض من وزير الحربية الجديد برقياً مع كتاب سري يقول له فيه ، دون ان يطلعه على مهمة الآنسة دو فرنوي ، ان الحادث الذي وقـع في فيفتيير

خارج عن نطاق الحرب ولا يجوز ان يقف العمليات الحربيـة ، وقال الوزير في كتابه ان مساهمة الرؤساء العسكريين تقتصر في هـــذه القضية على مساندة « المواطنة المحترمة » اذا اقتضى الأمر .

حين عرف هولو ان حركة الناعقين تقصد الى حشد قواتهم والزحف الى فوجير ، جاء سراً بطابورين من فرقته ، الى هذا الموقع الخطير مدفوعاً بغيرته على الوطن وببغضه للارستوقراطية التي يهدد أنصارها قسماً كبيراً من البلاد .

أما من جهة الآنسة دو فرنوي ، فلم تكد تجد نفسها وحدها بعد خروج هولو وكورنتان حتى هتفت قائلة :

– هذه هي الحيـاة التي تمنيتها ، مهما كانت الساعات قصاراً فهي بالنسبة لي قرون طويلة. وفجأة اخذت يد فرانسين وبصوت مبحوح أطلقت هذه الكلمات:

– ما زلت يا صغيرتي أرى بعين الفكر تينك الشفتين العذبتين وتلك الذقن القصيرة المرتفعـة قليلاً وتينك العينين الملتهبتين ، وما زلت اسمع كلمة « حا ! دي » ! يقولها الحوذي للجياد ، هذا حلم ... ولكن ترى لماذا كل هـذا الحقد في اليقظة ؟

وأطلقت زفرة طويلة ، ثم ، جلست لأول مرة تنعم النظر في بلاد تمزقهـــا الحرب الاهلية التي يغذيها نبيل شاءت ان تهاجمه بمفردها ولنفسها ... أخذت الفتاة بروعة الطبيعة ، فخرجت لتستنشق الهواء الطلق ، وان كانت قد اتخذت طريقاً للمغامرة ، فهي بدون ريب ، قد جنحت الى جادة المدينة منقادة بغرور النفس التي تطلب دائماً الآمال في طي المبهمات .

الفصل الثالث

يوم بلا غد

المنزل الذي تشغله الآنسة دو فرنوي قائم في مكان يسمى برج باغو ، ولهذا البرج قاعدة بالغة العمق ويرتفع حتى ساحة فسيحة تمتد بشكل « كورنيش » امام كنيسة سان ليونارد . ومن هـذا البيت المنعزل نطل ، من الجهات الثلاث ، على قاعدة البرج وعلى وادي نانسون المتعرج وعلى ساحة سان ليونارد . وهو بيت قديم مبني بالخشب وقائم الى الجهة الجنوبيـــة من الكنيسة فيشكل معها زقاقاً تخرجه طريق منحدر يؤدي الى مدخل سان ليونارد ، ومن هذا الطريق المنحدر ذهبت الآنسة دو فرنوي .

أغفلت ماري الدخول الى ساحة الكنيسة التي كانت فوقها واتجهت نحو « جادة النزهة » وعندما اجتازت الحاجز الصغير امام مخفر بوابة سان ليونارد ، سكنت آلام نفسها امام روعة المناظر الطبيعية . تأملت طويلاً في جزء من وادي كويسنون ابتداءً من قمـــة البلرين حتى المنبسط الذي تشقه طريق « فيتري » . ثم حولت بصرها الى « نيدوكروك » والى منعطفات « جيبـاري » ، ووقفت خائفة امام وادي نانسون البعيد الغور .

وسارت الآنسة دو فرنوي من مفاجأة الى اخرى الى ان وصلت الى نقطة استطاعت ان تشاهد منها الوادي الكبير عبر جيباري المطوق ببرج المدينـــة وبصخور سان سولبيس وبمرتفعات ريلي .

في تلك الساعة من النهار كان دخان منازل الضاحية والاودية يشكل في

الفضاء غمامة تحجب معالم الأشياء ونور النهار الصافي يخبو والجو يتخذ لوناً رمادياً لؤلؤياً، والقمر يلقي بشعاعه على الوادي السحيق . كل شيء كان يدفع الى اغراق النفس في بحر من الاحلام ويساعد على تذكر المخلوقات العزيزة .

وفجأة ، احست بنفور من كل شيء ، فلم تعد تحفل بأي شيء من الروائع الطبيعية حولها ، لا السطوح المصفوفة في ضاحية سان سولبيس ولا الكنيسة ذات القبة العالية الضائعة في الوادي ، ولا عشبة الحلبلاب التي تكسو أسوار القلعة القديمة .. وعبثاً حاولت الشمس فتنتها بغبارها الذهبي وبساطها الاحمر على المساكن المبعثرة بين الصخور وعلى المياه وعلى المراعي القريبة . فالأمل الذي قادها الى جادة النزهة، قد تحقق باعجوبة، فقد خيل اليها انها ترى عبر اشجار الشربين والوزّال المتكاثفة على القمة المقابلة عدداً من ضيوف فيفتيير وبينهم « الغار » الذي استطاعت ان تميزه تحت دفقة من شعاع الشمس المتوارية ، ورأت على بضع خطوات من التجمع الاول عدوتها اللدودة مدام دو غوا .

ظلت الآنسة دو فرنوي لبعض الوقت تحسب نفسها في حلم ، إلا ان حقدها على منافستها أثبت لها ان كل شيء فيها يعيش هذا الحلم ، وانصرافها الى مراقبة كل حركة من حركات « الغار » منعها عن ملاحظة مدام دو غوا وهي تعد بندقيتها وتطلق رصاصة رددت اصداءها الجبال .

– انها ترسل لي بطاقة انذار ، قالت ماري باسمة .

وفي الحال دوّى كل ما هو حي في المنطقة ، وقالت ماري في نفسها :

– تلك هي وذاك هو .

ولكنها عزلاء من السلاح، فكيف تنفذ مغامرتها في ملاحقة المركيز واقتفاء أثره ؟ وتذكرت انها تركت في احد صناديقها خنجراً جميلاً كان لإحدى ملكات الشرق ، حملته ماري معها يوم صممت النزول الى ميدان الحرب، ولكن إعجابها بتلك التحفة ذات القبضة المرصعة باللؤلؤ طغى على ميلها لاستخدامه لسفك الدماء . ومنذ ثلاثة أيام افتقدت خنجرها فندمت لتركه في الصندوق ، وذلك حين اعتدت عليها مدام دو غوا وتمنت لنفسها الموت .

وبدون تردد رجعت الى بيتها ، وضعت الخنجر في وسطها ، شدت كتفيها ووسطها بشال كبير .. لفت شعرها بمنديل من الدنتيلا الاسود . غطت رأسها بقبعة ذات أطراف واسعة يعتمر مثلها عادة الناعقون ، كانت قد اخذتها من احد خدام بيتها. واخذت قفاز المركيز الذي جهزها به « مارش آتير » كجواز مرور، ثم عادت الى الجادة بعد انقالت لفرانسين انها ذاهبة للبحث عن المركيز ولو في جهنم !

عادت لتجد الغار لا يزال في مكانه، انما وحده . وبدا لها على امتداد البصر وهو يتفحص بدقـــة مختلف منافذ نانسون كرجل حرب ماهر ، فانطلقت في ممرات ضيقة رسمتها اقدام المعزى ورعاتها الى ان وصلت الى الوادي ، ومنـــه عبرت الى نانسون ، فإلى الضاحية ، حيث شقت طريقها وسط صخور سان سولبيس الناتئـة ، وانحدرت في طريق تعتورها كتل من الغرانيت ومفروشة بالبلان والوزال فاجتازتها بعزيمة قد لا يعرفها الرجل .

وفاجأها الليل وهي على المرتفعات . فراحت تتبين في ضوء القمر الخفيف الطريق التي سلكها المركيز وعرفت من السكون المخيم على المكان ان الناعقين ورئيسهم انسحبوا الى مكان آخر، فأسقط في يدها وتألمت لضياع الجهود المبذولة من اجل ارواء شهوة جامحة في النفس .

واذ وجدت نفسها وحيدة في الظلام وفي مكان مجهول يكاد يكون جبهـــة حرب ، راحت تفكر بأمرها خائفة مرتعبة من توصيات هولو ومن الرصاصة التي أطلقتها مدام دو غوا . وقـــد اتاح لها سكون الليل ان تسمع أي حركة حتى حفيف الاوراق المتساقطة .

وكانت الرياح العاصفة في المنطقة العليا تجرف الغيوم بعنف محدثة في السماء تموجات متعاقبة من الظل والنور ، الأمر الذي زاد في خوفها وارتعادها .

وحولت نظرها الى منازل فوجير بأضوائها كأنها نجوم أرضية ، وفجأة وقع بصرها على برج باغو ولم يكن امامها سوى مسافة قليلة تقطعها لتعود الى منزلها، لكن هوة عميقة كانت تعترض سبيلها ، وقد تذكرت عدة مهاوٍ تحيط بالدرب

الضيق الذي جاءت منه .

خطر في بالها ان قفاز المركيز ينجيها من المخاطر في نزهتها الليلية لو تعرض لها الناعقون في الريف، وان مدام دو غوا هي عدوها الوحيد الذي يخشى جانبه في مثل هذا الحال. ولدى هذا الخاطر تحسست ماري خنجرها ومشت نحو بيت ريفي كانت قد ميزت سطحه لدى وصولها الى صخور سان سولبيس ، إلا أنها أبطأت الخطى . اذ انها كانت الى ذلك الحين تجهل الرهبة الصارمة التي تواجه المخلوق المنعزل في الليل وسط موقع موحش محاط بالجبال العالية . ولطالما علق طرف فستانها بالشوك فتعثرت وارتعدت ، ولطالما عادت عن حث الخطى الى التباطؤ متوهمة ان ساعة اجلها قد حانت .. غير ان الظروف اتخذت طابعاً قد يعجز عن مقاومته اصلب الرجال عوداً وأقواهم شكيمة ، فأغرقت الآنسة دو فرنوي في حالة من الرعب تضغط على مقومات الحياة في وقت يكون فيه الانسان في أقصى حالتي القوة والضعف ، فتأتي اضعف المخلوقات بضروب من القوة الخارقة بينما يجن اقوى المخلوقات حيالها من شدة الخوف . فقد سمعت ماري على مسافة قريبة جلبة غريبة واضحة ومبهمة في نفس الوقت ، جلبة يعجز السمع عن اختراقها تنبعث من باطن الارض التي كانت تهتز تحت اقدام جيش زاحف بخيله ورجله .

وفي ومضة عابرة استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تلمح على بعد بضعة اقدام منها حقلاً طويلاً من الرؤوس المائجة كسنابل الحقل ، الزاحفة كالأشباح ، إلا انها لم تكد ترى ذلك حتى هبط الظلام ثانية كستار اسود فحجب عنها ذلك المشهد المليء بالأعين الصفراء البراقة .

تراجعت بسرعة وهرعت الى أعلى منحدر هرباً من ثلاثة وجوه مخيفة أقبلت نحوها .

* * *

قال واحد منهم :

– أرأيته ؟! فأجابه الثاني بصوت اجش :

– شعرت بهواء بارد حين مر بالقرب مني . وقال الثالث :
– وأنا تنشقت هواءً رطباً وشممت رائحة القبور .
– وهل هو ابيض ؟ سأل الاول ، فأجاب الثاني :
– ترى لماذا بعث حياً وحده من بين جميع ضحايا البلرين ؟
فقال الثالث :
– ترى لماذا تكون الافضلية لأعضاء جمعية القلب الاقدس ؟ اما من جهتي فأفضل ان اموت غير متمم لواجباتي الدينيـــة على التشرد مثله بدون أكل ولا شرب ، بدون دم في العروق ولا جلد على العظم . وفجأة أطلق المتكلم صيحة :
– آه !..
صيحة رددها الناعقون الثلاثة عندمـــا أشار احدهم باصبعه الى الآنسة دو فرنوي ووجهها الشاحب وهي هاربة بأقصى السرعة دون ان تثير وراءها أي حس . وانطلقت الاصوات باحثة عن الشبح :
– ها هو ... ها هو ... أين هو ؟.. هنا ... هنا ... لقـــد توارى ... كلا ... اجل ... هل تراه ؟..

أما الآنسة دو فرنوي ، فقد مشت بشجاعة باتجاه البيت وشاهدت وجوهاً غير واضحة تفر هاربة من أمامها ، مطلقة صيحات الرعب الشديد . لقد بدت الفتاة وكأنهـــا محمولة بقوة مجهولة وقدرة قادر كريشة في مهب الريح ، وتلك الوجوه التي كانت ترتفع جملةً لدى اقترابها منها ، وكأنها تبرز من تحت الأرض ، حالت دون سماعها أنيناً غريباً متصاعداً من الأعماق .
وأخيراً ، وصلت ، بعد عنـــاء ، الى بستان خرب ، سياجاته وحواجزه محطمة . أوقفها الحارس فعرضت عليه القفاز ، وإذ تبين وجهها على ضوء القمر ، سقطت البندقية التي كان يسددها الى وجه ماري من يده وأطلق صرخة مدوية.
رأت أمامهـــا أبنية كبيرة ، دلت بعض الأنوار الضعيفة الى الغرف المأهولة منهـــا . واقتربت من الجدران دون صعوبة ، ومن النافذة الاولى شاهدت مدام دو غوا مع الزعماء الذين كانوا مجتمعين في فيفتيير .

تاهت بين هذا المشهد وبين شعورها بالخطر. فارتمت بعنف في فتحة مغلقة بحاجز من القضبان الحديدية، ولمحت في صالة مستطيلة مقببة المركيز وحده حزيناً كئيباً، جالساً أمام نار ينعكس نورهـــا على وجهه فيضفي عليه لوناً أحمر وهاجـاً، يصبغه بطابع الرؤيا . ومن شدة الخوف، التصقت ماري بالحاجز على أمل سماعه يتكلم في سكون الليل . فاذا رأته أصفر مغلوباً على أمره، سرها ان تكون هي سبباً من أسباب حزنه . ثم تحول حنقها الى حنان فإشفاق، وأحست فجأة انها لم تأت الى هنا بدافع الثأر وحده .

نهض المركيز .. واذ أدار رأسه وقف مشدوهاً وهو يلمح وجـــه الآنسة دو فرنوي كأنه مطل من خلال غيمة فصرخ بامتعاض وتأفف قائلاً :

– أرى تلك الشيطانة في كل مكان حتى في اليقظة .

ذلك الاحتقار الذي كان يكنه لها « الفار » قابلته بضحكة رنانة ارتعدت لها فرائص الرئيس الشاب فهب لامساكها ولكنها تخلصت منه بقفزة من فوق الجدار مؤثرة طريق العذاب والجحيم تخلصاً من تلك العبارة التي خيل لها انهـــا مكتوبة على جبينه باحرف من نار : « اني احتقرك ! » .

وبعد ان مشت مسافة على غير هدى، توقفت عن السير وقد أحست بانهـا تتنقل في جو رطب، ولكنها ارتعدت مذعورة حين سمعت وقع اقدام عـدة أشخاص معاً فهبطت دركات سلم قادتها الى دهليز تحت الارض تتصاعد منه انات رجل متألم، وفيما هي تصيخ بسمعها، اذا بها ترى وميضاً ينطلق من أعلى السلم، ظنت ان ملاحقيها يطاردونها فاستجمعت ما بقي لهـا من قوة وتسلقت جدار حائط يفصل ما بين السلم والقبو الذي كان يتصاعد منه الانين فرأت رجلاً مغموراً بجلد المعزى ينحدر من تحت ويعرّج نحو القبو دون ان يحدث اقل حركة .

وبفارغ الصبر انتظرت الآنسة دو فرنوي ومضة نور اخرى سرعان ما انتشرت في القبو حيث لمحت على الارض كتلة لا شكل معيّنا لهـــا انما تتحرك وتحاول الوصول الى جزء من الحائط وهي تأتي بحركات عنيفة متكررة شبيهة بحركات سمكة اخرجت حديثاً من الماء .

وبعد قليل انتشر في القبو نور مشعل صغير امتزج مع الدخان فمال لونه الى ازرق حائل وتأكد للآنسة دو فرنوي انها موجودة في مطبخ تحت الارض مهجور منذ زمن بعيد. وتحت اضواء المشعل وضحت الكتلة المتحركة فاذا هي رجل ضخم قصير جميع اعضائه موثوقة باحكام انما ترك وشأنه بلا عناية ولا رحمة . وما كاد المسكين يرى الرجل الآخر حاملاً المشعل بيد والحطب باليد الأخرى حتى أطلق من اعماقه أنـة طويلة حركت شعور الآنسة دو فرنوي حتى نسيت رعبهـا واضطرابهـا ويأسها وآلامها من جراء طول القرفصاء على الحائط وطول مدة انطواء قدميها وتخدير جسمها ، ورغم ذلك حاولت ألا تاتي بحركة وهي ترقب الناعق يضع الحطب في موقد المدفأة بعد ان اطمأن الى متانة الحلقين المدلى مـن صفيحة عالية من الحديد ، وأشعل النار في الحطب . عندئذ انعكس وهج النار على وجهـه . وكم كانت دهشة الآنسة دو فرنوي شديدة عندما عرفت انه المحتال بيل ميش الذي كان تسلمها من مدام دو غوا وباعها من مارش آتير ، وقد قابـل نحيبَ الرجل الموثوق بضحكة عريضة ارتسمت معالمها على وجهه المليء بالتجاعيد الملفوح بالشمس وقال للأسير :

ـ أرأيت كيف اننا ، نحن المسيحيين، لا نخل بكلامنا مثلك ؟ هذه النيران ستلهب ساقيك ولسانك ويديك . من المؤسف ان لا اجد قدراً اضعها تحت قدميك لتتلقى الشحم السائل من جسمك السمين .

ارسل الضحية صرخة حادة لعل احداً خارج الدهليز يسمعه فياتي لنجدته . فقال له جلاده ساخراً :

ـ اصرخ ملء حنجرتك يا سيد اورجمون ، فلن يسمعك احد ، الجميع نائمون فوق ، ومارش آتير يتبعني وسيقفل باب الدهليز وراءه .

كان بيل ميش يتكلم وهو يتحسس برأس بندقيته صندوق المدفأة وأخشاب سطح المطبخ والجدران والافران باحثاً عن مخبأ ثروة البخيل بدقة وعناية تحت انظار دورجمون الذي بقي صامتاً متوجساً خيفة ان يكون احد خدمه قـد خانه مع العلم بانه لم يبح بسره لأحد ، لكن للرجل عادات ربما فضحته .

وكان بيل ميش يكرر التفاته نحو الضحية ليراقب تعابير وجهه فيعرف منها ما اذا كان قد اقترب من المكان المقصود أو انه لا يزال بعيداً عنه ، وقد اعرب دزرجمون عن بعض الخوف عندما رأى الناعق يضرب الافران فتحدث صوتاً جافاً . تلك خدعة سلكت على بيل ميش السريع التصديق بعض الوقت .

وفي هذه الأثناء حضر ثلاثة من جماعـــة الناعقين ومن جملتهم مارش آتير فأخبر بيل ميش أن ماري لبريكان قد بعث حياً ورأى الناس شبحه ، وان كل قضية تتضاءل أمام هذا النبأ . فأجاب بيل ميش :

ـ لا غرابة في ذلك ؛ فقد كان يتناول القربان المقدس دائماً ، ويظن ان الله كان له وحده . وقال مينابيان ، وهو أحد الرفاق الثلاثة :

ـ لقد استفاد من القربان افادة الميت من الحذاء . فقد ارتكب فعل الزنى مع بنت غوغولو. وإنها لخطيئة مميتة لم يعترف بها ولم يحلـّه الكاهن منهـــا قبل حادث البلارين ، ولهذا السبب قال الأب غودن انه سيبقى لمدة شهرين روحـاً بلا جسد قبل أن يعود الى حالتــه الطبيعية . لقد شاهدناه يمر أمامنا أصفر ، مقروراً وخفيفاً كالظل تفوح منه رائحة القبور . وقال الرجل الرابع :

ـ لقد قال المحترم ايضاً ان الروح ، اذا استولى على احد ، يجعله رفيقاً له .

وهنا استيقظ مارش آتير من الاحلام الدينية التي أغرقه فيها تحقيق اعجوبة زعم الاب غودن انها تتكرر لصالح أي تقي ورع يدافع عن الدين والعقيدة ، وخاطب غالوب شوبين الحديث الايمان بقوله :

ـ أرأيت الى أين يؤدي بنـــا التهاون في الواجبات المقدسة ؟ لقد نصحتنا « حنة أوراي » القديسة بألا نتسامح عن أقل الأخطاء . لقد طلب لك ابن عمك بيل ميش وظيفة حراسة فوجير وقبـل الغار ان يسندهـــا إليك بمعاش محترم ، ولكن ، هل تعرف بأي طحين نخبز فطائر الخونة ؟

ـ أجل يا سيدي مارش آتير .

ـ أتعرف لماذا قلت لك ذلك ؟ البعض يقول انك تحب الخمرة وقطع النقد الكبيرة ، وهذا لا يعني انه يجوز الاسترسال في هذه المعصية ..

ـ لقد قال المحترم، يا سيدي مارش آتير، ان الخمرة والمال مزيتان مباحتان .
وعلق بيل ميش على ذلك بقوله :
ـ اذا كان ابن عمي يرتكب بعض المعاصي الصغيرة فذلك عن جهل .
فاجابه مارش آتير بصوت ارجف القبو :
ـ الشر من حيث أتى فلن أخطئه، فاذا ارتكب ابن عمك المعصية سالقي عليك بعضاً من مسؤولية خطئه ، وقال غالوب شوبين :

ـ عفوك يا سيد مارش آتير ، ألم يخطر في بالك ولو مرة ان مقاومي الناعقين كانوا في الماضي ناعقين؟ فأجابه مارش آتير بصوت جاف:
ـ يا صديقي، اجتهد في اصلاح نفسك وإلا قطعتك الى شقين كما يقطع اللفت.
اما من جهة موفدي « الغار » فانهم يحصلون على قفازه ، ولكن ، منذ حادث فيفتيير ابدل بالقفاز شريطاً اخضر .

وهنا هز بيل ميش ساعد رفيقه مشيراً الى دورجون الذي كان يتظاهر بانه نائم، وفي الحال ، وباشارة خفية من مارش آتير ، نزع بيل ميش حذاء الاسير وحمله مينابيان وغالوب شوبين من اسفل جسمه وقرباه من النار ، واخذ مارش آتير قطعة حبل ربط بهـــا البخيل وعلقه بالخلقين ، وفيما كان الرجـــل يطلق صرخات أليمة كان بيل ميش يجمع تحت قدميه الفحم .
وصرخ التعيس قائلاً :
ـ أيها الاصدقاء ، انكم تلحقون بي الاذى وانا مؤمن مثلكم .
فرد عليه مارش آتير بقساوة :
ـ كذبت ، لقد أنكر شقيقك الله . واما انت فقد اشتريت دير جوفيني .
والاب غودن يقول ان بالامكان شيّ المرتد واحراقه دون ما شفقة .

ـ ولكن ، ايها الاخوة بالرب ، أنا ما رفضت ان أدفع لكم ...
ـ أمهلناك خمسة عشر يوماً ، وها قد مضى شهران ولم يحصل غالوب شوبين على شيء .

وبيأس شديد سأل البخيل غالوب شوبين :

ـ ألم تحصل على شيء حقاً يا غالوب شوبين ؟ فأجابه هذا مذعوراً :

ـ كلا . لا شيء .

كانت صرخات الاسير قد تحولت الى أنين أشبه بحشرجة مائت . ثم اتخذت شكلاً زاعقاً لا يطاق .

ولما كان الناعقون الاربعة معتادين على مثل هـــذه المشاهد ، فقد جلسوا يتفرجون عليه وهو يولول ويزأر تحت ألسنة النار كما يتفرج الغريب على قطعة اللحمة فوق النار متى تنضج ليلتهمها .

وأطلق دورجمون الصرخة التالية :

ـ انني أموت وان مت فلن تحصلوا على ثروتي .

وعلى الرغم من صراخ الضحية ، لاحظ بيل ميش ان ألسنة النار لم تلسع جسم البخيل بعد ، فحرك الجمر لناحية الفحم بطريقة تزيـد النار التهاباً ، فقال الرجل بلهجة المغلوب :

ـ ايها الاصدقاء ، حلوا رباطي ، ماذا تريدون ؟ مئة دينار ، ألف دينار ، عشرة آلاف دينار ، مئة ألف دينار ، اقدم لكم ٢٠٠ دينار ...

هذا الصوت المحزن دفع الآنسة دو فرنوي الى ارسال زفرة عميقة أعقبهـا مارش آتير بصرخة : من المتكلم ؟

ونظر الاربعة حولهم بقلق شديد ، هؤلاء الرجال الذين يقتحمون المدافع وهي تطلق قنابلها لم يضبطوا النفس امام الشبح !. ولم يعد يصغي الى اعترافات الضحية تحت وطأة التعذيب سوى بيل ميش ، قال البخيل :

ـ أعطيك خمسمائة دينار .

ـ أين هي ، هاتها .

ـ انها تحت اول شجرة تفاح ... يا مريم العذراء ... في آخر الجنينـة الى اليسار ... انكم لصوص قتلة .. آخ .. انني اموت ... يوجد هناك عشرة آلاف فرنك ...

ـ لا أريـــد فرنكات ، اجاب مارش آتير .. يلزمنا ليرات .. فالدنانير الجمهورية ذات الوجهين الوثنيين ، لن تكون صالحة للتداول قطعاً .

ـ انها ليرات . ليرات ذهبية وهاجة .. ولكن.. حلوني.. حلوني .. حياتي هي في كنزي .

تبادل الاربعة النظر متسائلين أي منهم يستطيع ان يكون موضع ثقتهم ليجلب المبلغ .

وفي هذه اللحظة كانت ضراوة هؤلاء الرجال قد اثارت الآنسة دوفرنوي الى حد جعلها تصرخ بجسارة وبصوت صارم قائلة :

ـ ألا تخافون غضب الله ايها البرابرة ، اطلقوه في الحال ..

رفع الناعقون رؤوسهم ، فرأوا في الفضاء عينين تلمعـــان كنجمتين فهربوا ناجين بأنفسهم ، عندئذ قفزت الآنسة دو فرنوي الى ارض المطبخ ، اقتربت من دورجمون ، سحبته بعنف من النار ، ثم استلت خنجرها وقطعت الحبـال التي أوثق بها. واذ اصبح البخيل متحرراً كانت اولى التعابير التي ارتسمت على وجهه، ابتسامة أليمة متشنجة وقال :

ـ اذهبوا .. اذهبوا الى شجرة التفاح أيها اللصوص ، لقد خدعتهم مرتين ولن أدعهم يخدعوني للمرة الثالثة .

وسمع في الخارج صوت امرأة يدوي قائلاً :

ـ الشبح ! الشبح ! يا لكم من أغبياء ، انها هي ، اهب ألف دينـــار لمن يأتيني برأسها .

كان ذلك الصوت صوت مدام دو غوا .

اصفر وجه الآنسة دو فرنوي ، وابتسم البخيل ثم اخذ بيدها ، وجذبهـا تحت غطاء المدخنة الواسع ،ومنعها من ترك أثر وراءها باقتيادها بطريقة جانبية بحيث تتجنب النـار التي تشغل مساحة قليلة من المكان . ادار لولبا فسقطت صفيحة الحديد. وحين عاد اعداؤهما الى القبو انطبق باب المخبأ بلا ضجيج. عندئذ فهمت الباريسية الشابة الهدف من العذاب الذي ألحق بالصراف التعس .

وفي القبو سُمع صوت مارش آتير يقول لمدام دو غوا :

جواباً على كلام مدام دو غوا أطلق بيل ميش ضحكة خفيفة معبرة ،
ـ أرأيت يا سيدتي ، لقد اتخذ الشبح الازرق رفيقاً له .

ألمّ بهم ذعر شديد بدليل ان صمتا رهيباً تلى الكلام الى حد ان دورجمون ورفيقته سمعا الناعقين يتمتمون ببعض الصلوات .

وقال دورجمون :

ـ انهم يصلون ! يا لهم من بلهاء ! فقاطعته الآنسة دو فرنوي بقولها :

ـ ألا تخشى ان يكتشفوا ...

بدد البخيل مخاوف الباريسية بقوله :

ـ ان الصفيحة هي في بلاطة من الغرانيت بسماكة عشر بوصات ، لذلك نحن نسمعهم اما هم فلا ...

ثم اخذ يد محررته ووضعها على شقّ ينسم منه الهواء بارداً فعرفت ان هـذا الشق صنع في قسطل المدفأة .

واردف دورجمون قائلاً

ـ يا للشيطان ، ان « بغلة الجنرال شاريت » ـ كما يسمونها في نانت ـ ليست بلهاء الى حد معاكسة أتباعها ، فهي تعرف جيداً انهم ، ان لم يكونوا اغبياء لما كانوا يقاتلون ضد مصالحهم ، وها هي تصلي هي الاخرى ، ليتها تحظى وهي تتلو السلام الملائكي ببعض الشهامة فترد لي الاربعة آلاف فرنك التي لي عليها ومع الفائدة والتكاليف يصبح المبلغ ٤٧٨٠ فرنكاً وبعض السنتيمات ...

انتهت الصلاة فنهض الناعقون وخرجوا ، عندئذ ضغط دورجمون على يـد الآنسة دو فرنوي كأنه يحذرها من بقاء الخطر .

وسمع صوت بيل ميش يقول لمدام دو غوا :

ـ كلا يا سيدتي ، لن يعودوا .

ـ ولكنها لم تخرج . لا بد ان تكون هنا .

ـ كلا ، كلا ، لقد تواريا عبر الجدران .

ـ ترى كيف غفلت عن ان هذا العجوز يا بيل ميش ، وانت البخيل مثله ، قادر ان ينفق ألوف الليرات ليبني هـذا الدهليز مجهزاً بمدخل سري .

وأردفت مدام دو غوا قائلة :

ـ ابق هنا .. انتظر خروجها . انني أتخلى لك عن كنز هذا المرابي المستبد لقاء رصاصة واحدة قاتلة . عليك ان تطيعني اذا كنت تريد ان أغتفر لك بيعك هذه البنت .

قال اورجمون معقباً على كلام مدام دو غوا :

ـ تقول « بغلة شاريت » انني مغتصب مستبد ، في حين لم أدينها المال بفائدة تزيد على التسعة بالمئة صحيح ان القرض مكفول برهن عقاري . . أرأيت كيف تقابل لها احساني . الله يعاقبنا من اجل الشر الذي نأتيه والشيطان حاضر دائماً ليعاقبنا على الخير ! والانسان بين الخير والشر ، لا يعرف مصيره ، فهو في نظري أشبه بقاعدة الثلاثة في الحساب حيث تكون السين ضائعة .

ويبدو انه اطمأن للضجة التي أحدثتها مدام دو غوا ورفيقها بيل ميش وهما يتحسسان مرة اخرى الجدران والانفاق والسقوف بحثاً عن الكنز ، فأخذ يد محررته ليساعدها على تسلق سلم ضيق مشقوق في حائط سميك من الغرانيت ، وبعد تسلق ٢٠ درجة شعّ نور خفيف كشف عن رأسيهما ، فالتفت البخيل نحو رفيقته متفحصاً وجهها كأنه يتفحص سنداً مالياً مشكوكاً في صحته فقال لها بعد زفرة أليمة :

ـ بمجيئي بك الى هذا المكان رددت لك فضلك علي تماماً وكمالاً ولا أرى موجباً للدفع ... فقاطعته قائلة :

ـ دعني هنا يا سيدي ... لن أطلب منك شيئاً .

وبلطف وأدب ساعدها على تسلق بضع درجات غريبة التركيب وأدخلها غرفة صغيرة مساحتها ، اربع اقدام مربعة[1] ، مضاءة بقنديل معلق في فجوة . وهنا لاحظت ماري ان البخيل اتخذ جميع الترتيبات للاقامة في هذا المكان أكثر من يوم في ما اذا اضطرته احداث الحرب الأهلية الى البقاء هنا مدة طويلة . وابتدرها دورجمون بقوله :

---

(١) هكذا جاء في النص الفرنسي : والصحيح ان يكون طول كل من جدرانها اربع اقدام اي متراً وثلث ، فتكون مساحة الغرفة الصغيرة ست عشر قدماً مربعاً وبهذا يستوي المعنى .

ـ لا تقتربي من الحائط لئلا يتلوث فستانك بالكلس الابيض ، قال ذلك ومد يده ليفصل بين شالها وبين الحائط المطروش حديثاً . وبهذه الحركة أثار ردة فعل معاكسة لما كان يتوقع ، فقد حدقت الآنسة دو فرنوي امامها فرأت في الزاوية شكلاً انتزع منها صرخة راعبة .. لقد أدركت ان مخلوقاً بشرياً مطلياً بمعجون التراب والكلس وضع هنا واقفاً ، وبحركة تنم عن الرعب الشديد طلب منها دورجمون ان تلزم الصمت وقال لها :

ـ حمقاء ! أتظنين أني قتلته ؟ انه شقيقي ، انه اول رئيس اكليركي ارتدّ . وكان هنا ملجأه الوحيد ضد غضب الناعقين والكهنة الآخرين . انه شقيقي الأكبر ، وهو وحده الذي علمني الحساب العشري والنسبة المئوية . لقد كان كاهناً طيباً ، مقتصداً ، يعرف كيف يجمع المال ! مات منذ اربع سنوات ولست أعرف سبب موته .. انه كاهن.. اعتاد ان يمضي وقته جاثياً على ركبتيه يصلي.. وقد لا يكون مرتاحاً في الوقوف هكذا منتصباً، قد يأتي يوم أستطيع فيه ان ادفنه في ارض مقدسة بناء على طلبه .

اغرورقت عينا الرجل العجوز بالدموع ، فحولت الفتاة نظرها عنه احتراماً لألمه ، ولكنه ، على الرغم من هذه الليونة ظل يمنعها عن الاقتراب من الحائط ويحدق الى عينيها لعله ، يمنعها عن تفحص الحواجز الداخلية . إلا انها تمكنت من استراق نظرة من بعض تلك الحواجز فخيل إليها ، أمام نتوءات الجدران ، ان البخيل كان قد بناها بنفسه باكياس من الفضة والذهب .

تم للآنسة دو فرنوي ذلك فيما كان دورجمون مستغرقاً في حلم سحري . ففي حين كان يعاني آلاماً مبرحة من جراء الحروق في ساقيه ، وذعراً شديداً من وجود مخلوق بشري وسط كنوزه ، كان في نفس الوقت يقاسي انفعالات نفسية بسبب وقوف محررته بجانبه ، تلك الحسناء التي في خديها الجميلين دعوة لقبلة وفي عينيها السوداوين بريق يصعد الى القلب دماً ساخناً ما كان يعلم أهو دليل حياة أو موت . وسألها بصوت لاهث :

ـ هل أنت متزوجة ؟

ـ كلا ، أجابت مبتسمة .
ـ لدي ما اقوله لك . لا بد لكل فتاة جميلة مثلك ان تكون مولعة بالماس والجوهرات والذهب . كل هذه المتمعات اتركها لك بعد موتي ان قبلتِ ان...
عرفت الآنسة دو فرنوي من تعابير وجهه وهو يتلفظ بهذه الكلمات ، انه لم يفكر بالزواج إلا ليدفن سره في قلب مخلوق آخر غيره ، فرمته بنظرة مليئة بسخرية قاسية أفرحته وأحزنته بنفس الوقت وقالت :
ـ لا قيمة للمال عندي، لو كنت تملك الأموال التي رفضتُها انا، لكنتَ اليوم أغنى مما انت بثلاثة أضعاف .
ـ تكلمي دون ان تقربي الحائط ..
ـ وكل ذلك لقاء نظرة واحدة ، اردفت الآنسة دو فرنوي قائلة باعتزاز :
ـ أخطأتِ ، في ذلك عملية ممتازة .. ولكن فكري ملياً بالموضوع ..
ـ فكر انت .. انني سمعت من هنا صوتاً ، نبرة واحدة منه أثمن في نظري من جميع كنوزك .

وهنا حركت الآنسة دو فرنوي لوحة تمثـل لويس الخامس عشر على صهوة جواده . وما كادت تفعل ذلك حتى رأت تحتها المركيز منهمكاً في مطالعة بعض الاوراق في غرفة مجاورة. وبعد ان أزاح دورجمون الصورة بحذر تطلع في الفتاة الشابة وقال لها بلهجة قاسية :
ـ لا تتلفظي بكلمة اذا كنت تحبين الحياة . ثم أسر في أذنها قائلاً :
ـ لم تلقي بعد بثقلك على البناء الصغير، هل عرفت ان المركيز دو مونتوران يملك مئة ألف ليرة هي عائدات مزارع له لم تبع بعد ؟ آه ! آه ! أصبح هـذا الرجل في نظرك أكثر جمالاً الآن أليس كذلك ؟ طبعاً ، نعم ، ففي عينيك ما يشبه بريق ليرتين ذهبيتين !
الحقيقة ان عيني الآنسة دو فرنوي قـد التمعتا ببريق الامل عندما سمعت مرة اخرى صوتاً ألِفته ، ولأول مرة منذ وجودها هنا واقفة على قدميها وسط منجم الفضة استقام لولب نفسها بعد طول التواء تحت وطأة الاحداث ، وقـد

بدت صارمة كأنها اتخذت قراراً جهنمياً تنظر في وسائل تنفيذه وقالت في نفسها:
ـ لن أتراجع امام تحقير كهذا ، فاذا كان قد تخلى عن حبي فسأقتله ولن أدع أي امرأة سواي تفوز به .

وقفت تصغي للحديث الدائر في الغرفة المجاورة، قال الرئيس الشاب مخاطباً الاب غودن :

ـ كلا ، يا حضرة الاب ، يجب تنفيذ ارادتي .

ـ ولكن يا حضرة المركيز، انك تذهل بريتانيا بأسرها باحيائك حفلة راقصة في سان جيمس. ليس الراقصون هم الذين يحركون القرى بل الواعظون ، ليكن عندك بنادق لا كمنجات .

ـ لا يخفى عليك يا حضرة الأب ان في عقد اجتماع عـــام يحضره انصارنا استطيع ان أقرر ما يجب عمله ، ومن الأنسب اقامة حفلة عشاء اتمكن فيهـا من تفحص الوجوه ومعرفة النيات واكتشاف ما يمكن من الجواسيس بالتحدث اليهم عن كثب والكأس باليد .

سمعت ماري هذا الكلام فابتهجت ، فقـد قررت الذهاب الى الحفـــلة بقصد الانتقام .

وتابع المركيز كلامه قائلاً :

ـ أتحسبني أحمق لآخذ بموعظتك عن الرقص ؟ ألم تكن تظهر بين الراقصين ترقص بمـلء ارادتك قبل ان تظهر باسمك الجديد وبدلتك الجديدة كأحـــد آباء الإيمان ؟!.. وهل تجهل ان البريتونيين يخرجون من القداس ليذهبوا الى المراقص ؟ وهل تجهل ايضاً ان السيد هيد دو نوفيل والسيد داندينيه عقدا منذ ١٥ يوماً مؤتمراً مع القنصل الأول بشأن عودة صاحب الجلالة لويس الثامن عشر الى العرش ؟ فاذا كنت قد قررت ان أخاطر بالمشاركة في هذا العمل ، فما ذلك إلا لألقي بثقل جنودنا في المفاوضات الجارية بهذا الشأن .

ثم هل تجهـل أن جميع زعماء فانده وحتى صديقنا فونتين يتحدثون عن الاستسلام ؟ آه ! يا سيدي الأب المحترم ! لقد خدعوا الامراء عن الوضع في

فرنسا . فاذا كنت قــد غرقت في الدماء حتى القدم ، فلست مستعداً ان أغرق حتى الوسط إلا عن ايمـــان وطيد بالنصر ، فانا مخلص للملك ، وليس لأربعة ادمغة مستعرة ، ولا لرجــــال غارقين في الديون أمثال ريفويل ، ولا للمهيجين ، ولا ...

ـ قل ولا للكهنة الذين يجمعون المساعدات على نطاق واسع لدعم الحرب.. قلها يا سيدي المركيز ...

ـ ولم لا أقولها ؟ زمن البطولات في فانده قد ولى يا محترم .

ـ نستطيع أن تاتي بالعجائب بدونك يا سيدي المركيز ..

ـ أي نعم . كاعجوبة ماري لمبريكان .. لنفترق بدون ضغينة ايها المحترم ، اعلم انك تجازف بشخصك ، ليكن الله بعونك ، واني آمل ان اجعلك تشترك في تتويج الملك ، وعلى رأسك تاج الأسقفية ...

فعلت العبارة الاخيرة فعلها في الكاهن ، فقد استل بندقيته وصرخ قائلاً :

ـ في جيبي خمسون خرطوشة يا سيدي المركيز وان حياتي للملك .

هنا التفت دورجمون نحو الآنسة دو فرنوي وقال مشيراً الى الاب غودن :

ـ هذا واحد آخر من المدينين لي . لن أتكلم عن الستماية الدينار التي استدانها مني ، بل عن دين الدم الذي لي بذمته . وأظن أنه سيسدد هــذا الدين قريباً ، كل شر يلاقيه هذا الجزويتي ، فلن يكون على مستوى ما أتمناه له . لقد حكم على شقيقي بالموت وأثار البلاد كلها ضده ، لماذا ؟ لأن المسكين تخوف من القوانين الجديدة وضعف امامها .

وبعد ان ألقى نظرة على مخبأ ثروته ، أردف البخيل قائلاً :

ـ ها هم هؤلاء اللصوص راحلون ليجترحوا عجيبة اخرى، ارجو ألا يودعونني باشعال النار في البيت .

بعد حوالي نصف ساعة سمعا صوت غالوب شوبين يقول :

ـ لقد زال الخطر يا دورجمون، غير اني ربحت هذه المرة ثلاثين دينار أمنك بحق .

ـ يابنتي اقسمي لي بأن تغمضي عينيك .. قال البخيل للآنسة فرنوي :

وضعت الآنسة دو فرنوي احدى يديها على عينيها ، وأطفأ العجوز القنديل وقاد محررته من يدها ليساعدها على اجتياز دهليز صعب. وفي مدى بضع دقائق وجدت الآنسة دو فرنوي نفسها في الغرفة التي تركها المركيز منذ قليل، وكانت من غرف البخيل الذي خاطب الحسناء بقوله :

ـ بامكانك الآن ان تذهبي. طبعاً ليس معك نقود، اليك بهذه العشرة الدنانير. بخروجك من الحديقة تجدين درباً يقودك الى المدينة او الى مركز القضاء كما يقولون. ولكن ، قد لا تتمكنين من العودة باكراً بسبب وجود الناعقين في فوجير ، وعليه تكونين بحاجة الى ملجأ ، احفظي جيداً الكلمة التي أقولها لـك ولا تستخدميها إلا عند الخطر الشديد ، فعلى الطريق المؤدية الى نيدوكروك تجدين مزرعة يقيم فيهـا غران جيبو الملقب بغالوب شوبين ، ادخليها قائلة لزوجته : « نهارك سعيد يا بيانيير » واسمها الحقيقي باريت ، وهي تجد لـك مخبأ . فاذا اكتشفك غالوب شوبين في الليل حسبك شبحاً ، او في النهـار ، فاعطه العشرة الدنانير وانتهى الأمر . والآن ، الوداع ، لقد صفيت حسابك . وأردف قائلاً وهو يشير الى الحقول التي تحيط بالمنزل :

ـ ان شئت فهذه كلها لك !...

بنظرة امتنان استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تنتزع من هذا المخلوق الفريد زفرة اختلفت معانيها وما أمكنه إلا ان قال لها :

ـ لا ريب في انك ستعيدين الي العشرة دنانير بلا فائدة. فادفعيها لحسابي لسد اجور (باترات) كاتب العدل في فوجير الذي سيحرر عقد زواجنا ان شئت .. والثروة بانتظارك .. الوداع !

ردت الآنسة دو فرنوي له تحية الوداع باسمة :

ـ الوداع . ولكنه عاد فاستوقفها ليقول لها :

ـ اذا كنت بحاجة الى المال أقرضك ما تشائين بفائدة خمسة بالمئة ! نعم خمسة بالمئة فقط ! يا إلهي أتراني قلت خمسة ؟ واذ رآها تتابع طريقها دون ان ترد عليه ، قال في نفسه :

ـ يلوح لي انها فتاة طيبة . ومع ذلك سأغير مخبأ ثروتي . قال ذلـــك وأخذ خبزاً وشريحة من لحم الخنزير. ثم دخل الى مخبئه .

مشت الآنسة دو فرنوي في البرية فأحست بأنها ولدت ثانية . فقد أنعشت طراوة الصباح وجهها الذي ظل طوال ساعات ممتقعاً تحت ضغط جو مكرب .

حاولت ان تجد الدرب القصير الذي حدثها عنه البخيل. إلا ان القمر كان قد غاب وبغيابه ساد الظلام ووجدت نفسها تسير على غير هدى ، وخوفها من ان تسقط في المهاوي خلص حياتها ، اذ انها توقفت فجأة متوهمة ان الارض ستميد بها ان هي خطت خطوة واحدة الى الامام .

الهواء البارد يداعب شعرها وخرير المياه يحرك نفسها وكل شيء ينبئها بأنها في الطرف الآخر من سان سولبيس . طوقت بذراعهـا جذع احدى الشجرات وبقلق شديد راحت تنتظر بزوغ الفجر ، فقد سمعت قرقعة سلاح وضجيج خيل وأصواتاً بشرية فشكرت السماء لهذا الليل الذي حماها من الوقوع في ايدي الناعقين المحيطين بالمدينة .

* * *

كالنار التي تشعل في الليل كعلامة للحرية ، هكذا ظهرت أشعة حمراء من فوق الجبال التي ما برحت اصولها مغطاة بلون رمادي خفيف يتعاكس مع الغيوم الوردية المتهادية على الاودية .

وان هي إلا لحظة، واذا بقرص بلون الياقوت يرتفع ببطء في الافق ، فتهلل السماوات لقدومه . وبرزت المناظر المتشابكة وقبة جرس سان ليونارد والصخور والمروج الغارقة في الظل . كما ظهرت معالم الأشجار على ذرى الجبــال في النور الصاعد .. لقد انبثقت الشمس بطلعتها البهية من خلال أشرطة شعاعية ارجوانية وزمردية ، وامتد نورها في خطوط متساوية من ربوة الى ربوة ومن واد الى واد وتبددت الظلمات وعم النهار الطبيعة .

الهواء بارد والطيور تغرد والحياة تدب في كل مكان . ولكن ، ما كادت

الآنسة دو فرنوي تحول أنظارها عن هذه المجموعة الفريدة من المناظر ، حتى امتدت أبسطة من البخار فغطت الاودية وأخذت بالارتفاع حتى بلغت قمم الجبال فأغرقت هـذا المنخفض الخصب تحت وشاح من الثلج . بعد قليل اخذ الطقس المثلج يلف موجات كالاقيانوس وينشر صفائح تتهادى بكسل، تتموج وتتدحرج بعنف معاكسة أشعة الشمس المخضبة بلون وردي ، راسمة هنا وهناك أشكال بحيرة من الفضة السمحة .

وفجأة هبت الرياح فتبددالضباب الذي ترك على العشب «ندى مليئاً بالاوكسيد[1]» ، وعندئذ استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تشاهد كتلة عظيمة سمراء على صخور فوجير انكشفت عن ٨٠٠ ناعق يتحركون بالسلاح في ضاحية سان سولبيس ، كالنمل في قريتها ، للهجوم الصاعق على ضواحي القصر التي احتلها ٣٠٠٠ رجل منهم وقد وصلوا اليها بطريقة سحرية. وعلى الرغم من متاريس تلك المدينة النائمة وأبراجها القديمة المغبرة ، فقد كادت تسقط لولا سهر هولو ودرايته . لقد ردت المدفعية المخبأة في اسفل فجوة لأحد المتاريس على اول رصاصة أطلقها الناعقون وأخذت تحصدهم على الطريق المؤدية الى القصر ، ثم خرجت فرقة من باب سان سولبيس واغتنمت دهشة الناعقين لتشتبك معهم في معركة ضارية وبدأت تصب عليهم نيراناً ماحقة .

واذ رأى هؤلاء الناعقون متاريس القصر مغطاة بالجنود لم يحاولوا المقاومة ، انما اخترق قسم منهم ، كان مسيطراً على وادي نانسون، ممرات ضيقة بين الصخور وتمكن من الوصول الى جادة النزهة فوجدها مغطاة بجلود المعزى كأنها سقف من القش القاتم. وفي الوقت ذاته سمعت طلقات مدوية في قسم من المدينة يشرف على وادي كويسنون. وتمّ الهجوم على فوجير من جميع النقاط لأنها كانت محاصرة . والنار التي ظهرت على المقالب الشرقية دلت على ان الناعقين احرقوا الضواحي ، ثم ما لبث الدخان ان تلاشى اشارة الى ان الحريق قد انطفأ وهبت ريح بددت الغيوم القاتمة التي أقلقت بال الآنسة دو فرنوي مرة اخرى .

وكان القائد الجمهوري قد غير اتجاه بطاريته بطريقة تمكن من السيطرة على

(١) هكذا جاء في النص الفرنسي .

وادي نانسون وعلى درب لارين وعلى الصخرة ، حين تبين ان أوامره في برومناد قد نفذت بحذافيرها ، فقــد تصدت طليعتان من الجنود ، كانتا متمركزتين على مدخل سان ليونارد، للناعقين فدحرتهم ، بينما هرع الحرس الوطني في فوجير الى ساحة الكنيسة وطرد العدو .

كل هذه المعركة تمت في نصف ساعة ولم تكلف الجمهوريين سوى مئة رجل . اما الناعقون المنكسرون فقد اخذوا ينسحبون في جميع الاتجاهات بأمر مــن « الغار » الذي فشلت مهمته دون ان يعرف ، أثر قضية فيفتيير التي قادت هولو سراً الى فوجير . فالمدفعية الجمهورية وصلت في تلــك الليلة ذاتها ولو ان أي نبأ عن نقل ذخائر الى الموقع بلغ المركيز دو مونتوران مسبقاً لكان تخلى عن تلــك الحملة التي ستبوء بالفشل المحتم . والحقيقة هي ان هولو اراد ان يلقن درساً قاسياً للغار بقدر ما كان هذا الاخير يتمنى ان ينجح في مسعاه ليؤثر في اتجاه قرارات القنصل الاول. فمنذ الرصاصة الاولى فهم المركيز انه من الجنون مواصلة حملة لاسترداد الكرامة في مفاجأة ناقصة ، كما انه ، حرصاً منه على حياة ثواره ، أسرع في ارسال بعض المجندين مزودين بالتعليمات من اجل الاسراع في عملية الانسحاب على جميع النقاط . والقائد هولو ، وقــد شاهد خصمه محاطاً بأعضاء مجلسه العديدين وفي وسطهم مدام دو غوا ، حاول ان يصليهم ناراً حامية باتجاه صخرة سان سولبيس غير انهم كانوا قد أحسنوا اختيار المكان بحيث لا يتعرض الرئيس الشاب لنيران القنابل . وغــــير هولو دوره فجـــأة وأصبح هــو المهــاجم ، فلدى التحركات الاولى التي كشفت عن نية المركيز ، قامت الفرقة المتمركزة تحت جدران القصر بواجبهـــا في قطع طريق الانسحاب على الناعقين باستيلائها على المنافذ الرئيسية من وادي نانسون .

اما من جهة الآنسة دو فرنوي ، فعلى الرغم من حقدها الشديد ، فقد تبنّت قضية الرجال الذين تحت قيادة حبيبها والتفتت نحو المنفذ الآخر لترى هل كان حراً ، فشاهدت الزرق المنتصرين وهم عائدون من وادي كويسنون عن طريق جيباري ليستولوا على نيدوكروك وعلى جزء من صخرة سان سولبيس حيث

المنافذ السفلى لوادي نانسون، وبذلك أصبح الناعقون المحاصرون في حقل ضيق، معرضين للخطر المحتم بجموعهم بقدر ما كانت تحسبات القائد الجمهوري صحيحة وتدابيره محكمة ، غير ان المدافع التي اعتمد عليها قصرت عن واجبها فوقعت معركة ضارية من النوع الذي ألفه الناعقون . وعندئذ فهمت سبب التحشدات التي كانت قد رأتها في البرية واجتماع الرؤساء عند « دورجمون » وجميع الاحداث التي وقعت في تلك الليلة دون ان تفهم كيف تسنى لها الخلاص من جميع تلك المخاطر . ومع ذلك دفعها اليأس الى البقاء في مكانها تنعم النظر في اللوحات المتحركة البادية لناظريها . وقد وجدت في المعركة التي وقعت في سفوح جبال سان سولبيس مصلحة اخرى لها .

عندما تحقق المركيز وصحبه ان الزرق أوشكوا ان يكونوا سادة الموقف انطلقوا لنجدة الناعقين في وادي « نانسون » حيث كان الجنود في هياج وقد صمموا على الحياة او الموت في ساحة الوغى بأسلحة أصلح حالاً من أسلحة ذوي جلود المعزى.. وبصورة لاشعورية امتدت هذه المعمعة حتى الفضاء ، فالناعقون، تسلقوا جذلين، الصخور المحيطة بـ «سان سولبيس» مستعينين بأغصان الشجيرات النابتة هنا وهناك .

هذا ، وقد عانت الآنسة دو فرنوي فترة من الرعب وهي ترى الأعداء يتسنمون قمم الجبال حيث دافعوا بضراوة عن الدروب الخطرة التي جاءوا منها. ولما كانت جميع المنافذ تحت اشراف الفريقين، فقد خافت ان تكون بين حشديهما، فتخلت عن الشجرة التي كانت ممسكة بجذعها وولت هاربة ، وفي نيتها ان تستفيد من توصيات البخيل العجوز لها . وبعد ان ركضت مسافة طويلة على مقالب جبال « سان سولبيس » المشرفة على وادي «كويسنون» الكبير شاهدت عن بعد حظيرة قدرت أنها تابعة لمنزل « غالوب شوبين » الذي لا بد ان يكون ترك زوجته وحدها أثناء المعركة ، وأملت ان تلاقي في المنزل استقبالاً حسناً يشجعها على المكوث بضع ساعات الى ان تتمكن من العودة الى فوجير ، بعد زوال الخطر .

جميع الدلائل كانت تشير الى ان هولو سينتصر ، فالناعقون يهربون بسرعة الى حد ان الآنسة دو فرنوي سمعت طلقات النار من جميع الجهات. وخوفها من ان تصاب برصاصة طائشة اوصلها الى كوخ بداخون يقوم مقام الدعامة ، وكانت الطريق التي سلكتها تؤدي الى مربض خيــل سقفه مدعوم بأربع شجرات ضخمة فيه معصرة لصنع الخمور ، وبيدر للحنطة وبعض ادوات الحراثة . وقفت ماري قرب احدى الدعائم ممتنعة عن اجتياز المستنقع الموحل امام البيت الذي حسبته الباريسية الحسناء حظيرة للمواشي ، وحين فتحت الباب هاجمتها رائحة حموضة كريهة ورأت ان الحيوانات ذات القوائم الاربع قد هدت الجدار الداخلي الفاصل بينها وبين الفرقة، وفيما هي تتأمل في هذا المسكن الشبيهة بحظيرة موحلة وتتساءل كيف يمكن لمخلوقات بشرية ان تقيم فيه، اذا بها ترى صبياً في ثياب بالية لا يتجاوز التاسعة من العمر ، يقترب منها بوجهــه النضير الوردي وعينيه الحارتين وأسنانه العاجية وشعره الأشقر المسترسل خصلاً ذهبية على كتفيه العاريين إلا قليلاً . أعضاؤه متينة وفي حركتــه دهشة حلوة وسذاجة متوحشة ظهرت في اتساع عينيه . كان طفلاً في منتهى الجمال البريء .

ـ أين امك ؟ سألته ماري بصوت رقيق وهي تنخفض لتقبله على عينيه .

بعد ان تلقى الولد القبلة ، تركها مسرعاً وتوارى خلف كومة من القمامة ، ما بين البيت والطريق .

الواقع ان غالوب شوبين كان ، كسائر الفلاحين البريتونيين يضع القمامة برسم السماد في أمكنة عالية فاذا هطل المطر جردها من جميع خواصها النافعة للزرع.

والآن ، وقد أصبحت ماري هي ربة المنزل لبعض الوقت ، فقد اخذت في تقييم الغرفة التي تنتظر فيها باريت زوجة غالوب شوبين . كانت أكثر الامتعة بروزاً مدفأة كبيرة باطار من قطع الآجر الازرق . وخرقــة حرام من الصوف خضراء محاطة بشريط من نفس اللون مقصوصة بشكل مستدير معلقة على الحائط وفي وسطها صورة العذراء كتب تحتها بيتان من قصيدة دينية رائجة هما :

أنا ام الرب .
حارسة هذا المكان .
وبالقرب من العذراء صورة ملوثة بالحبر على شكل لوحة . تمثـــل القديس لابري ، وفي الغرفة سرير مغطى بحرام رث أخضر ، ومنامة طفل ، وكراسي مخلّعة ، وصندوق محشو ببعض الاواني المنزلية ، كان هذا كل ما في الغرفة من أثاث.
وأمام الكوة طاولة كبيرة مع مقعدين وخابيـــة كبيرة للشراب ، لاحظت الآنسة دو فرنوي تحت قماطها كتلة حائلة الصفرة من الطين ، جبلت على أرض موحلة ، أخفت الرطوبة معالم حجريتها المكونة من الآجر والغرانيت والصلصال الأحمر ، وفي ذلك كله دليل على ان «غالوب شوبين» كان جديراً بلقب «ناعق».
أغمضت الآنسة دو فرنوي عينيها عن هذا المشهد المخزي وخيل اليها ان جميع خفافيش الارض تأوي الى هذا المكان لكثرة ما فيه من نسيج العنكبوت المتدلي من السقف .
وكان بود ماري ان تتابع تقييم البيت ، إلا ان احتدام المعركة أرغمهـــا على البحث عن مكان نظيف تختبىء فيه ، وفي هــذه اللحظة ظهرت زوجة غالوب شوبين ، فابتدرتها الآنسة دو فرنوي قائلة :
ـ نهارك سعيد يا بيكانيير ! قالتها ماري وهي تغالب ابتسامة لا ارادية ظهرت على ثغرها لمظهر هذا الوجه الغريب الذي كان يشبه الوجوه التي تزين بها رؤوس بعض المفاتيح .
ـ آه ! آه ! أأنت قادمة من قبل دورجمون ؟
قالتها باربيت دون حماسة .. فقالت ماري بلهفة :
ـ أين تخبئينني ؟ الناعقون على الابواب . . .
ـ هنا .. تعالي ..
قالت ذلك وهي تقودها الى مقدمة سريرها لتدخلها في ممر ولكنهما وقفتا مذعورتين لدى مشاهدة رجل مجهول يقفز الى المستنقع . وما كادت باربيت تنتهي من ارخاء ستارة السرير على ماري حتى وجدت نفسها امام ناعق فار ابتدرها بقوله :
ـ أين يمكنني ان أختبىء انا الكونت بوفان .

اختلجت الآنسة دو فرنوي وهي تتعرف الى صوت احـد ضيوف فيفتيير الذي تلفظ ببعض كلمات ، بقيت سراً عليها ، سببت تلك الكارثة المشؤومة .
أجابته باربيت قائلة :
ـ آسف يا سيدي ، لا شيء عندي أحجبك به ، كل ما يمكنني عمله هو ان أخرج للحراسة حتى اذا اقبل الزرق أنذرتك ، اما ان بقيت هنا وشاهدوني معك ، فسيشعلون النار في البيت .
قالت ذلك وخرجت ، لأنها لم تكن ذكية الى حـــد التوفيق بين مصالح خصمين تساويا بالمخبأ وفقاً للدور المزدوج الذي يلعبه زوجها .
وقال الكونت مخاطباً نفسه :
ـ لم يعد معي سوى رصاصتين لا فائدة من اطلاقها. لكن الزرق تجاوزوني، وكم أكون سيء الحظ لو عادوا من هنا وطاب لهم ان يفتشوا تحت السرير .
قال ذلك وأسند بندقيته الى عمود السرير حيث كانت ماري واقفـة ملتفة بحرام اخضر ، وانحنى ليتأكد اذا كان باستطاعته ان يدخل تحت السرير، وكان لا بد له من ان يرى قدمي اللاجئـة التي غشاها اليأس فاستات البندقية وقفزت بخفة الى صحن الكوخ مهددة الكونت الذي انفجر ضاحكاً اذ تعرف اليهـا ، لأنها ، قبل ان تختبىء ، كانت قـد نزعت عن رأسها القبعة الواسعة التي تتنكر بها وظهرت ضفائر شعرها من تحت ما يشبه شبكة من الدنتيلا .
وانتهرته ماري بقولها :
ـ لا تضحك أيها الكونت .. انت الآن أسيري ، فان أتيت بحركة ابتليت بما تستطيـع ان تفعله امرأة مهانة .
وفيما كان الكونت وماري يتبادلان النظر بانفعالات مختلفة ، سمعت من بين الصخور أصوات مختلفة تصرخ :
ـ خلصوا الغار ، انحرفوا ، خلصوا الغار ، افتحوا له الطريق ، انحرفوا ...
من بـين جميع الاصوات برز صوت باربيت عالياً سمعه ضيفا الكوخ الخصمان بشعور مختلف ، اذ انهـا كانت توجه الكلام في الحقيقة اليها اكثر من توجيهه الى

ابنها الصغير . وأردفت قائلة :

ـ ألا ترى الزرق يا بنيّ ؟ تعال الى هنا أيهـــا الصغير الشقي وإلا ذهبت انا اليك ، ام انك تحاول التصدي لطلقات البندقية ؟ هيا انجُ بنفسك في الحال !

وفيما هذه الاحداث تجري بسرعة ، اذا بجندي يقفز الى المستنقع . عرفته الآنسة دو فرنوي ونادته باسمه : بوبيه .

أسرع بوبيه على صوتها وسدد فوهة بندقيته الى صدر الكونت بأحسن ممـا فعلت محررته وانتهره بقوله :

ـ لا تتحرك أيها الارستوقراطي وإلا هدمتك كالباستيل بدقيقتين .

وعادت الآنسة دو فرنوي تقول لبوبيه ملاطفة :

ـ اعهد اليك بهذا الاسير ، افعل به ما شئت على ان تعيده الي سالماً في فوجير .

ـ سمعاً وطاعة يا سيدتي .

ـ وهل طريق فوجير حرة الآن ؟

ـ الطريق آمنة إلا اذا بعث الناعقون بعثاً جديداً .

تسلحت الباريسية الحسناء ، جذلة ، ببندقية الصيد الخفيفـة وهي تخاطب أسيرها ساخرة :

ـ الوداع أيها الكونت ، والى اللقاء !

وتمتم الكونت بمرارة قائلاً : لقد عرفت متأخراً انه لا يجب المزاح قط مـع اللواتي لم يعد لهن كرامة . فصرخ بوبيه في وجهه بقساوة :

ـ أيها الارستوقراطي ، اذا كنت لا تريد ان أرسلك الى نعيمك المرتجى فلا تتلفظ بكلمة سوء ضد هذه الحسناء ..

* * *

عادت الآنسة دو فرنوي الى فوجـير بواسطة الدروب التي تصل صخور « سان سولبيس » بـ « نيدوكروك ». ومن هذه الربوة سارت في طريق متعرجة وهي تتفرج على وادي نانسون الجميل الهادىء بعد اضطراب ، ثم ولجت مدخل

« سان ليونار » واختلطت بالنــــاس وهم بانتظار عودة الحرس الوطني ليقدروا الخسائر التي لحقت بهم .

كانت فرانسين قد أمضت الليل بطوله، فريسة قلق شديد، بانتظار سيدتها، واذ رأتهــــا شاءت ان تتكلم ، إلا ان ماري فرضت عليها السكوت بحركة حبية وقالت :

ـ لم أمت يا بنيتي ، لقد توخيت المتاعب فوجدتها ، وعدت سالمة .

وشاءت فرانسين ان تخرج لتوصي باحضار الطعام إلا ان سيدتها طلبت اعداد الحمام اولاً .

اشتدت دهشة فرانسين حين طلبت منها سيدتها ان تأتيها بأجمل ما في صناديقها من فساتين . وبعد ان تناولت طعام الغداء جلست ماري تتزين بدقة المرأة التي تنوي لقاء شخص عزيز في حفلة راقصة . وما استطاعت فرانسين ان تفهم سبب جذل سيدتها الساخر ، لم يكن جذل الحب ، طبعاً ، فالمرأة لا تخطىء في التعبير عن نفسيتها .

رفعت الآنسة دو فرنوي ستارة النافذة وقربت الكنبة من المدفأة وطلبت من فرانسين ان تأتيها بمقدار كاف من الأزهار لتضفي على الغرفة بهجة العيد . واذ جاءت فرانسين ، ابدت ماري براعة فنية في ترتيبها ، وبعد ان ألقت نظرة رضى اخيرة على الغرفة ، طلبت من فرانسين ان ترسل في طلب الكونت الاسير الموجود في عهدة بوبيه . ثم استلقت على الكنبة بتلذذ، وما كان ذلك للراحة بقدر ما كان لاتخاذ وضع شيّق انيق ؛ سلطان اغرائــــه لا يقاوَم في بعض النساء ، والوضع الجسدي الذي اتخذته يتفق تماماً مع نظراتها المنصبّة للفتنة ، وكانت قد احرقت العطور لتشيع في جو الغرفة أريجاً عبقاً يسطو على مشاعر الرجل ويمهد لانتصارات تؤمنها المرأة لنفسها دون ان تتوسل اليها .

بعد لحظات دوّت خطوات القائــد هولو في الصالة المقابلة للغرفة فابتدرته الآنسة دو فرنوي بقولها :

ـ اين هو أسيري يا حضرة القائد ؟

ـ ارسلت في طلب شرذمة من ١٢ رجلاً لاعدامه بتهمة حمل السلاح .
ـ لقد تصرفتَ بأسيري اذن !! اسمع يا حضرة القائد . ان قتل رجل بعد المعركة ، لا يمكن ان يرضي انساناً له سماؤك . أعد اليّ « ناعقي » واجعل موته مؤجل التنفيذ وانا الكفيلة برده اليك. اصارحك القول بأن هذا الارستوقراطي اصبح يؤمن لنا فائدة كبرى، اعده اليّ واستمر في التعاون مع رفاقك من اجل تحقيق مشاريعنا ، هـذا فضلاً عن ان قتل هذا الناعق هو بمثابة اطلاق رصاصة على بالون لا يحتاج الى اكثر من وخزة دبوس لينطفىء . بحق السماء دع الشراسة للارستوقراطيين ، ولنكن نحن الجمهوريين سموحين كرماء ، او لم تعف انت عن ضحايا كيبيرون ؟ هيا، ارسل جنودك الاثني عشر ليقوموا بدورية حراسة وتعال تعشّى عندي مع أسيري ، لم يبق من النهار سوى ساعة وبعدها لا يعود لزينتي أي تأثير .

تردد القائد لحظات فأردفت قائلة :

ـ ماذا تريد ؟ تكلم ، لن يفلت الكونت من يدك ، لسوف يسقط برصاصك عاجلاً ام آجلاً .

رفع القائد كتفيه قليلاً كمن ارغم على النزول عنـد رغبة سيدة حسناء . ثم انصرف ليعود بعد نصف ساعة يتبعه الكونت دو بوفان .

تظاهرت الآنسة دو فرنوي بأنها فوجئت بزيارة الرجلين فتكلفت الحياء اذ شاهداها مسترخية بتكاسل على الكنبة ولكن، بعد ان لاحظت دلائل الافتتان في عيني النبيل ، نهضت وراحت تهتم بضيفيها، لطيفة الحركات، وبتهذيب كلي . وما من شيء من تصرفاتها كان يفصح نياتها وخططها ، لا ابتسامتها ولا مشيتها ولا صوتها . كل شيء فيها كان متزناً وطبيعياً لا يدع شبه ظن بأنها تتظاهر بما ليس فيها .

وبعد ان جلس الرجلان، الملكي والجمهوري، ألقت على الكونت نظرة قاسية . ولما كان النبيل خبيراً في شؤون النساء ، فقد عرف ان الاهانة التي ألحقها بالآنسة دو فرنوي تستحق حكماً بالموت ، ولكنه على الرغم من هذا الظن ، اتخذ موقفاً

هادئاً . وأيقن انه من العار التظاهر بالخوف من الموت امام امرأة جميلة ، ثم ان نظرة ماري القاسية اوحت اليه بفكرة ، فقال مخاطباً نفسه :

ـ من يدري فلعل تاج الكونتية يعجبها أكثر من تاج مركيز ضائع ؟ ان مونتوران رجل جاف كالخشبة .. اما انا .. فمن يدري ؟ لعل اقل شيء اناله هو نجاة رأسي ..

هذه التصورات الدبلوماسية بدت لغواً وبلا فائدة فقد واجهته ماري بالتصريح التالي :

ـ انت اسيري يا سيدي الكونت ولي ملء الحق في ان استجوبك كما اشاء . ان تنفيذ الاعدام فيك لن يتم بدون رضاي، لكني اشعر بشوق ملحّ لأن ارديك في الحال .

ـ واذا لزمت الصمت وامتنعت عن الجواب على الاستنطاق ؟

ـ قد يفيد الصمت مع امرأة شريفة ! اما مع « بنت حلال » ... هيا يا حضرة الكونت ، هذا محال ، وبسخرية لها فعل السم الناقع اردفت قائلة :

ـ ومع ذلك ، وحتى لا اكذبك ، سأتصرف تصرف « البنات » وسأبدأ برد بندقيتك اليك ، قالت ذلك وقدمت له بندقيته فأخذها وقال :

ـ عهد رجل نبيل يا آنستي ، انك ... فقاطعته بعصبية قائلة :

ـ آه ! لقد شبعت من عهود النبلاء ! على هذه الكلمة دخلت الى فيفتيير ، فقد اقسم لي رئيسك بأنني ورجالي نكون عنده في امان ، وكان ما كان !

ـ يا للعار ! صاح هولو وهو مقطب الحاجبين .

ـ الحق على الكونت يا حضرة القائد ، لقد كان « الغار » يود ان يحافظ على عهده ، غير ان هذا السيد اشاع عني تهمة أكدت جميع الافتراءات التي شاعت « بغلة شاريت » ان تلحقها بي زوراً وبهتاناً .

ـ مهلاً يا آنستي ، اقسم بأني لم اقل غير الحقيقة .

ـ بقولك ماذا ؟

ـ بأنك كنت ...

ـ أكمل ، قلها : حظية ...

ـ حظية المركيز دو لينكور الذي صار اليوم دوقاً ، وهو احد اصدقائي !

ـ الآن استطيع ان ارسلك في داهية ! قالت دون انفعال امام هـذه التهمة العفوية التي ألصقها بها الكونت ، وقد وقف مشدوهاً حيال هـذه اللامبالاة التي قابلت بها تهمته ، تابعت كلامها قائلة وهي تضحك :

ـ لا تخف يا سيد . لكنك لم تغظني بقدر ما أسأت الى صديقك الذي اردت ان تجعلني ... عيب عليك ! ألم تقابل والدي الدوق دو فرنوي ؟ ماذا تقول ؟

وكأن الآنسة دو فرنوي اعتبرت القائد هولو أرفع من ان يتدخل في مسارّة خطيرة كهذه ، اجتذبت الكونت نحوها بحركة من يدها وأسرت في أذنه بضع كلمات قابلها الكونت دو بوفان بدهشة عظيمةوتطلع مشدوهاً في الآنسة ماري التي أكملت الذكرى التي أثارتهـا وهي مستندة الى المدفأة في وضع ينم عن براءة وسذاجة الاطفال وعندها جثا الكونت امامها على ركبتيه وصرخ قائلاً :

ـ أتوسل اليك أيتها الآنسة ان تغفري لي مهما كان ذنبي عظيماً .

ـ ليس لي ما أغفره لك كما ليس لك ما تندم عليه سوى افتراضك الوقح في فيفتيير . غير ان هذه الأسرار هي فوق مستوى ذكائك . اعلم أيها الكونت ان ابنة الدوق دو فرنوي هي أرفع من ان تبالي بك .

ـ حتى بعد الاهانة ؟ سأل الكونت وهو بادي الندم . فأجابته :

ـ ثمة أشخاص ارفع من ان تطالهم الاهانات .. وأنا من هؤلاء .

قالت الآنسة دو فرنوي هذا الكلام بكبر وشموخ كأنها تفرض ارادتها على الكونت . اما « هولو » فقد عجز عن ادراك اللغز فراح يفتل شاربيه ويتطلع بقلق الى الآنسة دو فرنوي التي أومأت له بما معناه : انها لم تخرج عن المخطط .

وبعـــد ان طلبت من فرانسين ان تشعل النور في الغرفة ، حولت الحديث بلباقة الى شؤون الماضي القريب مانحةً الكونت عدة فرص ليستعيد طمأنينته بملاطفاتها ونعومتها الى ان انتعش وراح يحاول مشاركتها الرأي وحاولت هي

بدورها ان تمارس سحرها عليه بتلاعبها بعواطفه، تعلله تارة وتشوقه تارة اخرى فكانت أشبه بالصياد الذي يكرر رفع السنارة من الماء ليرى اذا كانت السمكة قد علقت بالطعم . وأسلس الكونت لها قياده ، وأسمعها كلمات من المديح استساغتها وأبعدتها الوف الأميال عن شؤون الهجرة والجمهورية وبريتانيا والناعقين... في حين ظل هولو صامتاً جامداً كالتمثال عاجزاً عن الخوض في مثل هذه الاحاديث لأنها فوق مستوى ثقافته . وكان كل همه ان يعرف هل كانا يتآمران ضد الجمهورية بكلمات مبطنة .

وقد تابع الكونت كلامه قائلاً :

ـ ان مونتوران رجل مهذب جميل لكنه لا يعرف الكياسة لأنه دخل قصر فرساي وهو صغير السن وقبل ان تكمل ثقافته . فبدلاً من ان يداجي يطعن بالسكين ، يستطيع ان يحب بعنف انما يفتقر الى كياسة المحبين ولباقتهم ، انه لا يملك فن التحدث مع النساء بأمور جميلة تافهة انما تعجبهن أكثر من مكاشفات الحب التي طالما سمعنها فمللنها ، أي نعم ، انه ، وان كان ثرياً ، فهو غير سلس ولا ظريف .

ـ لقد لاحظت ذلك، اجابت ماري وفي صوتها أنة حنين وفي نظرتها بريق حب جعل الكونت يمني النفس بها ، وفي سبيل امتلاكها صمم ان يصدق كل ما تريد ان يصدقه .

ومد لها يده للانتقال الى الصالون بعد انتهاء العشاء الذي احاطته بأبهج المراسم المعهودة في القصور الملكية . وفي الصالون التفتت نحو القائد هولو وقالت له :

ـ بامكانك ان تنسحب لأنك تخيفه ، فاذا اختليت به أعرف كيف أستنطقه واحصل منه على كل ما اريد من المعلومات . لقد وصلت به الى نقطة حساسة لا يمكنه معها إلا ان يكشف لي قلبه ولا يرى إلا بعيني .

واذ أبدى هولو حركة يقصد بها المطالبة بالأسير ، اجابته على الفور :

ـ انه حر ، حر طليق كالهواء .

ـ ولكنه حمل السلاح ..

ـ كلا ، اجابت مازحة ، لقد جردته من سلاحه . قالت ذلك والتفتت نحو الكونت قائلة له :

ـ أيها الكونت ، لقد استحصلت لك على حريتك مجاناً ولوجه الله .

ـ بل سلي ما تشائين ، لك اسمي وشرفي، وكل ما املك اضعه على قدميك .

واقترب منها ليلمس يدها محاولاً ان يجعل من رغباته دليلاً على امتنانه وعرفانه بحسن صنيعها . إلا انها لم تكن ممن يؤخذن بأحابيل التغرير ورغم ذلك عللته بابتسامة بعثت الامل في قلبه حين قالت له :

ـ تريدني ان اندم على ما منحتك من ثقة ؟!..

اجاب ضاحكاً :

ـ مخيلة الاوانس أسرع تصوراً من مخيلة السيدات ...

ـ ذلك لأن خسارة الفتاة افدح من خسارة المرأة ..

ـ صحيح ، الحق معك ، على من يملك كنزاً ان يكون حذراً .

ـ دعنا من هذا الحديث ولنتكلم جدياً . انكم تقيمون حفلة راقصة في سان جيمس وقد بلغني انكم حشدتم هناك مخازنكم وذخائركم ومقر حكومتكم ، فمتى تكون الحفلة ؟

ـ غداً مساء .

ـ لا تعجب يا سيدي اذا علمت ان امرأة مفترى عليها من قبل امرأة اخرى تحرص ان تحصل على تسوية لاهانات لحقت بها بحضور شهود عيان ، وعليه فسأحضر حفلتكم وانا اطلب حمايتك من بداية الحفلة الى ان اخرج منها، لا اريد منك قسماً ، انني أكره القسم لأنه لا يعني أكثر من وقاية . قل ببساطة انك تتعهد بضمان نفسي من كل عملية اجرامية او افترائية مخجلة ، عدني بأنك تصلح خطأك بالاعلان بأني ابنة الدوق دو فرنوي فعلاً على ان تكتم جميع الويلات التي أصابتني في الحماية الأبوية . وهكذا نكون قد صفينا حساباتنا . وهل في حماية

فتـاة مدة ساعتين في حفلة راقصة غرامة فادحة ؟ هيا ، انك لا تساوي فلساً واحداً علاوة على ذلك . وبابتسامة من ثغرها الريان تحت كل ما في هذا الكلام من تعريض .. وسألها الكونت ضاحكاً عما تطلبه ثمناً للبندقية .

فأجابته :

ـ هي عندي أغلى منك .

ـ ماذا ؟

ـ انه « سر المرأة » يا سيد بوفان ، ولا تحلّه غير المرأة ، انا متأكدة انني أهلك في الطريق بكلمة منك . امس انذرتني بضع قنابـل بالخطر واضطرتني الى الركض في الطريق ، حقاً انها لامرأة امهر في الصيد منها في صناعة الزينـة والتبرج . لم اعرف أي خادمة امهر من مدام دو غوا في تعرية خصمها بمثل هذه السرعة. آه! لطفاً، احرص ألا يصيبني شيء من مثل هذه المخاوف في الحفلة...

ـ ستكونين في حمايتي، ولكن، هل تجيئين الى سان جيمس من اجل مونتوران؟

ـ انك تريد ان تعلم أكثر مما أعلمه انا نفسي ، قالت ضاحكة وأضافت :

ـ لنخرج ، وسأقودك بنفسي الى خارج المدينة .. ان حربكم هذه لأقسى من حروب أكلة لحوم البشر .

ـ معنى ذلك يهمك امري قليلا ، آه يا سيدتي ، دعيني أعلل النفس بأنك تحسين بصداقتي ، انني أكتفي منك بهذه العاطفة .

ـ هيا بنا ! قالتها بلهجة جذلة كعربون مودة لا يحط من كرامتها ولا يكشف سرها .

ثم وضعت فراءها على كتفيهـا ورافقت الكونت حتى نيدوكروك واذ وصلت به الى آخر الدرب قالت له :

ـ كن كتوما حتى مع المركيز يا سيدي الكونت .

اغتر السيد بوفان بلطف الآنسة دو فرنوي فتجاسر واخذ يدها ، واذ تركتها له كمنّة عظيمة منها ، طبع عليها قبلة حارة وقال :

ـ ثقي بي في الحياة وفي الممات يا آنستي، انني ، وان كنت أكن لك امتناناً

يضاهي امتناني لوالدتي فانه لمن الصعب علي ان لا أكنّ لك سوى الاحترام ...

قال ذلك وانطلق في دربه . وبعد ان رأته ماري يسير في صخور سان سولبيس هزت رأسها علامة الرضى وقالت تخاطب نفسها :

ـ لقد سلمني أكثر من حياته، من اجل حياته، سأجعله صنيعتي بثمن زهيد.. هنالك صنيعة او صانع ، وذلك هو الفرق بين رجل وآخر .

ثم ألقت نظرة يأس نحو السماء ومشت ببطء الى مدخل سان ليونار حيث وجدت هولو وكورنتان بانتظارها ، فابتدرتها بقولها :

ـ بعد يومين ... وسكتت اذ تبين لها انها ليسا لوحدهما ، واقتربت من اذن هولو وتابعت : ويسقط قتيلاً برصاصك ..

تراجع القائد خطوة الى الوراء ناظراً بسخرية الى تلك الفتاة التي خلت هيئتها ووجهها من أي دليل على تبكيت الضمير ، والعجب في النساء أنهن لا يقمن أي وزن لأعمالهن مهما كانت أليمة . انهن يندفعن بالعاطفة ويكن طبيعيات حتى في تخفيهن ، ولديهن فقط تلتقي الجريمة بدون حطة وفي معظم الاحيان لا يعرفن كيف يتصرفن .

واذ أخبرتها بأنها ذاهبة الى سان جيمس لحضور الحفلة الراقصة التي يحييها الناعقون ، سألها كورنتان اذا كانت تريد ان يرافقها بداعي ان المسافة بعيدة فأجابته باستخفاف ظاهر :

ـ انك تهتم كثيراً بالشيء الذي لا أفكر فيه قط ... اعني بك ..

هذا الازدراء الذي اعربت عنه ماري نحو كورنتان أعجب كثيراً هولو فشيعها بنظرة مستغربة وهي تبتعد نحو سان ليونار ، واتبعها كورنتان بناظريه وعلى وجهه آثار انفجار داخلي ، مصدره سيطرة مشؤومة ظن بأنه يستطيع ان يفرضها على الفتاة الجميلة التي كلف نفسه بمراقبة ميولها ، حاسباً ان في وسعه ان يحولها ذات يوم اليه .

وما كادت الآنسة دو فرنوي تصل الى بيتها حتى أسرعت الى صناديقها تنتقي منها ملابس الرقص، ولما كانت فرانسين معتادة على تلبية اوامر سيدتها دون ان

تعرف مقاصدها ، فتشت الصناديق واختارت لها بدلة من طراز اغريقي رائج ووضبت ادوات زينتها في علبة سهلة الحمل . بعدئذ أخبرتها ماري بأنها مزمعة على اجتياز الحقول وخيرتها بين الذهاب معها او البقاء في البيت فأجابتها فرانسين قائلة بلهفة :

ـ ابقى في البيت ؟ ومن ذا الذي يلبسك غيري ؟

ـ أين وضعت القفاز الذي سلمتك إيّاه صباحاً ؟

ـ هوذا .

ـ خيطي عليه شريطة خضراء ولا تنسي ان تأخذي بعض النقود .

واذ لاحظت ماري ان النقود التي حملتها فرانسين هي قطع جديدة ، صرخت :

ـ لا ينقصنا إلا هذه النقود حتى نموت قتلاً ، دعي جيريمي توقظ كورنتان ... كلا ليس كورنتان لئلا يلحق بنا ، دعيها بالاحرى تذهب الى القائد هولو وتطلب منه باسمي دنانير من فئة الستة فرنكات .

وهكذا ، بفطنة وذكاء فكرت بكل شيء . وفيما فرانسين تعد لوازم الرحلة ، اخذت هي تتمرن على تقليد نعيب البومة . فتمكنت من تقليد شعار مارش آتير على أكمل وجه ، وفي منتصف الليل تركت مدخل سان ليونار ومشت في الطريق التي تؤدي الى نيدوكروك وتغلغلت ، تتبعها فرانسين ، عبر ممر جيبأري بخطى ثابتة مدفوعة بارادة قوية وعزيمة جامحة .

ـ انك ذاهبة دون ان توكلي امرك الى الله ، قالت ذلك فرانسين وقد وقفت تتأمل في قبة جرس الكنيسة ، ثم ضمت يديها الى بعضهما وتلت السلام الملائكي لحنّة اوراي القديسة متوسلة ان تجعل هذه الرحلة موفقة . هذا ، فيما بقيت سيدتها شاردة الذهن تنظر حولها وتتأمل في خادمتها البريئة وهي تصلي بحرارة ، وفي نور القمر الغائم .

وصلت المسافرتان الى كوخ غالوب شوبين ، وعلى الرغم من خفة وطء اقدامهما ، استيقظ احد الكلبين وهجم عليهما بشراسة مرسلاً نباحاً مخيفاً اضطرهما الى طلب النجدة . واذ لم تلق الآنسة دو فرنوي جواباً من احد ، صفرت صفير البومة ،

وسرعان ما فتح الباب على مصراعيه وأطل منه غالوب شوبين شاحب الوجه ، فقالت ماري وهي تعرض على حارس فوجير قفاز المركيز دو مونتوران :

ـ علي ان اتوجه في الحال الى سان جيمس ، وقد قال لي الكونت دو بوفان انك ستصحبني وتكون لي بمثابة حارس للدفاع عني عند الحاجة . على ذلك ، ايها العزيز غالوب شوبين ، احضر لنا حمارين للركوب واستعد لمرافقتنا ، اسرع فالوقت ثمين، فاذا تأخرنا عن الوصول مساء غد الى سان جيمس فلن نحظى برؤية « الغار » ولا بحضور الحفلة .

اخذ غالوب شوبين القفاز بارتباك وراح يقلبه تحت نور الشمعة ، وبعد ان رأى الشريطة الخضراء وتطلع ملياً في الآنسة دو فرنوي ، وبعد ان حك اذنه وشرب جرعة من الخمر وعرض الكأس على السيدة الحسناء ، انسحب ليأتي بالحمارين .

لم يكن نور الشمعة البنفسجي قوياً الى حد التفوق على ضوء القمر الذي نمق اللطخ على الارض وعلى أثاث الكوخ الداخن ، وقد رفع الطفل رأسه الجميل مدهوشاً وفوقه بقرتان اطلتا من خلال ثقوب حائط الزريبة . واخذ الكلب الكبير ، ولم يكن اقل من أولئك الافراد ذكاء، يتفحص الغريبتين بفضول لا يقل عن فضول الطفل المتعجب . ولو ان رساماً وقعت عيناه على هذا المشهد لوقف طويلاً يتأمل تأثير الظلام في لوحاته . اما ماري فقلما كانت تهتم بالدخول في حديث مع باربيت التي انتصبت كالتمثال وفركت عينيها الواسعتين وهي تتأمل ماري التي ما لبثت ان خرجت هرباً من الهواء الملوث ومن الاسئلة التي كانت تطوف على لسان لابيكانيير، ثم صعدت ببطء على درجات الصخرة قرب الكوخ وجلست تتأمل معالم الطبيعة النائمة تحت ضوء القمر الذي كان يغمر وادي كويسنون ، وفي مثل هذه الجلسة ، تستمتع كل امرأة بالكآبة التي يولدها نور القمر الشاحب في النفس ، ان كانت عاشقة تحمل في قلبها حباً صريحاً .

في هذه اللحظة عكر نهيق الحمارين صفو سكون الليل ، فأسرعت ماري بالنزول الى الكوخ وخرج الجميع ، وقد تسلح غالوب شوبين ببندقية صيد ذات

طلقتين ، ووضع فوق ملابسه الجلد المألوف فشابه بزيه روبنسون كروزو ، ولا سيما بقبعته الواسعة الاطراف التي ما برح فلاحو فرنسا يحتفظون بهـــا الى اليوم كأثر لتقليد قديم .

قافلة تسري في الليل البهيم بحماية دليل تطل من بذلته ومن هيئتـه ووجهه هيبة كهنة التوراة ايام نزوح العائلة المقدسة الى مصر هرباً من هيرودس . وقد تجنب غالوب شوبين السير في الطريق الكبير وقاد الغريبتين في متاهات شاسعة عبر بريتانيا. وبذلك أدركت الآنسة دوفرنوي خفايا حرب الناعقين واستطاعت، أثناء مرورها في تلك التشعبات ، ان تتبين حالة تلك الأرياف بمناظرها الرائعة، انما قضي عليها ان تحث الخطى اتقاءً للمخاطر وللصعوبات .

حول كل حقل، ومنذ العصور القديمة، اقام الفلاحون سوراً من الطين بعلو ستة اقدام تتكاثف على أعلاه اغصان اشجار الكستناء والسنديان ويعرف هذا النوع من السياج بالسياج النورماندي ، والطرقات التي يحضنها الجدار وعرة ومليئـة بالحفر ولا تستطيع العربة السير فيها إلا بواسطة ثورين وبغلين قويين ، ويترتب على المشاة الذين يريدون الانتقال من حقل الى آخر ان يصعدوا الى أعلى السياج بواسطة درجات ملساء بفعل الامطار ثم يهبطون بنفس الطريقة الى الطرف الآخر.

وكان على المسافرين ان يذللوا صعوبات اخرى في تلك الطرقات المتعرجة .

هناك ، لكل قطعة ارض مدخـــل خاص بوسع عشر اقدام تقريباً مقفل بركيزة من جذع شجرة ضخم ، احـد طرفيها مثقوب على مداره بحيث يتسع الثقب لدخول قطعة اخرى من الخشب بمثابـة قطب يتجاوزه طرف الركيزة بطريقة تمكن القطب من حمـــل الاثقال ويكون الطرف الآخر داخلاً في ثقب محفور في الجزء الداخلي من السياج، وعلى كل، فهنالك عدة طرق لإقامة السدود حول قطع الارض تختلف باختلاف اذواق المالكين . احياناً يكون المدخل قائماً على ركيزة واحدة ، طرفاها معلقان بالسياج، وأحياناً يكون أشبه بباب مربع الشكل ومركباً من عدة عوارض على شكل عوارض السلم .

هذه السياجات والمداخل والسدود تعطي الارض شكل طاولة شطرنج شاسعة الأبعاد . وكل حقل يشكل مربعاً منفرداً عن الحقول الأخرى ومحصناً كالقلعة . مداخل تؤمن الدفاع عنها بسهولة وتقف سداً منيعاً في وجه اخطر هجوم يشنه اعظم جيش في العالم .

وليس من يعلم هل كانت الحاجة الى تجنب الخاصمات، وزرب المواشي بدون حراسة ، هي التي اوحت ببناء تلك السدود المنيعة التي تجعل البلاد في حصن حصين والحرب الجماعية مستحيلة ؟

فاذا تأملت تلك المساحات الشاسعة خطوة فخطوة بدا الفشل المحتم للجيوش النظامية في حرب بينها وبين العصابات ، اذ ان بامكان خمسمئة رجل ان يتحدوا جيوش مملكة بكاملها . هنا يكمن سر حرب الناعقين ، ومن هنا ادركت الآنسة دو فرنوي حاجة الجمهورية الملحة الى اخماد الخلاف بطريق القانون والدبلوماسية لا باستعمال القوة العسكرية .

وفي الواقع ، ماذا يسع الجمهورية ان تفعل ضد أناس يتخلون عن سكنى المدينة ليؤمنوا حماية الارياف بأمنع التحصينات . ترى لماذا لا يحصل التفاوض وقوة هؤلاء الفلاحين محصورة في رئيس فرد ذكي حسن التصرف ؟

لقد أعجبت الآنسة دو فرنوي بذكاء الوزير الذي أدرك وهو في مكتبه سر السلام ، وظنت انها استنبطت الاعتبارات التي تؤثر في رجال لهم القدرة الكافية على قيادة امبراطورية كاملة دون تمييز بين فئة وفئة من الناس . وما الاعمال التي قد يعتبرها الجمهور اجرامية سوى ألعاب دماغ هائل .

ان لهذه النفوس الجبارة مقدرة على الجمع بين سلطان الاقدار وسلطان المصائر المحتومة .

مثل هذه الأفكار وغيرها، برّرت ، على ما يبدو ، او بالاحرى شرفت رغبة الآنسة دو فرنوي في الانتقام . ثم ان انشغالها بمثل هذه الشؤون الى جانب آمالها الأخرى عززت فيها القوة على تحمل مشاق السفر . وكان غالوب شوبين يضطر لدى كل حقل مسوّر الى انزال السيدتين عن ظهر الحمار ليساعدهما على

اجتياز الممرات الصعبـة ، ثم تعودان الى ركوب ظهري الحمارين والمخاطرة في طرقات موحلة متعرجة مقفرة .

وبعد عذاب طويل ، وقبيل الشروق وصل الثلاثة الى احراج مارينيه حيث بدأ المسير يكون سهلاً .

ما كادوا يقطعون مرحلة عبر الاحراج حتى سمعوا ضجيجاً هو مزيج من أصوات بشرية ، ورنيناً صافياً لا يشبه الرنين الرتيب الذي تحدثه الجلاجل في عنق الدواب . أصاخ غالوب شوبين ، وهو يتمشى ، السمع بانتباه واذا بنسيم ينقـل الى سمعه بضع تراتيل دينيـة تركت مفعولها في نفسه ، فقد قاد الراكبتين المنهكتين في درب صغير ليجنبها الظهور في الطريق المؤدية الى سان جيمس ، وأصم اذنيه عن سماع تعليمات الآنسة دو فرنوي التي اشتدت مخاوفها بسبب العبوس السائد في المكان . فعلى اليمين وعلى اليسار صخور هائلة مـن الغرانيت متراكمة بعضها على بعض ، وبين تشعباتها جذور ثخينة ملتوية أشبه بالأفاعي الضخمة تنزلق الى الامام بحثاً عن عصارة طيبة في بعض الاشجار العتيقة .

كان الجانبان من الطريق يشبهان المغاور القائمة تحت الارض والشهيرة بمياهها المتحجرة ، فقـد كان على جانبي الطريق أكاليل من الحجارة مغطاة بالعشب الناعم وفوقـه ضمم من العوسج والسرخس ، تخفي الهوّات ومداخل بعض المغاور العميقة ، ولدى انتقـال الموكب الصغير الى طريق ضيقة ، برزت اغرب المشاهد لناظري الآنسة دو فرنوي ومنها عرفت سبب شرود غالوب شوبين .

من هذه المشاهد حوض نصف دائري يشكل مدرجاً يتخلل درجاته اشجار السرو والكستناء الباسقة بشكل مسرح مستدير تضفي عليه الشمس نوراً شاحباً واوراق الخريف المتساقطة تكسو ارضه . وفي وسط هذه الصالة ثلاثة احجار ضخمة من العصر الدرويدي ، ومذبح واسع ركزت فوقه راية الكنيسة الدرويدية القديمـة ، وحوالي مئة رجل حاسري الرؤوس جاثين يصلون بحرارة ، وفي وسطهم كاهن ، يقوم بمراسم القداس ، يساعده رجلان من رجال الدين .

كل شيء كان يضفي على هذا المشهد طابع البراءة التي رافقت العصور المسيحية

الاولى : الملابس الكهنوتية الرثة، صوت الكاهن الضعيف الشبيه بالانين ، رجال أتقياء تجمعهم عقيدة واحدة جاثون امام مذبح مجرد من الزينات ، والزمان والمكان. كل ذلك اذهل الآنسة دو فرنوي فوقفت تتأمل في كل ما يجري امامها مصعوقة ، فالقداس تتلى مراسمه في قلب الغابة ، وعبادة اوصلها الاضطهاد الى مصدرها في قلب الطبيعة . ناعقون مسلحون وغير مسلحين ، طغاة وأتقياء ، رجال واطفال في نفس الوقت، كل ذلك لا يقاس به شيء مما سبق لها ان رأته او تصورته، لقد تذكرت انها، في طفولتها، شاهدت معالم امجاد الكنيسة الرومانية المتعصبة للجوهر، لكنها لم تكن قد تعرفت الى الله بعد بوحدانيته . كان صليبها على المذبح ومذبحها على الارض ، وبدلاً من الاوراق المفصلة التي تتوج حنايا الكاتدرائيات الغوطية ، رأت الاشجار الباسقة تسند القبة المتعالية في السماء ، وبدلاً من ألوف الالوان التي تطل من زجاج النوافذ ، هي الشمس وحدها التي أرسلت اشعتها المحمرة وانعكاساتها المكمدة على المذبح وعلى الكاهن والمصلين . الرجال هنا هم شيء واقعي ، وما هم بطقوس ولا تقاليد ، وصلاتهم هي صلاة حقيقية لا صلاة دينية فحسب. والآلام البشرية المتأتية عن الضغط المؤقت ظهرت جلية في هذا الحقل الصغير .

لدى وصول الآنسة دو فرنوي الى المكان كانت قراءة الانجيل في نهايتها ، وبانفعال شديد تعرفت بنظرها الى المقرىء الاب غودن . فتوارت بسرعة عن ناظريه مختفية وراء قطعة كبيرة من الغرانيت، حيث اجتذبت اليها بخفة خادمتها فرانسين ، إلا انها عجزت عن اجتذاب غالوب شوبين من المكان الذي اختاره للمشاركة في بركات هذا الاجتماع الحافل . لقد أملت ان تنجو من الخطر الذي يتهددها بواسطة طبيعة الارض التي تسمح لها بالانسحاب قبل الجميع ، ومن خلال شق واسع في الصخرة شاهدت الاب غودن يعتلي المنبر ويبدأ عظته بهذه المقدمة: « باسم الاب والابن والروح القدس » وهنا أدى المصلون اشارة الصليب بورع وتقوى . وتابع الكاهن عظته بصوت قوي :

« أيها الاخوة الأعزاء اننا نصلي اولاً من اجل امواتنا الذين سقطوا

متأثرين بالجراح التي أصابتهم أثناء معركة البلرين وفي حصار فوجير .

« هؤلاء المجاهدون في سبيل الله اعطوكم ، يا ايها المسيحيون ، المثل في تأدية الواجب. ألا تخجلون مما قد يقال عنكم في الملكوت الاعلى؟ لولا هؤلاء الطوباويون الذين استقبلهم القديسون بأذرع ممدودة لحسب الله ان أبرشيتكم يسكنها جماعة من الوثنيين .. هل تعرفون يا أبنائي ماذا يقال عنكم في بريتانيا وفي حضرة الملك ؟... انكم لا تعرفون ، أليس كذلك ؟ اذن فسأقول لكم ذلك ، فاسمعوا، وعوا: كيف تمّ للزرق ان يقلبوا المعابد ، ويقتلوا المرشدين، ويذبحوا الملك والملكة؟ ثم يريدون ان يأخذوا رعايا الكنيسة البريتونية ليحولوهم الى زرق مثلهم ويرسلوهم للقتال خارج ارضهم في البلدان البعيدة ، حيث يتعرضون للموت دون ان تتم لهم طقوس الاعتراف . يذهبون الى جهنم والى الابد ، وقيل عن ابناء مارينيه انهم وقفوا مكتوفي الأيدي عندما احرق الزرق كنيستهم . تبا لجمهورية الابالسة التي باعت بالمزاد بيوت الله واملاك السادات ، وتقاسمت الأرباح مع الزرق ، ثم ، لكي تتغذى بالمال كما تتغذى بالدماء اصدرت مؤخراً مرسوماً بأخذ ثلاث ليرات عن كل دينار وتجنيد ثلاثة من كل ستة رجال . وقيل ايضاً ان ابناء مارينيه لم يحملوا السلاح ليطردوا الزرق من بريتانيا .

« يا ويلهم ! الجنة محرمة عليهم ولن يتمتعوا بالسلام في قلوبهم » .

هذا ما يقال عنكم . ألا ان سلامة نفوسكم هي الأولى وهي المقصد ولن تنقذوا نفوسكم من سوء العذاب الا بالدفاع عن الدين وعن حماته . لقد ظهرت لي قديسة هذه المناطق بذاتها أمس الاول في الساعة الثانية والنصف ليلاً وقالت لي ما سأقوله لكم :

– أأنت كاهن مارينيه ؟

– نعم يا سيدتي ومستعد لخدمتك .

– حسن . انا حنة اوراي القديسة ، خالة المسيح على مذهب بريتانيا . ما

زلت مقيمة في اوراي وهنا ايضاً . لانني جئت لأطلب منك ان تقول لابنـــاء مارينيه انه لا سلام ولا طمأنينة لهم ان هم لم يحملو السلاح . وعلى ذلك تحرمهم من حلهم من خطاياهم ، الا اذا عادوا الى خدمة الله ، عندئذ تبارك بنادقهم ، والابناء الذين هم بلا خطية لن يفلت الزرق من ايديهم لان بنادقهم مباركة ! .

تابع الكاهن وعظه قائلاً :

– قالت القديسة ذلـــك واختفت تاركة وراءها ، تحت السنديانة ، رائحة البخور . . لا تعجبوا فقد عاينت المكان وعلـّمته بتمثال جميل من الخشب يمثل العذراء، قام بنصبه كبير كهنة سانجيمس. وفي المساء جاءت والدة « بيار لوروا » الملقب بـ « مارش آتير » لتصلي في المكان ذاته فشفيت من آلامها بفضل الأعمال الطيبة التي قام بها ابنها المذكور . ها هي بينكم . تطلعوا فيها وتأملوا كيف تمشي وحدها . تلك هي اعجوبة تحققت كاعجوبة بعث الطوباوي ماري لبريكان حياً من بين الأموات ليثبت لكم ان الله لا يتخلى قط عن البريتونيين ان حاربوا من أجل خدامه الكهنة ومن أجل الملك . بناء عليه ايها الاحباء ، ان شئتم السلام لانفسكم وان اردتم ان تدافعوا عن الملك فعليكم ان تستجيبوا لكل ما يأمركم به الرجل الذي ارسله الملك والذي نسميه «الغار». واذ ذاك فلن تكونوا كفرة ، بل تجدون انفسكم مع جميع ابناء بريتانيا تحت راية الله . يمكنـكم ان تستعيدوا مـن جيوب الزرق الاموال التي سرقوها منكم . فاذا حالت الحرب دون زرع حقولكم ، فلكم بأذن الله والملك أسلاب اعداء الله والملك .

أفيرضيكم ان يقال عنكم انكم متخلفون عن ابناء الموربيهان ، وسان جورج ، وفيتريه ، وأنتران . وهم الذين وهبوا نفوسهم لله ؟ هل تدعونهم يأخذون كل شيء ؟ هل تظلون مكتوفي الأيدي فيما جميع البريتونيين يصنعون السلام لانفسهم بانقاذ الملك ؟ لقد ورد في الأنجيل :

« تتركون كل شيء من اجلي » الم نتخل نحن عن « أعشارنا » !؟ تخلوا انتم ، اذن ، عن كل شيء من اجل الحرب المقدسة وستصبحون كالمكابيين . وعندئذ

كل شيء يترك لكم وتغفر خطاياكم وستجدون بينكم المرشدين والكهنة، ولسوف تنتصرون !

« انتبهوا جيداً ايها الأخوة : لقد اعطينا من الله الحق لنبارك بنادقكم ، فالذين لا يستفيدون اليوم من هذه المنة فلا شفاعة لهم ولن تصغي قديسة هذه المنطقة اليهم كما فعلت في الحرب السابقة » .

هذه الموعظة ، مع كل ما رافقها من حركات وتفخيم وتعظيم ، لم تسفر ، ظاهرياً ، الا عن بعض التأثير ، فقد ظل الفلاحون مسمرين في اماكنهم وعيونهم معلقة بالخطيب كالتماثيل ، غير ان الآنسة دو فرنوي ادركت ان موقف الفلاحين هذا ناتج عن سحر القاء الأب غودن على الجمهور ، فقد خاطب الناس وكأنه يخاطب رجلاً فرداً عن المصالح وعن الميول والعواطف. فحلل المنكرات وفكك القيود الوحيدة التي تربط هؤلاء الرجال الجفاة بالمبادىء الدينية والاجتماعية . لقد مزج الكهنوت بالمصالح السياسية . ففي زمن الثورة كلٌ يعمل لصالح حزبه ويتخذ مما يملك سلاحاً له ، وهكذا اصبح صليب يسوع المسالم اداة من ادوات الحرب .

واذ لم تجد الآنسة دو فرنوي أي مخلوق تتفاهم معه حولت بصرها نحو فرانسين لتجدها منسجمة مع موقف الجمهور التقشفي اذ كانت تتلو الصلاة الربانية والسلام الملائكي على عدد حبات سبحة أخذتها من غالوب شوبين ، فقالت لها :

— هل خفت ان تكوني وثنية يا فرانسين ؟

— معاذ الله ، ولكن ، ألا ترين والدة بيار تمشي على قدميها ؟

الاقتناع الذاتي الذي اغرق فرانسين في صلاة حارة ، كشف لماري سر الموعظة وسر سيطرة الاكليروس على الارياف الفرنسية . والسر الكامن في نتائج تلك المشاهد . فقد بدا الفلاحون القريبون من المذبح يتقدمون الواحد بعد الآخر ، يجثون ثم يقدمون بنادقهم الى الخطيب فيضعها بدوره على المذبح . وفيما الكهنة الثلاثة يرتلون ، كان الاب غودن يؤرجح المبخرة فوق ادوات الموت

فيحجبها وراء ستار كثيف من الدخان الازرق . واذ بدد النسيم بخـار البخور أعيد توزيع البنادق على أصحابها ، فكان كل رجل يتلقى بندقيته وهو جاث على ركبتيه من ايدي الكهنة المرنمين ، وبعد الانتهاء من توزيع البنادق انطلق الجمهور بالترنيم بحماسة عظيمة ولدت في نفس الآنسة دو فرنوي موجـة من الحنين الى عائلة آل بوربون المنفية ، وأيقظ فيها ذكريات الماضي عن أعياد وحفلات البلاط المشتت ، يوم كانت فيه نجمةً لامعة من نجوم تلك الاعياد ، وقد برز وجه المركيز دو مونتوران من خلال هذه الذكريات الغابرة ، إلا انها استطاعت ان تزيل من مخيلتها تلـك الأفكار لتعود الى مشروعها الانتقامي الذي يقض راحتها والذي قد يسقط امام نظرة ..

وفيما هي تفكر كيف ستبدو جميلة في تلـك اللحظة الفاصلة من وجودها ، خطر لها انها لا تملك ادوات زينة تزين بها رأسها أثناء الرقص ، فارتأت ان تتزين بأغصان الاسل البري ذات الاوراق المنقبضـة والحبوب الحمراء . فيما هي تفكر بذلك اذا بها تسمع غالوب شوبين يقول بحماسة بالغة :

– قد اخطىء الهدف اذا ما سددت فوهة بندقيتي على عصفور ، ولكني لن اخطىء قط اذا سددتها على الزرق ...

تفحصت ماري بانتباه وجه دليلها فوجدته لا يختلف بشيء عن سائر الوجوه التي شاهدتها في ذلك الحفل ، فقد غمرت وجنتيه وجبينه موجة من الفرح وهو يتطلع الى بندقيته بعد ان باركها الاب غودن ، إلا ان نعرة دينية خالطت فرحه فصبغته بتعصب فجر على وجهه منكرات المدنية الحديثة .

وكان الموكب قد وصل الى قرية صغيرة فيها خمسة مساكن من نوع مسكن غالوب شوبين الآنف الذكر ، حيث وصل الناعقون المجندون حديثاً قبل ان تنتهي الآنسة دوفرنوي من وجبة طعامها المكونة من قطعة خبز وزبدة وحليب وجبنة . وكان هذا الفريق اللانظامي بقيادة مرشد يحمل بيده صليباً ضخماً تحول الى راية للرعية . وقد وجدت ماري نفسها ، مرغمة ، مع هذا الفريق المتجه ، مثلها ، الى سان جيمس والذي حماها ، تلقائياً ، ضد أي نوع مـن الخطر ، ثم

تجرأ غالوب شوبين وقال لرئيس الفريق ان الحسناء التي معه هي صديقة «الفار».

وصل المسافرون الثلاثة الى سان جيمس عند الغروب وهي مدينة صغيرة ومرد اسمها يعود الى الانكليز الذين بنوها في القرن الرابع عشر ابان سيطرتهم على بريتانيا.

قبل دخولها الى المدينة شهدت الآنسة دو فرنوي مشهداً حربياً لم تعره التفاتاً خوفاً من افتضاح امرها. وهذا الخوف جعلها تحث الخطى، فقد رأت حوالي ستة آلاف فلاح مخيمين في حقل، وبذلاتهم الشبيهة ببذلات فلاحي البلرين المساقين للتجنيد تنفي عنهم كل صفة حربية، وكان لا بد للناظر من الانتباه الشديد ليكتشف ان هؤلاء البريتونيين كانوا مسلحين لأن الجلود المفصلة بأشكال مختلفة كانت تخفي القسم الاكبر من البندقية، والسلاح الظاهر كان سلاحاً مزوراً أظهره بعضهم بقصد ابداله بأسلحة صالحة أصلية.

كان البعض منهم يشربون الخمرة ويأكلون، والبعض الآخر يتضاربون ويختصمون بصوت عال، إلا ان معظمهم كانوا نائمين على الارض بلا ترتيب ولا انضباط ومن بينهم ضابط بالبدلة الحمراء حسبته ماري من جماعة الانكليز، وبقربه ضابطان آخران يدربان بعض الناعقين على استعمال مدفعين هما، على ما يبدو نواة مدفعية الجيش الملكي العتيد.

بفضل الضوضاء التي نتجت عن وصول ابناء مارينيه، استطاعت الآنسة دو فرنوي ان تجتاز المكان وتدخل المدينة بسلام. هناك نزلت في فندق صغير قريب من المنزل الذي تقام فيه الحفلة. كانت المدينة تعج بالوافدين فلم تحصل، رغم كل الجهود، الا على غرفة صغيرة في ذلك الفندق. اما غالوب شوبين، فبعد ان سلم فرانسين العلب المحتوية على ادوات زينة سيدتها، وقف وقفة انتظار وحيرة الى ان اخذت الآنسة دو فرنوي من حقيبتها اربعة دنانير من فئة الستة فرنكات وقدمتها له قائلة:

— خذها. وسأكون عظيمة الامتنان لو عدت في الحال الى فوجير دون ان تمر في المخيم ودون ان تذوق الخمرة.

دهش الناعق لكرم الآنسة دو فرنوي ، وبعد ان نظر ملياً الى الدنانير ، اتت بحركة من يدها فتوارى .. عندها قالت فرانسين لسيدتها :

– كيف تستغنين عنه ؟ أما رأيت حالة المدينة وكيف نعود الى فوجير ؟ ومن يحمينا ؟

– بسلامة شفيعك .. قالت الآنسة دو فرنوي ذلك وصفرت بقوة على طريقة مارش آتير وهي تقلد حركاته . فاحمر وجه فرانسين خجلاً وهي تبتسم بكآبة لجذل سيدتها ومرحها . وسألتها :

– وأنت ، أين هو شفيعك ؟

جواباً على هذا السؤال ، استلت ماري خنجرها وعرضته على نظر فرانسين فتراجعت الصبية الى الوراء مرتعبة وسألتها بتوسل :

– ترى عن اي شيء جئت تبحثين هنا ؟

تشاغلت الآنسة دو فرنوي عن الجواب باحاطة رأسها باغصان الآس وقالت :

– ترى كيف تبدو هذه الأغصان على شعري ، اجميلة هي ؟ وهل يستطيع وجه بوضاءة وجهي ان يتحمل تسريحة ثقيلة كهذه ؟ ما رأيك يا فرانسين ؟

مثل هذه التساؤلات وغيرها ، دلت على سجية هذه الفتاة الفريدة من نوعها . فالذي يراها وهي تكيف زينتها ، يصعب عليه ان يقدر خطورة تلك اللحظات في حياتها .

ارتدت فستاناً من الموسلين الهندي على امتداد قامتها ، مظهراً تكاوين جسمها بدقة ، ثم لبست فوقه معطفاً احمر كثير الكسرات طويلاً ومخصوراً يحدد خصراً انيقاً مياساً ، انها ملابس كاهنة وثنية كانت تسمح ازياء تلك الأيام للنساء بارتدائها ولو كانت اقل حشمة من سائر الازياء ، ولكي تخفف من اباحية ثوبها هذا ، غطت كتفيها العاريين بقماش ابيض شفاف . وفتلت جدائل شعرها بطريقة تجعلها تشكل وراء رأسها قبعاً مخروط الشكل يضفي على الوجه روعة بعض التماثيل القديمة ، مع خصل معقربة بشكل خواتم على الجبين ربطت بعضها وأرسلتها برشاقة على جانبي الوجه .

وبعد انتهائها من صنع هذه التسريحة التي يعجز عن صنع مثلها امهر المزينين وضعت على رأسها اكليل الآس – الذي تنسجم حباته الحمراء مع معطفهـــا الأحمر . وتطلعت في المرآة متأملة بمجموعة زينتها ومقدرة تأثيرهـــا ، ثم هتفت بغرور ودلال كانها محاطة بالمعجبين :

– يا لي من قنبلة هذا المساء ! ابدو وكأنني تمثال الحرية .

ووضعت خنجرها في عبهـا تاركة قبضته المرصعة بالياقوت ظاهرة لتجتذب بانعكاساتها الحمراء الاعين الى ثدييها اللذين دنستهما عدوتها بصفاقة ولؤم في وقت غير بعيد .

وفرانسين ، تلك الخادمة الأمينة لم تشأ ان تترك سيدتها تذهب بمفردها الى الحفلة، واذ رأتها تتجه نحو الباب، وجدت الحجة لمرافقتها: لترفع عنها معطفها ، لتنزع من قدميها الحذاء الملوث بوحل الطريق، ولترفع طرحة الشاش التي أخفت رأسها عن أعين الناعقين الشرهة ، ولقد كان عدد الحضور كبيراً فسارتا وسط سياجين من البشر .

واذ وصلتا الى المنزل، لم تحاول فرانسين بعد ان أدت لها الخدمات اللازمة، ان تتبعها ، بل بقيت في الساحة تراقبها بعين ساهرة لتتمكن من نجدتها عنـــد الحاجة لأن البريتونية الوفية لم تكن تتوقع سوى المصائب .

فيما كانت ماري متجهة الى صالة الحفـلة ، حصل في شقة مونتوران حادث غريب ، فمـا كاد المركيز ينتهي من ارتداء ملابسه الرسمية ويضع الوشاح الذي يميزه ويدل الناس على انه هو الشخصية الاولى في هذا الحفل ، حتى دخل عليه الاب غودن مذعوراً وقال له :

– يا سيدي المركيز ، اسرع .. انت وحدك تستطيع ان تهدىء العاصفة . الرؤساء في غليان. انهم يهددون بالاستقالة من خدمة الملك، في ظني ان ذلك الشيطان «ريفويل» هو السبب، وكل هذه الخصومات نتجت عن حماقة ارتكبتها مدام دو غوا ، فقد أنبت الرجل على مجيئه الى الحفلة بزي غير أنيق .

– انها لمجنونة ، حقاً هذه السيدة ! قال المركيز .

واردف الاب غودن قائلاً :

– ان الشيفالييه دو فيسار يطالب بالمال الذي وُعد بـه باسم الملك ، ويزعم انه لو كان تسلمه لـ ...

– كفى ، كفى ، ايها المحترم ، لقد فهمت الآن ، انك تؤيد هـذا الخصام وانت سفير المطالبين ...

– أما من جهتي يا سيدي المركيز فانا مستعد ان ادعمك بكل قواي آملاً ان تأخذ بعين الاعتبار بان مسألة اعادة بناء كنائسنا في فرنسا واعـادة الملك الى عرش آبائه هي، بالنسبة لي اعمـال متواضعة اهم بكثير من أبرشية رين التي ...

انقطع الكاهن عن متابعة الكلام تهيباً عندما لحظ ان المركيز ابتسم ابتسامة مريرة ارفقها بتقطيب حاجبيه ، وقاد الاب غودن الى الصالة حيث احتدم الجدال وحيث سمع ريفويل يقول :

– انني لا اعترف بسلطة احد هنا .. فرد عليه المركيز ببرود :

– لعلك تعترف بسلطة التروي .

لزم الشيفالييه دوفيسار المعروف باسم « ريفويل » الصمت امام القائد الاعلى. وتفرس « الفار » في وجوه الحاضرين وسألهم عما جرى .

ارتبك احد كبار المهربين ، كما يرتبك اي رجل من الشعب امام احد كبار السادة ثم يعود فلا يرى فيه أي ميزة عندمـا يتجاوز الحدود التي تفصله عنه فقال :

– الذي جرى يا سيدي المركيز هو انك اتيت بالوقت المناسب ، انني لا احسن تنميق الكلام ولذلك اتكلم على سجيتي . لقد قدت خمسمائة رجل طوال الحرب الأخيرة . ومنذ ان حملت السلاح استطعت ان اجد لخدمـة الملك الف رجل بالف رأس عنيد كرأسي . وها قـد مضت سبع سنوات وانا اخاطر بحياتي من اجل القضية الكبرى . انا لا امنن ، انما كل تضحية تستحق اجراً . ولذلك اطالب ، في البداية ، برتبة كولونيل والا فساساوم القنصل الاول على خضوعي له . اننا يا حضرة المركيز ، رجالي وانا ، رازحون تحت سلطة سلطان لا يرحم ، الا وهو البطن .

حاول المركيز ان يتملص من الجواب فسأل مدام دو غوا بلهجة ساخرة :
– هل اقبل عازفو الكمان ؟
غير ان المهرب كان قد أثار قضية على جانب كبير من الخطورة على مسمع من زملائه الذين كان لهم مطالب يعرضونها ويتوقعون تحقيقها . واذ لاحظ الشفاليه الشاب ان مونتوران يحاول الانسحاب ، انتصب امامه وامسك بيده ليجبره على البقاء وقال له :
– انتبه يا سيدي المركيز ، انك تعامل باستخفاف الرجال الذين لهم بعض الفضل على ذلك الذي تمثله هنا . اننا نعلم ان صاحب الجلالة اعطاك سلطة مطلقة في تقدير خدماتنا التي ينبغي ان تلاقي جزاء في هذا العالم او في الآخرة . ان المقصلة معدة لنا دائماً ، اما فيما يخصني فانني اعرف ان رتبة المارشالية ..
– تقصد ان تقول رتبة كولونيل ...
– كلا ، يا سيدي المركيز ، لقد اطلق « شاريت » على لقب كولونيل ، اما الرتبة التي تكلمت عنها فلا يمكن ان أنالها ، انني لا ارافع الآن لنفسي ، بل لجميع زملائي في السلاح الذين يجب النظر في خدماتهم ، يكفيهم اليوم توقيعك على وعود ... اعتقد انهم يكتفون بالقليل منها : الرحمة لعائلاتهم ، ومخصصات لأراملهم ، وإعادة ممتلكاتهم المصادرة .. وبذلك يا حضرة المركيز لا تكون الخدمات التي أدوها قد ذهبت سدى .. انني لا اتحدى الملك على الاطلاق ، ولكني أتحدى وزراءه وعملاءه الذين يسرون في أذنيه اعتبارات شتى عن الصالح العام ، وعن شرف فرنسا ومصالح التاج الخ .. ثم يهزأون بابن قائده الموالي او بناعق نشيط عندنا يشيخ ويضعف دون ان يستفيد شيئاً من القضية التي كرس حياته من اجلها ، أترانا مخطئين يا سيدي المركيز ؟
– انك تحسن الكلام يا سيد دوفيسار ، ولكنك تستبق الوقت .
وقال الكونت « دو بوفان » بصوت هادىء :
– في رأيي ان المسيو ريفول مهّد بتوطئة حسنة لأمور مهمة ، انك متأكد من ان الملك يصغي اليك مهما قلت له ، اما نحن فلا نرى سيد البلاد إلا من بعيد ، واني

اصارحك القول بانني ، اذا لم تقطع لي وعداً صادقاً بتسليمي الادارة العامة لشؤون المياه والأحراج سأمتنع عن القيام باي تضحية. ان انتزاع النورماندي للملك ليس بالأمر الهين . آمل ان انال من اجل ذلك رتبة ... ثمة وقت للتفكير في هذا الشان ، ارجو ان تتحدث عني امام الملك وتقول له ما سمعته مني الآن .

وهكذا اخذ كل رئيس يعرض على المركيز مطالبه ، لقاء خدماته للملك . احدهم طلب ، بتواضع رئاسة حكومة بريتانيا وآخر طلب بارونية . هذا يريد رتبة كذا، وذاك قيادة كذا.. الجميع طالبوا بمخصصات ، ما عدا البارون دو غونيك فالتفت نحوه المركيز وساله :

– وانت يا بارون ، ألا تطلب شيئاً ؟

– لم يترك لي هؤلاء السادة شيئاً اطالب به سوى تاج فرنسا ...

وخاطب الاب غودن الرؤساء ، بصوت هادر، بقوله :

– ان كنتم ، أيها السادة مستعجلين الى هذا الحد ، فانكم تفسدون كل شيء في يوم النصر .. يومذاك ، ألا يكون الملك مجبراً تجاه التحرريين بمنحهم بعض الامتيازات وتحقيق شيء من مطاليبهم ؟ فأجابه ريفوبل بنزق :

– مطاليب للثوريين اليعاقبة ! آه ! لو ان الملك يطلق يدي لاستخدمت الألف رجل الذين معي لشنق « اليعاقبة » فنتخلص منهم .

وقال المركيز مخاطباً دو فيسار :

– أرى بعض الاشخاص المدعوين يدخلون ، وعلي ان أهتم بهم وأوليهم الكثير من رعايتي لأحملهم على التعاون معنا في قضيتنا المقدسة ، وأنتم تعلمون ان الوقت ليس للنظر في مطاليبكم وان كانت عادلة .

قال المركيز ذلك وانطلق نحو الباب ، إلا ان المهرب الجريء تصدى له وقال بأدب :

– كلا ، كلا يا حضرة المركيز ، ارجو المعذرة عما بدر مني ولكن اليعاقبة علمونا سنة ١٧٩٣ مثلاً يقول : ان الحاصد لا يأكل الكعكة ، وعليه وقع هذه الورقة وغداً آتيك بألف وخمسمئة رجل ، وإلا تعاملت مع القنصل الاول .

نظر المركيز حوله بكبر فلاحظ ان جرأة الانصار التي بلغت حد الجد

نالت موافقة جميع الذين حضروا المناقشة .. رأى في احـدى الزوايا الميجور بريغو ، الرجل الوحيد الذي لم يشترك في هذا النقاش ، يعبىء غليونه بعصبية تنم عن احتقار زائد للمتكلمين فقال له المركيز :

– وانت ، ماذا تطلب ؟

– عودة الملك .. هـذا ما يسرني .

– اما من طلب آخر ؟

– آه ! سيدي .. يسرني ان اراك ضاحكاً .

صافح المركيز يد هذا البريتوني وقال لمدام دو غوا :

– قد يمكن ان أموت قبل ان أتمكن من تقديم تقرير عادل للملك عن جيوشه الكاثوليكية في بريتانيا ، فاذا أتيح لك ان تشهدي عودة الملك فلا تنسي هذا الرجل الشهم ولا البارون دو غونيك ، انهما اشد اخلاصاً للقضية من جميع هؤلاء الناس ..

قال ذلك وهو يشير الى الرؤساء الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ان يلبي المركيز طلباتهم ، وكل منهم يحمل ورقة تتضمن اشادة بالخدمات التي أدوها في الحروب السابقة من قبل القادة الملكيين . والجميع يتذمرون . وفي وسطهم الاب غودن والكونت دو بوفان والبارون دو غونيك يتشاورون في مساعدة المركيز على كبح جماح الطلبات المبالغ فيها . وذلك بعد ان لاحظوا حزج موقف الرئيس الشاب .

وفجأة ، تطلع المركيز في المجتمعين وقال بصوت جلي :

– ايها السادة ، لست أعلم اذا كانت السلطات التي منحنيها الملك تخولني حق تلبية طلباتكم ، لعل الملك لم يتوقع منكم كل هذا الاخلاص وكل هـذه الغيرة ، سأعرض عليكم صلاحياتي ، فلعلي استطيع ان أتمّمها .

ثم غاب لحظة ليعود وفي يده ورقة مفتوحة عليها خاتم الملك وتوقيعه وقال :

– هاكم الرقيم الملكي الذي يفرض عليكم اطاعتي . وهو يخولني حق الحكم على كلٍ من مقاطعات بريتانيـــا ونورمانديا ومايان ولنجو ، باسم الملك ، وحق التنويه بخدمات الضباط الذين يبرزون في جيوشه .

وهنا حصلت حركة رضى وابتهاج وتقدم الناعقون نحو المركيز وتحلقوا

حوله معلقين ابصارهم في توقيع الملك ، وفي اللحظة القى المركيز اوراقه في النار فالتهمتها . وقال :

— لم اعد اريد الرئاسة الا على الذين يرون في المِلِكِ المِلِكَ ذاتــه وليس فريسة لابتلاعها .. أيها السادة . انتم احرار في ان تتخلوا عني .

عندئذ تحمس كل من مدام دو غوا والأب غودن والميجور بريفو والشفاليه دو فيسار ، فهتفوا : « عاش الملك » اما الباقون فقد ترددوا قليلاً قبل ان يكرروا هذا الهتاف ، الا انهم تأثروا بحركة المركيز النبيلة فتوسلوا اليه ان ينسى ما بدر منهم مؤكدين له انهــم يعتبرونه رئيساً عليهم بدون اوراق اعتماد . وخاطب الكونت دو بوفان بقوله :

— فلنرقص ايها السادة وليكن ما يكون ، من الافضل لنا ان نتوجــه بمطالبنا الى الله قبل قديسيه ، لنقاتل اولاً وسنرى ما يكون .. وقال بريفو لغونيك :

ـ « الحق معه . لا تطلب اجرة النهار في الصباح .

وتفرق الحضور في الصالونات حيث تجمع بعض الاشخاص . وعبثاً حاول المركيز ان يتخلص من العبوس الذي علا وجهه . كما ان الرؤساء لاحظوا الاثر السيء الذي تركه تصرفهم على شاب يخالط اخلاصه ووفاؤه للملك احلام الشباب الغض فخجلوا من نفوسهم .

وساد المرح ذلك الاجتماع المؤلف من اشد الاشخاص طموحاً في الحزب الملكي ، من الذين لم يسبق لهم ان شهدوا ، في مقاطعة عاصية ، احداث الثورة ، والذين كانوا يعقدون اطيب الآمال على الوقائع . فالمعارك الجريئة التي بدأها مونتوران باسمه وبثروته وقدرته ألهبت النفوس وسببت غلياناً سياسياً لا مثيل له ، لا ينطفىء إلا في طوفان من الدم المسفوك بلا فائدة. فالثورة ، بالنسبة للأشخاص المجتمعين ، ليست أكثر من اضطراب عابر في مملكة فرنسا ، حيث لم يتغير شيء بالنسبة اليهم . فالأرياف الفرنسية ما برحت تناحر آل بوربون ، والملكيون ما برحوا مسيطرين كما كانوا منذ اربع سنوات . وما حصل عليه « هوش » هو هدنة لا

سلم دائم، والنبـــلاء يستخفون بالثورة. وبونابرت هو بالنسبة لهم « مارسو » آخر ، أوفر حظاً من سلفه .. ثمة بضعة رؤساء فقط كانوا قد قادوا المعارك ضد الزرق، كانوا يعرفون خطورة الموقف القائم،انما يأبون ان يحدثوا رفاقهم عن قوة القنصل الاول واتساع نفوذه علماً منهم بأنهم لن ينالوا أذناً مصغية من الجميع .. هؤلاء كانوا يتحدثون وهم يتطلعون في النساء ببرود اللواتي ينتقمن من الثورة بانتقاد بعضهن البعض ... في حين كانت مدام دو غوا تحـاول ان تخفف ضجر المدعوات بتوجيه عبارات الاطراء المعهودة لكل منهن باستمرار .

وبعد لحظة، اذا بآلات الموسيقى تصدح بألحان متوازنة في موسيقى صاخبة، واذا بالمركيز يطل وعلى وجهه أثر من الكآبة . فاستقبلته مدام دو غوا بقولها :

– في اعتقادي ان الخلاف العادي بينك وبين هؤلاء السادة لا يدعو الى كل هذا الحزن .

لم يرد المركيز عليها بكلمة .. فقد كان مستغرقاً في تفكيره ، مستخلصاً مما جرى بعضاً من الاسباب التي من اجلها طلبت منه ماري في فيفتيير ان يتخلى عن هذه الحرب الوخيمة العواقب، إلا انه، وهو الشاب الابي النفس القوي الايمان، قرر الاستمرار في مهمته بشجاعة رغم كل العراقيل ، ورفع رأسه بإباء ، ليسمع مدام دو غوا تقول له :

– لا بد ان تكون افكارك قد شردت الى فوجير في هـــذه اللحظة . آه يا سيدي . اضحي بدمي بين يديك لاراك سعيداً « معها ».

ـ لماذا ، اذن ، اطلقت عليها الرصاص ؟

ـ لانني اردتها اما ميتة او بين ذراعيك، أجل يا سيدي ، لقد احببتك يوم كنت اعتقد انك بطل . أما الآن ، فلا تربطني بك سوى صداقة اليمة ، لا سيما بعد ان رأيتك تكفر بالامجاد من أجل قلب فتاة من فتيات الاوبرا، فقال :

ـ انك تسيئين فهمي ، فاذا احببتُ هذه الفتاة فهذا لا يعني انني رغبت فيها لنفسي ، ولو لم تكلميني عنها الآن لما خطرت في بالي .

ـ ها هي ! .. صرخت مدام دو غوا .

التفت المركيز بلهفة أثارت استياء تلك المرأة المسكينة التي راحت تراقب على ضوء الشموع الساطع اقل التغييرات التي تطرأ على وجـــه الشاب المحبوب بعنف على أمل ان تكتشف شيئاًمن الأمل لعودته اليها. واذ مال المركيز برأسه نحو الفتاة ، اطلقت مدام دو غوا ضحكة عالية فسألها الكونت دو بوفان عن سبب ضحكها فقالت :

– اضحك على فقاعة صابون تبخرت ! فالمركيز يشعر الآن بالندم ويلوم قلبه لانه اخفق امام بنت تدعي انها الآنسة دو فرنوي .

– بنت ؟! صاح الكونت دو بوفان بلهجة معاتبة واستأذن قائلاً : على مرتكب هذا الخطأ ان يصححه . اقسم بشرفي انها فعلاً ابنة الدوق دو فرنوي .

وهنا تصدى له المركيز قائلاً بصوت متهدج :

– اي قسم نصدقه ؟ قسمك في سان جيمس ام قسمك في فيفتيير ؟

ارتفع صوت يعلن قدوم الآنسة دو فرنوي فانطلق الكونت نحو البـاب ، اعطى يده للقادمة الحسناء باحترام زائد . واخذ يعرف عليها الجمهور الذي دهش لجمالها. واذ اصبح واياها امام المركيز ومدام دو غوا قال للرئيس الشاب جواباً على سؤاله .

– لا تصدق سوى قسمي هنا في سان جيمس ..

امتقع وجه مدام دو غوا بلون التراب لدى رؤيتها تلك الفتاة المشؤومة التي ظلت واقفة تجيـل النظر في المجتمعين باحثة بينهم عن ضيوف فيفتيير ومتوقعة تحية قسرية من عدوتها اللدودة . ثم ، دون ان تلتفت نحو المركيز ، مشت الى جانب الكونت دو بوفان فأجلسها بالقرب من مدام دو غوا التي أدت لها تحية باردة من قبيل الوقاية، واتخذت حيالها مظهراً ودياً مرحاً . اما سائر الموجودين في الحفلة ، فقد انتابهم الذهول امام جمالها الصارخ وأناقتها الفائقة الوصف الى حد ان المركيز ومدام دو غوا ، عندما التفتا نحو ضيوف فيفتيير وجداهم في موقف فيه اعجاب وخشوع لا تكلف فيه . كل واحد من هؤلاء كان يبحث عن وسيلة للتقرب من الباريسية الحسناء .

بدأت مدام دو غوا الحديث مع ماري بالعبارة التالية :

– انه لمن السحر يا آنسة : ليس غيرك في العالم من يجرؤ على مفاجأة النـاس بهذا الشكل ، كيف جئت الى هنا وحدك ؟

– اجل ، وحدي اتيت هذه المرة ، بذلك لا تجدين من تقتلين سواي ..

– رحماك . انك لا تستطيعين ان تتصوري كم قاسيت من ذكرى اخطائي نحوك ، ولطالما بحثت عن وسيلة لاصلاح ما بدر مني ، وانني لسعيدة جـــداً برؤيتك ثانية ..

– من جهة اخطائك، يا سيدتي، فانني أغفرما لحق بشخصي منهـا بسهولة . انمـا الذي يثقل على قلبي هو موت الزرق الذين قتلتِ .. ايه ! لا بأس ، اغفر لك كل شيء من اجل الخدمة التي اديت لي .

قالت ماري ذلك ومدت يدها مصافحة عدوتها بابتسامة مريرة جعلت مدام دو غوا حقيرة تجاه نفسها ، والمركيز الذي بقي حتى هـذه اللحظة جامداً في مكانه ، ضغط على ذراع الكونت وقال له :

– لقد خدعتني بنذالة وطعنتني في شرفي ، فإلى المبارزة ، اما ان تقتلني او اقتلك .

– سيدي المركيز ، انني على استعداد لأوضح لك كل شيء .

انسحب الرجلان الى غرفة مجاورة للتفاهم ، واستأنفت مدام دو غوا حديثها مع ماري ، فقالت وهي تكظم غيظها :

– اي خدمة خطيرة حصل لي الشرف ان أؤديها لك يا آنسة ؟

– يكفي انك اهديتني الى حقيقة اخلاق المركيز دو مونتوران ، ذلك الرجل المقيت الذي اسلمني للموت . انني اتركه لك بملء ارادتي .

– عمّ جئت تبحثين هنا ، اذن ؟

– جئت ابحث عن التقدير والاعتبار اللذين سلبتني في فيفتيير ، اما ما تبقى فاطمئني .. فاذا رأيت المركيز يعود الي فاعلمي ان العودة ليست عودة حب .

سرت مدام دو غوا لدى سماعها هذا الكلام فاخذت بيد الآنسة دو فرنوي

وبلطف زائد ولهجة ودية قالت لها :

– احسنت يا صغيرتي ، يسرني ان اراك عاقلة.. واضافت قائلة وهي تضغط على يدها وبودها لو سحقتها :

– « اديت لك خدمة قاسية واحب الآن ان اكملها ، فاسمعي يا آنسة : ان المركيز كان يخدعك ، فهو لا يريد الزواج ، أو بالأحرى لا يستطيع . ـ آه ؟!

– أجل يا آنسة . انه لم يتعهد بمسؤوليتـه الخطرة الا ليستحق يد الآنسة دو كسيل . هو زواج مصلحة ، وعد الملك بتأييد المركيز ان تحقق .

أطلقت الآنسة دو فرنوي صيحة الدهشة :

– آه ! دون ان تزيد عليه كلمة واحدة . وكان الشاب الجميل دو فيسار يتحين الفرصة للتعويض عن مزاحه في فيفتيير الذي ادى الى بدء الاهـــانات . فاقترب من الحسناء ودعاها باحترام الى مراقصته فمدت له يدهـــا وانطلقت لترقص في المربع الذي تظهر فيه مدام دو غوا ، وفي هذه اللحظة عاد المركيز والكونت الى قاعة الرقص ، ومرا من وراء الآنسة دو فرنوي فلم تلتفت اليهما. انما عرفت بوجودهما وراءها من المرآة الموجودة امامها . وحتى لو لم تكن تلك المرآة موجودة لعرفت ذلك من هيئة مدام دو غوا التي لم تحسن اخفاء تضجرها من طول انتظار اصطدام توقعت حصوله عاجلاً أم آجلاً بين الحبيبين . امـــا المركيز ، فقد استطاع وهو يتحدث مع الكونت ومع شخصين آخرين ، ان يسمع ما يدور بين الراقصين والراقصات من الاحاديث عن الآنسة دو فرنوي. قال احدهم :

– أي نعم يا سيدتي ، لقد جاءت بمفردها .
ـ ينبغي ان تكون جريئة الى حد كبير .
ـ لو كنت لابسة ثيابها لاعتقدت انني عارية .
ـ ليس في ثوبها شيء من الحشمة إنما هي جميلة ، والثوب يناسبها .
ـ انني استحي عنها في تأدية رقصتها . الا توافق بانها بنت اوبرا بحق ؟

ـ اتظن انها جاءت لتفاوض باسم القنصل الأول ؟

ـ هراء .

ـ ليس في وجودها هنا أي قصد بريء.

وهنا التفت المركيز فجأة ليرى تلك المرأة التي سمحت لنفسها باطلاق هذه الكلمة اللاذعة فاغتنمتها مدام دو غوا فرصة لتنظر اليه نظرة من يقول :

ـ ارأيت ما هو رأيهم فيها ؟

قال المركيز ضاحكاً :

ـ لا تأتيها الاهانة الا من النساء !

غفر المركيز ، ضمناً ، للكونت جميع اخطائه .. ولما خاطر بالقاء نظرة على حبيبته المتألقة تحت اضواء الشموع الساطعة ، ادارت له ظهرهـــا وهي عائدة الى مكانهـــا وراحت تتحدث مع مراقصهـا متعمدةً ايصال صوتها الى اذني المركيز .

قال لها رفيقها في الرقص :

ـ ان القنصل الاول يرسل لنا سفراء خطرين ! فأجابت :

ـ قيل مثل هذا الكلام في فيفتيير .

ـ ما اقوى ذاكرتك يا آنسة !

ـ على الذي يغفر ان يتمتع بذاكرة قوية .

وهنا سألها المركيز :

ـ وهل نحن جميعاً مشمولون بهذا العفو يا آنسة ؟

لم ترد عليه ، بل انطلقت ترقص بحماسة الاطفال ، تاركـة المركيز في حيرة لاحظت انه يتأملها وعلى وجهه مسحة من الكآبة فأحنت رأسها بظرف ودلال، على قدر ما سمحت بـه قبة معطفها ، ولم تبخل بأي حركة من حركات الاغراء وهي تتمايل بقدها المياس . لقد كانت تجذب كالأمل وتهرب كالذكرى ، ومـن يراها هكذا يود امتلاكها بأي ثمن . لقد كانت تعرف ذلك ويقينها بسحر جمالها أضفى على وجهها جاذبية فوق الوصف ..

وشعر المركيز في قلبه بعاصفة من الحب والهياج والجنون فضغط على يد الكونت وابتعد .

– أتراه ذهب ؟ سألت الآنسة دو فرنوي الكونت فدخل الغرفة المجاورة في الحال ليعود به اليها .

وقالت ماري في نفسها وهي تتأمل المركيز في المرآة المواجهة لها وقد تهلل وجهه ببارقة أمل : « انه لي .. » .

استقبلت المركيز دون ان تنطق بكلمة ، إلا انها لم تلبث ان ابتعدت وهي تبتسم له . لقد رأته متفوقاً الى حد جعلها تتباهى باذلاله وصممت ان تهبله بضع كلمات عذبة لتفرض عليه الثمن الغالي .

انتهت دورة الرقص وعاد نبلاء فيفتيير الى التحلق حول ماري وكل منهم يتوسل لغفران اساءته بكلمات التحبب والاطراء ، غير ان الذي أرادت ان تراه مرتمياً على قدميها لم يقترب ، فقالت في نفسها :

– يظن انني ما زلت أحبه ، ولذلك يأبى ان يختلط بالدخلاء .

في دورة الرقص الثانية رفضت باديء ذي بدء ان ترقص ، وكأن الحفلة أقيمت على شرفها ، اخذت تتنقل من مربع الى مربع متكئة على ذراع الكونت دو بوفان وقد شاقه ان ترفع الكلفة بينه وبينها .

وفي هذه الأثناء كانت مدام دو غوا تروي حادث فيفتيير للجميع آملة ان تضع صعوبة أخرى في وجه زواج المركيز وماري ، وبذلك سلطت انظار الجميع على الحبيبين ، ولم يكن مونتوران يجرؤ على التطلع الى ماري لشعوره باخطائه نحوها ولحبه العنيف لها ، وماري ، من جهتها ، كانت تسترق النظرات الى وجه المركيز وهي تتظاهر بأنها تتفرج على الراقصين . وقالت لمراقصها الكونت دو بوفان ان الحر شديد ، وطلبت منه ان يجلسها في مكان رطب لتستنشق الهواء ، وبحركة من رأسها دلته على الغرفة المجاورة حيث كان بعض اللاعبين. لحق المركيز بحبيبته وقد فهم مرادها في تحريك شفتيها واملى ألا تكون قد ابتعدت عن الجمهور إلا بقصد الاجتماع به وعلى هذا الاعتقاد اضطرم غرامه عنيفاً . وطاب

للآنسة دو فرنوي ان تتلاعب بعواطف الرئيس الشاب فحولت بصرها عن الكونت لتغرق نظراتها في عيني مونتوران ، فصعق وبذل جهداً كبيراً ليقول:

ـ ألا تسامحيني ؟ فقالت ببرود :

ـ الحب ، اما ان يغفر كل شيء ، او لا يغفر شيئاً .. المهم ان يكون هناك حب ...

قالت ذلك وعادت الى التعلق بذراع الكونت لتنطلق به الى صالة اللعب حيث لحق بها المركيز وقال لها :

ـ هل تريدين الاصغاء الي ؟

ـ انك تثير الاعتقاد بأني جئت من اجلك وليس لاسترداد اعتباري أيها السيد ، فاذا لم تكف عن ملاحقتك لي انسحبت من هنا في الحال .

ـ دعيني اكلمك بقدر ما تتحمل يدي هذه الجمرة الملتهبة .

قال ذلك وانحنى ليلتقط جمرة من الموقد ضغط عليها بعنف فامتقع وجه الآنسة دو فرنوي وبسرعة تخلصت من ذراع الكونت وتطلعت في المركيز مذعورة . واذ ذاك انسحب الكونت تاركاً الحبيبين وحدهما .

العمل الجنوني الذي اقدم عليه المركيز انتفض له قلب ماري ، وقالت له وهي تحاول انتزاع الجمرة من يده :

ـ انك تبرهن بعملك هذا على انك مستعد لأن تسلمني الى أقسى العذاب ، وانك متطرف في كل شيء ، فقد ارتبت بي انا التي خلصتك من الموت وكان بامكاني ان ابيعك ، وكل ذلك بناء على قسم معتوه وأكاذيب امرأة حقودة ..

فتبسم قائلاً :

ـ أجل ، كنت فظيعاً بحقك ولكن حاولي ان تنسي ذلك ، اما انا فلن انسى اساءتي نحوك ما حييت ، اصغي الي : لقد خدعت بصفاقة . لكن ظروفاً عديدة تجمعت ضدك في ذلك اليوم المشؤوم .

ـ تلك الظروف . هل كانت كافية لاطفاء حبك ؟

واذ تردد في الاجابة عن هذا السؤال ، اتت بحركة تنم عن الاحتقار ونهضت ، فهتف المركيز قائلاً :

ـ آه يا ماري ، لم اعد اصدق بانك ...

ـ القِ النار من يدك ، أمجنون انت ، افتح يدك . سالتك ان تفتح كفك .

طاب للرئيس ان يبذل بعض المقاومة لجهود عشيقته في محاولتها فتح يده بالقوة رغبة منه في المزيد من الاستمتاع بضغط انامله الناعمة على يده ، الا انها استطاعت اخيراً ان تفتح تلك اليد التي ودت لو تقبلها . وكان الدم قد اطفأ الجمرة .. وقالت :

ـ ماذا افادك كل ذلك ؟ . ثم اخذت منديلها وربطت به الجرح ثم غطاه المركيز بقفازه .

وفي هذا الوقت وصلت مدام دو غوا على مهل الى صالة اللعب . فالقت نظرة خاطفة على الحبيبين وانسحبت قبل ان يراها احد ، الا انها لم تعرف محور الحديث بينهما .

قالت الآنسة دو فرنوي :

ـ « اذا كان كل ما قيل لك عني صحيحاً ، اعترف الآن بانك تأخذ بثاري .

ـ باي نية اتيت الى هنا ؟

ـ يا طفلي العزيز ، هل تظن ان اهانة امرأة مثلي سهلة بهذا المقدار ؟ لقد جئت الى هنا من اجلك ومن أجلي .

وتابعت ماري حديثها :

ـ انك ما زلت تحبني . وفي الحماقة التي ارتكبتها الآن دليل على ذلك ، لقد عدت كما شئت ان اكون . وسارحل وأنا سعيدة . حسبي انني ما زلت محبوبة واني استعدت اعتبار من احب وتقدير الرجل الذي يمثل العالم باسره في نظري ، الآن بامكاني ان اموت . هنا هتف المركيز :

ـ اذن فانت تحبينني ؟

ـ هل قلت لك ذلك ؟ اما اقتضى علي ان ابذل التضحيات للمجيء الى

هنا ؟ لقد خلصت الكونت دو بوفان من الموت، فكان اكثر براً بي منك اذ قدم لي ، لقاء ذلك ، حمايته وثروته واسمه . وانت لم تفكر بشيء من ذلك .

اثارت هذه الكلمات المركيز لكنه كظم غيظه وكبح جماح الغضب العنيف الذي احتدم في نفسه وظن ان الكونت خدعه ، فلم يحر جواباً . فقطعت الآنسة دو فرنوي مجرى تفكيره بقولها وهي تبتسم .

ـ اراك تفكر في الموضوع ، فاجابها :

ـ ارتيابك بي يبرر ارتيابي بالكونت .

في هذه اللحظة لمحت ماري طرف فستان مدام دو غوا ، فنهضت طالبة من المركيز الخروج من المكان ، الا ان رغبتها في تعذيب عدوتها جعلتها تتردد في الذهاب وقد ضغط المركيز على يدها قائلاً :

ـ اتريدين ان تلقيني في جحيم من العذاب ؟ فاجابته على الفور :

ـ وانت ، الم تفعل بي مثل ذلك منذ خمسة ايام ؟ والآن ، الا تتركني في حمأة الشكوك حول اخلاصك لحبك ؟

ـ ولكنني لا اعلم هل كان انتقامك يدفعك الى حد الاستيلاء على حياتي كلياً بدلاً من قتلي .

وهنا احتدمت ماري غضباً وقالت والدموع تترقرق في عينيها :

ـ « انك لا تحبني ما دمت تفكر بنفسك لا بي .

لقد عرفت الحسنا، مدى قوة عينيها عندما تكونان مبتلتين بالدموع ! فقد هتف المركيز وقد جن جنونه :

ـ حياتي ملك يديك ، كفكفي دموعك !

ـ آه ! يا حبي العظيم . تلك هي الألفاظ التي انتظرتها لاوثر سعادتك على سعادتي ! ولكن ، يا سيدي ، اطلب منك برهاناً اخيراً على حبك . لا اريد البقاء هنا اكثر من الوقت اللازم لتعلن انك لي . انني لا اشرب حتى جرعة ماء في بيت تقيم فيه امرأة حاولت قتلي مرتين . ولعلها تتآمر الآن ضدنا . وها هي تصغي الى حديثنا باهتمام .

قالت ذلك وهي تشير باصبعها الى طيات فستان مدام دو غوا، ثم ، مسحت دموعهـا ومالت برأسها الى اذن المركيز الذي ابتهج بدغدغة نفسها المنساب في اذنيه اذ قالت له :

ـ أعدد كل شيء لرحيلنا ، سترافقني الى فوجير . هناك فقط تعرف هـل كنت أحبك ام لا . للمرة الثانية اضع ثقتي فيك فهل تثق بي انت مرة اخرى ؟

ـ آه يا ماري ! لقد وصلت بي الى نقطة لم اعد اعرف معها ماذا افعل ، لقد خدرتني بكلامك وبنظراتك وبك كلياً ، انني مستعد لتلبية طلبك .

ـ آه ! اعد اليّ السعادة لمدة وجيزة ، دعني أستمتع بالنصر الذي رجوت ، أريد ان اتنفس الصعداء كما أشاء في حياة طالما حلمت بها ، اريد ان اتحسس الآمال التي عقدتها قبل ان تتبدد ، هيا ، تعال نرقص معاً .

وعادا الى صالة الرقص .. وعادت الآنسة دو فرنوي الى غموضها وتكتمها، وقد غمر قلبها بالرضا وأشبع غرورها ، إلا ان عذوبة نظراتها وابتسامة ثغرها ورشاقتها في تأدية الرقص كانت تحمـل في طياتها سرّ مـا جرى بينها وبين حبيبها .

حين تهادت بين ذراعي حبيبها أطلق الحضور هتاف الاعجاب والتكبير للوضع الحميم البادي في تمايلها ، فقد كانا متلاصقين يتبادلان النظرات العاطفية المعبرة عن اقصى الرغبات في تحقيق حلم التلاقي الكامل.

وهنا التفتت مدام دو غوا نحو الكونت دو بوفان وقالت له :

ـ اذهب في الحال وابحث في المعسكر عن بيل ميش واحضره اليّ على عجل، لقاء هذه الخدمة البسيطة تراني مستعدة ان اهب لك ما تشاء، حتى يدي .

واذ ابتعد الكونت ، قالت تخاطب نفسها : « ان انتقامي سيكلفني غالياً ولكن ، لن اخطىء الهدف هذه المرة » .

بعد لحظات كانت الآنسة دو فرنوي والمركيز داخل عربة باربعـة جياد قوية ومعهما فرانسين التي راعهـا ان ترى هذين الشخصين المتخاصمين يداً في يد وعلى احسن ما يكون الوفاق . ولم تجرؤ على التساؤل ، هل كانت سيدتها تضمر

الحب ام تراءي فيه .

بفضل السكون وظلام الليل لم يلحظ المركيز اضطراب الآنسة دو فرنوي وهي تقترب من فوجير ، حتى انها ، لدى رؤيتها صخرة سان ليونارد قالت في نفسها سأموت لا ريب ! وكذلك فعل المركيز لدى وصولهما الى الربوة حيث ترجلا من العربة وقطعا مسافة مشياً على الأقدام كتذكار للقائهما الأول . وقد شكرت ماري الشاب لانه احترم صمتها . ثم ، بوصولهما الى قمة المنبسط حيث ظهرت لهما مدينة فوجير خرجت ماري من حلمها وقالت للمركيز :

ـ الى هنا ، وكفى ، قد لا ينقذك نفوذي من الزرق اليوم .

ابدى مونتوران بعض الاضطراب ، فابتسمت وامرته ان يجلس على الصخرة وبقيت هي واقفة تغمر وجهها سحابة من الكآبة ، لم يعد بامكانها اخفاؤها ، وبعد ان القت نظرة موجعة على حبيبها ، انطلق لسانها بهذه الاعترافات الأليمة :

ـ كل ما ساورك من شكوك بشأني صحيح ، ارجو ان تصغي الي بانتباه دون ان تقاطعني . انني ، فعلاً ، ابنة الدوق دو فرنوي ولكنني ابنته الطبيعة غير الشرعية . ووالدتي ، وهي آنسة من كاستوران ، دخلت الدير بثوب الرهبنة لتنجو من التنكيل الذي اعده لها افراد عائلتها ، وقد كفرت عن ذلتها بخمسة عشر عاماً قضتها بالعذاب والدموع . ثم ماتت في « سيز » ، وعلى فراش الموت فقط ذكّرت بي تلك الراهبةُ الغاليـة الرجلَ الذي خدعها وتخلى عنها وطلبت منه حمايتي وكانت تعلم انني بلا اصدقاء ولا ثروة ولا مستقبل . وذلك الرجل الذي كان ما برح يعيش تحت سقف والدة فرانسين التي اعتنت بي يوم ولادتي تناساني طفلة ولكنه عاد فاعترف بي لأنني جميلةاو ربما لانه كان يرى فيَّ شبابه . على كل ، انه والدي ، ولن اضيف شيئاً على ما ذكرت ، انما ارجو ان تدعني اوضح لك كيف ان حياة باريس كادت ان تفسد نفسي . فمجتمع والدي بالذات والمجتمع الذي ادخلني فيه ، كانا مأخوذين بتلك الفلسفة الهازئة التي انتشرت في فرنسا بفضل بلاغة الذين بشروا بها ، فلسفة قامت على المرئيات وعلى الاحتقار الضمني لكل ما يمت الى الدين والى الحقيقة بصلة ، اتباعها يهزأون بالمشاعر الحقيقية

ويتظاهرون بمشاعر لا يحسونها ، يعربون عنها بتعابير لاذعة ليس فيها شيء من طيبة النفس او سلامة الطوية ويأخذون الكلمة على غير مبناهـــا الحقيقي ويبنون عليها قصصاً وحكايات كاذبة . ويتعبون النساء بممارستهم الحب كفن لا كقضية قلب .

لقد كانت مقاومتي لهذا التيار ضعيفة في حين كانت نفسي الشغوفـة اعجز من ان تدرك ان العقل المزعوم قد جرد القلوب من كل عاطفة، غير ان الحياة التي عشتها اسفرت عن كفاح مستمر بين عواطفي الطبيعية وبين العادات المعيبة التي مارستهـا .

ثمة اناس متفوقون راقهم ان ينمّوا فيّ الروح التحررية واحتقار الرأي العام القائل بالزام المرأة حدود الحشمة والحياء حتى لا تفقد جمالها وجاذبيتها وانوثتها.

وتنهدت الآنسة دو فرنوي من اعماق قلبها وتابعت حديثها :

ـ ومات الدوق دو فرنوي بعد ان اعترف بي. وزودني بوصية انقصت كثيراً من ثروة شقيقي ، ابنه الشرعي ، وبعد وفاته وجدت نفسي بلا مـــأوى وبلا حماية . وقد اعترض شقيقي على الوصية التي صيرتني ثرية .

الثلاث سنوات التي امضيتها مع عائلة ثرية كانت كافية لتنمية روح الغرور في نفسي ، ووالدي، بتلبيته جميع طلباتي، جعلني اعيش حياة الترف وامارس عادات لم تكن نفسي الفتية البريئة تقدر اخطارها وويلاتها .

ثمة صديق لوالدي عمره سبعون سنة يدعى المرشال دوق دو لينتكور عرض علي وصايته فقبلت ، وهكذا وجدت نفسي بعد بضعة ايام على بدء تلك الدعوى البغيضة التي أقامها شقيقي ضد وصية والدي لي ، في منزل فخم استمتعت فيـه بكل ما حرمني منه شقيقي بفظاظة . وكان المرشال العجوز يأتي كل مساء ويمضي معي بضع ساعات يسمعني خلالها كلمات التعزية والملاطفة . كان يحنو علي كأب وكنت ، بدوري أعطف عليه وأعتبر نفسي ابنته ، وكنت أتقبل منه الملابس الثمينة التي يقدمها لي، ولم أكن اخفي عنه أي رغبة من رغباتي طالما كان يجد في تلبيتها مسرته ومرضاته .

ذات مساء علمت ان كل باريس تحسبني عشيقة لذلك العجوز المسكين ، وثبت لدي انني اعجز من ان ازيل هذه التهمة الفظيعة عني .

هـذا الرجل الذي استخدم براءتي ليخدعني لم يكن بامكانه ان يكون لي عشيقاً ولا اراد ان يكون زوجي ، ففي عشية اليوم المحدد لزواجنا ، اذ ارتضيت بحمل اسمه فقط كتعويض عن سمعتي المشوهة ، تركني وفرّ هارباً الى كوبلنز . فطردت من البيت الذي لم يكن ملكه وانا مهانة مرذولة .

الى هنا قلت لك الحقيقة كما لو كنت في حضرة الله ، اما الآن فلا تطلب مني حساباً عن الآلام الدفينة في ذاكرتي . فذات يوم ، يا سيدي ، وجدت نفسي زوجةً لدانتون .. وبعد بضعة ايام اقتلعت اعاصير الثورة تلك السنديانة الضخمة التي كنت اطوقها بذراعي واجد الحماية فيها . واذ رأيتني غارقة في بحر من البؤس ، صممت على الانتحار ، ولكن ، لست ادري لماذا امتنعت . احباً بالحيـــاة ام أملاً في تذليل المتاعب والعثور في لججها على سعادة خفيـــة ، ام لأنني اخذت بنصيحة شاب من « فاندوم » تعلق بي منذ سنتين كما تتعلق الافعى بجذع شجرة معتقداً ان أي مصيبة عظمى تلحق بي كفيلة بأن ترميني بين يديه . واخيراً ، لست ادري كيف قبلت ، لقاء ٣٠٠ ألف فرنك من الذهب ، ان اذهب في مهمة بغيضة قضت بأن اسلم مجهولاً احبني ، هو انت يا سيدي . لقد رأيتك وعرفتك بحاسة لا تخدع قط ، ومع ذلك خامرني الشك .. اذ ، بقدر ما احببتك رأيت الحقيقة موجعة . ففي انقاذي حياتك من يدي هولو ، تنكرت لمهمتي وصممت ان اخدع الجلادين بدلاً من خداع ضحيتهم ، لقد ارتكبت خطأ بتلاعبي هكذا بالرجال ، بحياتهم ، بسياستهم وبنفسي انا الفتاة التي لا ترى في العالم سوى العواطف . لقد حسبتني محبوبة وذهبت في عواطفي الى حد الامل بتقويم حياتي من جديد ، ولكن ، كل شيء ، حتى نفسي ، كشف عن خلل حياتي الماضية ، فقد كدت انت بالذات تتنكر لفتاة عاطفية مثلي ، ويلاه ، من ذا الذي يشفع بحبي وبمراءاتي ؟ اجل ، يا سيدي ، يبدو لي انني استيقظت ، على كابوس موجع ، وبيقظتي وجدتني وكأنني عدت كما كنت في السادسة عشرة من عمري . خيل الي ان بامكان الحب ان يعمدني بالبراءة

وحسبت نفسي لبعض الوقت ، عذراء طالما اني لم احبب احداً بعـد ، غير اني عرفت مساء امس صدق حبك لي ، فلم أشأ ان اخدعك .

واردفت قائلة بلهجة توسل ممزوج بالكبرياء :

ـ اعلم يا سيدي انني فتاة مثلومة الشرف غير جديرة بك. هاأنذي في هذه اللحظة عائدة الى ممارسة دور البنات الضائعات ، لقد تعبتُ من تمثيل دور امرأة نعتـّها بكل ألقاب القداسة ، الفضيلة هي عبء عليّ واني احتقرك اذا بلغ بك الضعف حد الزواج مني ، ان ذلك حماقة قـــد يرتكبها الكونت دو بوفان ، اما انت يا سيدي ... فكن جديراً بمستقبلك وبمركزك ودعني وشأني بلا اسف . المرأة المستباحة تطلب كثيراً،وحبها لا يختلف عن حب فتاة بسيطة بريئـة استمتعت لفترة من الزمن بأمل عذب هو ان تكون رفيقتك وان تجعلك سعيداً ، ان ترفع شأنك ، ان تصبح نبيلة ، ان ترتفع الى مستواك ، ان تكون زوجة عظيمة . الى ان استخلصت من هذه العاطفة الجرأة على ابراز طبيعتها السيئة لتضع فاصلاً ابدياً بينك وبينها، انني اضحي من اجلك بالشرف والثروة وأكتفي من هذه التضحية بالذكرى في تعاستي وبؤسي . لن اسلمك قط ، سأعود الى باريس حيث احيـــا بذكرك ، اما انت ، فستنساني ، الوداع ..

قالت ذلك وانطلقت في طريق وادي سان سولبيس وتوارت قبل ان يتمكن المركيز من النهوض لامساكها ، الا انها رجعت على اعقابها لتختبىء في فجوة صخرة وتراقب المركيز دون ان يراها فرأته يسير بخطى ثقيلة وعلى غير هدى كرجل مثقل بالهموم ، واذ ابتعد عن المكان تساءلت :

ـ اتراه يلين ؟ اتراه يفهمني ؟ ثم ارتعشت ومشت بخطى واسعة نحو فوجير . واذ اجتمعت بفرانسين سألتها عما قال لها المركيز ، فأجابتها بقولها :

ـ الحقيقة يا ماري لقد احزنني ، انتن السيدات تقتلن الرجال بحد اللسان .

ـ كيف كانت هيئته وهو يتجاوزك ؟

ـ وهل تطلع الي ! آه يا ماري ! انه يحبك .

ـ آه ! سواء احبني أم لا . كلمتان منه هما بالنسبة لي النعيم او الجحيم وبين

هاتين النهايتين لا اجد مكاناً اضع فيه قدمي .

وهكذا بعد ان اكملت ماري اعترافها الرهيب وحددت مصيرها استسلمت للحزن الشديد ، وبعد ان كان وجهها يطفح ببسمات العواطف المختلفة اربد بسرعة وفقدت معالم جمالها ونضارتها .

ولما كان هولو وكورنتان على عجل لمعرفة نتيجة عملها الجنوني ، جاءا اليها بعد وصولها الى منزلها بقليل فاستقبلتها ببشاشة وبادرت القائد هولو اذ لاحظت على وجهه علامة استفهام عريضة بقولها :

ـ سيعود الثعلب الى قرب مرمى بندقيتك ، وستحرز انتصاراً مجيداً .

ـ حسن . ماذا حصل ؟ سأل كورنتان ببرود وهو يحدج الآنسة دو فرنوي بنظرة ثاقبة مألوفة عند الدبلوماسيين الذين يتجسسون على الافكار ، فأجابت :

ـ ان « الغار » مغرم بي وقد حملته على مرافقتي حتى مدخل فوجير .

ـ يبدو ان مهمته توقفت عند هذا الحد وان خوف المركيز تجاوز الحب الذي توحينه اليه ، قال كورنتان .

وهنا رمته الآنسة دو فرنوي بنظرة ملؤها الازدراء وقالت :

ـ انك تحكم عليه بما فيك .

ـ اذن ، لماذا لم تأت به الى منزلك ؟

اجابت موجهة الكلام الى هولو ، بعد ان رمقته بنظرة خبيثة :

ـ لو كان يحبني حباً حقيقياً لأنقذته بارساله خارج فرنسا .

اقترب القائد العجوز منها، اخذ يدها وطبع عليها قبلة، ثم حدق الى وجهها وقال لها بلهجة صارمة :

ـ اراك نسيت صديقيّ الاثنين وال ثلاثة وستين رجلاً من الزرق المقتولين .

ـ لم يكن له ضلع في القضية، يا حضرة القائدة ، فقد تمت اللعبة بمعرفة امرأة شريرة هي عشيقة شاريت وبودها لو شربت من دماء الزرق .

اجاب كورنتان :

ـ كفاك سخرية بالقائد ، انه ليس على مستوى دعاباتك .

ـ اصمت .. واعلم جيداً ان اليوم الذي تغيظني فيه لا يكون لك بعده غد .
قال هولو :
ـ على كل حال ، ينبغي ان استعد للقتال .
ـ ليس بوسعك ذلـك ، فقد رأيت ٦٠ ألف رجل في سان جيمس ، فرقاً نظامية ومدفعية وضباطاً مدربين ، ترى ماذا يحل بهؤلاء بدونه ؟ اعتقد ان رأسه هو الكل في الكل .
ـ حسن ، متى يكون لنا رأسه ؟ سأل كورنتان .
ـ لست أدري .
قال هولو بغضب شديد :
ـ اذن ، فهناك ضباط انكليز !... كان ينقصه هـذا ليكون زعيم عصابة حقيقياً . انا الذي سآتيك بالانكليز ..
وقال موجهاً الكلام لكورنتان :
ـ يبدو لي ، أيها المواطن الدبلوماسي ان بامكان هذه الفتاة ان تضللك .
قال ذلك وهما على مسافة خطوات من البيت .
ـ ذلك شيء طبيعي يا حضرة القائد ، انك لم تفكر من وراء كلامها إلا بالنار . انكم ، انتم العسكريين تجهلون انه يوجد عدة اساليب للحرب ، كاستخـــدام عواطف الرجال او النساء وتحريكها لصالح الدولة . ووضع العجلات في هذه العربة الكبرى التي نسميها الحكومة و ..
ـ افعل ما شئت ، اما انا فاني افضل مهنتي على مهنتك ، انني لا اعترف برئيس علي سوى وزير الحربية . لدي اوامر ، وسأزحف بجنودي الى الريف ومجابهة العدو الذي تريد اخذه من الوراء .
ـ بامكانك ان تستعد للزحف ، ولكن . وفقاً لما فهمته من كلام الفتاة ، وان كان مبهماً ، ستقوم ببعض المناوشات ، في حين استطيع انا ان اضعك وجهاً لوجه مع رئيس العصابات .
ـ كيف يتم ذلك ؟

– ان الآنسة تحب « الغار » ، ولا بد ان يكون هو احبها لذلك ستعمل لحسابه فتتزوجه بدلاً من ان تسلمه لنـــا ، انها تحاول ان تضللنا ، انما قرأت في عينيها بعض التردد . سيكون بين الحبيبين لقاء ولعل موعد هذا اللقاء قـــد عين ، وعليه سأقبض غداً على الرجل من أذنيه ، لقد ظل حتى الآن في نظري عدواً للجمهورية ، ولكنه اصبح منذ لحظات عدوي الشخصي . ان جميع الذين تدخلوا بيني وبين هذه الفتاة ماتوا على المقصلة .

قال كورنتان ذلك واستسلم لتضارب افكاره بطريقة حرمته من ملاحظة سمات الاشمئزاز العميق التي علت وجه هولو حين اكتشف سر هذه الحيلة وبعد ، فقد صمم القائد على معاكسة كورنتان في جميع أساليبه بقصد توفير الفرصة للعدو ان يموت ميتة شريفة وهو حامل السلاح بدلاً من تركه يقع فريسة لجلاده الذي يتصرف حياله تصرف الرجـــل الغيور الحسود . وقال وهو يدير ظهره لكورنتان :

–لو ان القنصل الأول يعمل برأيي لترك امثال هذا الثعلب يقاتلون الارستوقراطيين فانهم كفء لهم ، ولاستخدم الجنود لأمر آخر .

هذا في حين كان كورنتان يخاطب نفسه بقوله :

– « البس بذلة زرقاء لأمثال هذا الحيوان ، وضع حديدة مدلاة على جنبهم ، تجدهم لا يفقهون من شؤون السياسة سوى قتل الناس بطريقة واحدة » ثم انتفض فجأة وراح يقول لنفسه :

– أي ، نعم . لقد حان الوقت لان احصل على هـــذه الفتاة ، منذ خمس سنوات ضربت حولها نطاقاً والآن هي في قبضتي . بواسطتها اصل ، في الحكومة الى رتبة رفيعة كرتبة فوشه . أي ، نعم . ان فقدت الرجل الذي احبته فسيسلمها لي الأسى جسما وروحاً . وما علي الا ان اسهر الليل والنهار لاكتشف سرها .

كان نهار اليوم الثاني ، نهار سوق تجارية يخاطر فيه الفلاحون بالمجيء الى المدينة ليبيعوا سلعهم . من بين هؤلاء شاهد كورنتان رجلاً متجهم الوجـــه ، ملتحفاً بالجلد يحمل على ذراعه سلة متجهاً نحو منزل الآنسة دو فرنوي .

خطر لكورنتان ان يترقب خروج الرجل ولكنه غير رأيه فجأة وقال في نفسه :

ـ اذا دخلت المنزل على غير موعد ، ربما استطيع ان اكتشف ، بنظرة ، اسرار سلة هذا المبعوث.. ذلك لانه كان يعلم حق العلم انه من المستحيل تحقيق أي نجاح حيال اجوبة البريتونيين والنورمانديين الغامضة .

ما كادت الآنسة دو فرنوي تلمح الرجل قادماً اليها ، حتى صرخت فرحة :

ـ انه غالوب شوبين ! وقالت لنفسها اتراني محبوبة ؟

وغشى الأمل نفسها فاضفى على وجهها ابهى الألوان وملأ قلبهـــا بالفرح . ونقل غالوب شوبين نظره في بيت ربة المنزل واذ ابدى الحذر حيال فرانسين ، طمأنته الآنسة دو فرنوي باشارة محببة . فقال لها :

ـ في الساعة الثانية يكون عندي في انتظارك :

لشدة انفعالها لم تحر ماري جواباً بغير اشارة ايجابية من رأسها . وفي هذه اللحظة كانت خطوات كورنتان تدوي في الصالة . ما كان غالوب شوبين ليفطن الى خطر وجوده لو لم يلحظ سمات الاضطراب على وجه الآنسة دو فرنوي . فما ان اطل الجاسوس بوجهه المحتال حتى رفع الناعق صوته مخاطباً فرانسين بقوله :

ـ هذه زبدة بريتونية وتلك زبدة بريتونية ، تريدين انت زبدة جيبارية ولا تدفعين اكثر من ١١ قرشاً بالاوقية . اظن انك لا تريدين الخسارة لي ، انهـــا لزبدة هذه. كوني عادلة وادفعي قرشاً واحداً علاوة. فقال له كورنتان مقاطعاً:

ـ أصمت ايها الرجل ، انك لم تأت الى هنا لتبيع الزبدة ، فانت تتعامل مع سيدة لا تعرف المساومة . ان المهنة التي تتعاطاها سوف تلحق بك الأذى . ثم ربت على كتفه واضاف قائلاً :

ـ لا يمكن ان تستمر طويلاً في اللعب على الحبلين .

بذل غالوب شوبين جهده ليلجم حنقه فيمتنع عن دفع هذه التهمة الصحيحة واكتفى بالقول : ان سيدي يريد المزاح . فحدق اليـــه كورنتان ملياً واذ زاد ارتيابه به سأله : اين تسكن يا صديقي العزيز ، اريد ان اشتري منك كمية

من الزبدة . اجاب الناعق :

ـ جميع الناس في فوجير يعرفون بيتي ، انني اسكن في ...

وهنا قطعت الآنسة دو فرنوي كلام شوبين وانتهرت كورنتان بقولها :

ـ كفى يا كورنتان . كيف تجرأت على الدخول علي في مثل هذه الساعة لتفاجئني هكذا شبه عارية ؟ دع هذا الفلاح وشأنه انه لا يفهم احتيالاتك التي لا أرى مبرراً لها ، هيا ايها الرجل النشيط ، اذهب بسلام .

تردد غالوب شوبين في الذهاب متحيراً أياً منهما يطيع، كورنتان ام ماري؟ وتردده هذا ، سواء أكان طبيعياً ام لعبة شيطانية خدع الجاسوس الذي ظل واقفاً مشدوهاً الى ان تلقى امراً جازماً من ماري بالذهاب فابتعد بخطى ثقيلة، وبقي كورنتان والآنسة دو فرنوي يحدقان الى بعضهما بصمت ولم تقو عينا ماري على تحمل الشر المتطاير من عيني الرجل ، وقد ادركت ان حرباً سرية انفجرت بينها وبينه وانه يستخدم ضدها كل صلاحيات وظيفته . ولكنها استمدت القوة من حبها ونفضت عنها مخاوفها وقالت له ملاطفة :

ـ دعني أرتدي ثيابي واصلح زينتي ، فأجابها :

ـ ماري ، اجل ، دعيني ادعوك هكذا باسمك المجرد ، حتى الآن انت لا تعرفينني ، اصغي الي ، أي رجل اقل نباهة مني يكتشف حبك للمركيز دو مونتوران . لطالما قدمت لك قلبي ولطالما عرضت عليك الزواج ، فلم تجديني جديراً بك ، ربما كنت على حق ، ولكن مهما يكن مركزك رفيعاً ، ومهما كنت جميلة، بامكاني ان اخفضك الى مستواي . لم تقدري طموحي ولا اعجبتك تصرفاتي، فأنت مخطئة . ان الرجال لا يساوون في الواقع إلا قدر تقديري لهم . وليسوا في نظري شيئاً يذكر . . سأصل الى مركز رفيع يرضي غرورك . ترى أي رجل يستطيع ان يحبك ، ان يجعلك سيدته المطلقة أكثر مني انا وقد احببتك منذ خمس سنوات ؟ انني وان كنت أخشى ضياعك فأنا احاول ان اشعرك بنزاهة حبي العظيم وتجرده . لا تهزي رأسك، اذا كان المركيز يحبك فتزوجيه، لكن تأكدي اولاً من اخلاصه ونزاهته، اذ يؤلمني ان اراك مخدوعة وأوثر سعادتك على سعادتي .

قد تدهشين بقراري هذا ، وكل ما ارجوه ألا تنسبيه الا لفطنة رجل لم يبلغ من الغباوة الى حد الاستيلاء على امرأة بالقوة والقسر . ولا ألومك بل ألوم نفسي فقد أملت ان انالك بكثرة الخضوع والوفاء لأجعلك سعيدة فلم تكافئي جهودي بشيء.

ـ لقد تحملت قربك مني .

ـ قولي انك نادمة على ذلك .

ـ أتريدني ان اشكرك على المهمة المخزية التي اوقعتني فيها ؟

ـ حين اقترحت عليك المهمة التي لا تخلو من التبكيت للنفوس الورعة المتحررة من الخطيئة ، ما فعلت ذلك إلا بقصد اسعادك. اما انا، فسواء نجحت او فشلت، فأنا استطيع ان استخدم نتيجة عملك مهما كانت لانجاح مقاصدي . فان تزوجت مونتوران كنتُ سعيداً بأن اخدم قضية آل بوربون في باريس حيث انا عضو في نادي كليشي وحيث تواتيني الفرصة للاتصال بالامراء ، فأتخلى عـــن مصالح الجمهورية التي تسير في كل منزلق . والجنرال بونابرت ليس غبياً الى حـــد عدم الاحساس باستحالة قدرته على البقاء في المانيا وفي ايطاليا وهنا حيث الثورة الجمهورية في دور النزاع . انه لم يقصد بإحياء « ٢٨ تشرين الثاني » سوى الحصول من آل بوربون على اعظم الفوائد بتفاوضه معهم على حساب فرنسا ، انه شاب ذكي ومقتدر ولكن ، على رجال السياسة ان يدعموه في المسلك الذي سلكه ، ان خيانة فرنسا شيء حقير نتركه نحن الرجال المتفوقين للاغبياء . لا اخفي عليك ان لدي الصلاحيات اللازمة لاجراء مفاوضات مع زعماء الناعقين كما لدي صلاحيات بأن اجرهم الى الهلاك ، ولا يخفاك ان فوشه نفسه لعب دوراً مزدوجاً أثناء زمن الارهاب فكان لروبسبيير ولدانتون في الوقت ذاته .

ـ دانتون الذي خدعته تنكرت له ..!

ـ هراء .. لقد مات . لندعه جانباً وكلميني بقلب مفتوح كما فعلت انا ، ان القائد هو ادهى مما يبدو . وجودي هنا لن يكون بلا فائدة اذا شئت تضليله، لقد ملأ البطاح بالجنود واكتشف بسرعة مواعيدك ، وعرف بوجود ذلك الناعق في منزلك .

خاطبها بلهجة رقيقة فيها من الحنان مـا طغى على قلب الآنسة دو فرنوي الى حد كادت ان تسلم سرها الى الأفعى التي لبس نعومتها، الا انها عادت ففكرت ان لا شيء يثبت الاخلاص في لهجة كورنتان المصطنعة فصممت ان تضلل رقابته . فقالت :

ـ واخيراً حزرت يا كورنتان ، انني احب المركيز الا انه لا يحبني ! انني اخافه ، ويبدو لي ان الموعد الذي عينه لي لا يخلو من مكيدة .

ـ ولكنك قلت أمس انه رافقك حتى مدخـل فوجير .. فلو كان ينوي استعمال العنف معك لما كنت هنا اليوم .

ـ ان قلبك لصلب يا كورنتان ، انت تستطيع ان تجري مقارنات دامغة عن احداث الحياة البشرية وليس عن احداث الحب .. بما انك ثاقب البصر الى هذا الحد، فحاول ان تفهم كيف ان هـذا الرجل الذي انفصلت عنه بعنف امس الأول ينتظرني بفارغ الصبر اليوم على طريق ماين في احـد منازل فلوريني قـُبَيل المساء .

امتقع وجه كورنتان لدى سماعـه هذا الاقرار الذي اطلقته الآنسة دو فرنوي بلهجة طبيعية لا لبس فيها . الا انه القى عليها نظرة خاطفة من نظراته الثاقبة التي تستجلي النفس فلم يشتبه بشيء من المراوغة .. لقد خـدعته باتقان لعبتها فقال لها باشفاق :

ـ هل تريدين ان اسهر عليك من بعيد ؟ سآخذ معي جنوداً مقنعين ونكون تحت اوامرك .

ـ رضيت . ولكن ، عدني بشرفك ... كلا ، لست أومن بـه .. اقسم لي بالله... ولكنك لا تؤمن بالله.. ترى ما هي الضمانة التي تقدمها لي عن امانتك؟ ورغم ذلك فاني اكل اليك امري وأضع بين يديك مـا هو أغلى من حياتي ، وحبي او ثأري .

اخذ كورنتان يد ضحيته ، فقبلها باحترام عميق ، ثم ابتعد عنها وهو يحييها تحية لا تخلو من اللباقة والظرف .

بعد مضي ثلاث ساعات على خروج كورنتان خرجت الآنسة دو فرنوي خفية من باب سان ليونار ومشت في طريق ضيقة تؤدي الى وادي نانسون ومن هناك تقدمت نحو كوخ غالوب شوبين حيث كانت على موعد مع السعادة وفي نفسها رغبة شديدة لانقاذ حبيبها من المصير الذي يتهدده.

في ذلك الوقت بالذات كان كورنتان يبحث عن القائد هولو . كاد ينكره حين رآه ، في ساحة صغيرة ، منهمكاً ببعض الاعدادات العسكرية ، والواقع ان القائد النشيط قام بتضحية من الصعب تقديرها بثمن . لقد حلق شاربيه وقص ضفيرته . فصار رأسه كرأس راهب جزويتي ، وانتعل حذاءاً ضخماً بنعل حديدي ، ولبس بزة زرقاء ، فوقها جلد المعزى ، وبهذا الزي وقف يستعرض مئتين من رجال فوجير ، ألبسهم ثياباً من شأنها ان تخدع بصر امهر الناعقين ، لقد برزت في هذا المشهد الروح العدائية في مدينة فوجير الى جانب الطابع البريتوني.

هنا وهناك ، بضع امهات وبضع شقيقات يحملن لأبنائهن وأشقائهن قرب الماء او المسدسات التي نسوها . والشيوخ يتبينون عدد الخرطوش وسلامتها ، يحمله الحرس الوطني المتخفي بزي فرقة معاكسة للناعقين ، وقد بدوا مرحين كأنهم ذاهبون في رحلة صيد لا في مهمة خطرة . انهم يتوقون الى رؤية ناعقي المدينة او بروتونييها يقاتلون بريتونيي الارياف ويفضلون هذا المشهد على مباريات الفرسان في حلبة السباق .

واذ واجه كورنتان القائد الهرم تبسم للتغيير الذي ادخله على شخصه وسأله:

ـ أي جديد وراءك ؟

ـ تعال معنا وسترى .

ـ انا لست من فوجير .

ـ هذا امر لا يخفى على ذي عينين ... قال له الفتى غودن وقد انطلقت الضحكات الساخرة من جميع الفرق المحاذية ، فأجابه كورنتان :

ـ اتظن انه ليس بالامكان خدمة فرنسا إلا بحمل الحراب ؟

قال ذلك وادار ظهره للضاحكين ليسأل امرأة عن وجهة هذه البعثة وغايتها

فأجابته بقولها :

ـ شيء مؤسف، لقد وصل الناعقون الى فلوريني ! ، ويقال ان عددهم أكثر من ثلاثة آلاف محارب . وهم يزحفون للاستيلاء على فوجير .

اصفر وجه كورنتان حين سمع اسم فلوريني وتذكر موعد لقـــاء ماري ومونتوران فكرر سؤاله للمرأة :

ـ هل انت متأكدة ؟ انها فلوريني على طريق مايان ؟

ـ لا يوجد موضعان باسم فلوريني .

عندئذ خاطب كورنتان القائد قائلاً :

ـ هل تبحثون عن المركيز ؟

ـ بعض البحث ، أجاب هولو .

ـ انه ليس في فلوريني ، أرسل بجيشك وحرسك الوطني الى ذلك المكان مع عدد من الفرقة المضادة للناعقين وانتظرني هنا .

واذ ابتعد كورنتان بخطى واسعة قال هولو :

ـ انه اخبث من ان يكون مجنونا .. انه ملك الجواسيس .

في هذا الوقت اعطى هولو جيشه اشارة الرحيل ، فمشى الجنود الجمهوريون بدون طبل صامتين على طول الضاحية المؤدية الى طريق مايان وهم يرسمون خطاً ازرق واحمر عبر الاشجار والمنازل ، يتبعهم الحرس الوطني المتخفي . اما هولو وغودن وعشرون رجلاً من شباب المدينة ، فقد ظلوا في الساحة ينتظرون كورنتان الذي اثار غموضه فضول القائد .

اعلمت فرانسين بذاتها الجاسوس الحكيم بخروج سيدتها ، فتبين صدق ظنونه وسار في الحال لجمع بعض المعلومات عن تلك الهريبة التي باتت بحق موضعاً للشبهة .

واذ علم من جنود الحرس في مركز سان ليونار ان الحسناء المجهولة مرت في طريق نيدو كروك هرول بسرعة الى محلة بروميناد . ووصل في الوقت المناسب ، لسوء حظ الفتاة ، بحيث كان يرى كل حركاتها . قال في نفسه :

ـ زعمت انها ذاهبة الى «فلوريني» فذهبت الى مطل جيباري، لقد خدعتني

الخبيثة ولكن ، مهلاً يا صغيرتي فان حيلتي تطالك حيثما كنت .

لقد فطن كورنتان او كاد الى مكان موعد لقاء الحبيبين . فهرع الى الساحة في وقت كان فيه هولو يستعد للالتحاق بجنوده فناداه باسمه وأطلعه على مجريات الاحداث على حقيقتها فدهش هولو لذكاء الدبلوماسي وربت على ذراعه قائلاً :

ـ يا لصواعق السماء ! انك على حق أيها المواطن ، لقد تجمعت العصابات هناك للتضليل. ان الفرقتين اللتين أرسلتهما لمراقبة الضواحي بين طريق دانتران وطريق فيتره لم ترجعا بعد، وهكذا نجد لنا في القرية نجدات مفيدة اذ ان « الغار » ليس غبياً ليقوم بهذه المخاطرة دون ان يجلب معه ناعقيه المشؤومين .

قال ذلك وطلب من غودن الشاب الفوجيري ان يذهب الى الضابط لوبرين ويقول له ان بامكانه ان يتصرف بدونه في مطاردة العصابات ويعود اليه بسرعة واضاف قائلاً له: انك تعرف الدرب المختارة، اسرع فأنا بانتظارك لمطاردة النبيل والثأر لمجزرة فيفتيير .

واذ رأى هولو الشاب يختفي كالبرق صرخ قائلاً :

ـ بحق السماء انظروا كيف يركض هذا الشاب ! لكم كان يحبه جيرار !

لدى رجوعه وجد غودن فرقة هولو قد ازدادت بعدة من الجنود الذين اخذوا من بعض مراكز المدينة ، وقال هولو للشاب الفوجيري ان يختار عدداً من مواطنيه المدربين على حرب العصابات وان يذهب بهم من مدخل سان ليونار ويبطىء السير على مقالب جبال سان سولبيس التي تشرف على وادي كويسنون حيث يقوم كوخ غالوب شوبين ، ثم سار هو على رأس ما تبقى من جيشه وخرج من باب سان سولبيس ليقطع الجبال من علٍ ، حيث يلتقي، حسب الخطة، برجال بوبيه الذي تعهد بدعم خط الجنود الذين يقومون بحراسة الصخور ابتداءاً من ضاحية سان سولبيس حتى نيدوكروك .

اما كورنتان ، فبعد ان تأكد انه وضع مصير رئيس الناعقين بين أيدي ألد أعدائه، اسرع الى محلة «برومناد» ليكون على اطلاع تام على الاستعدادات الحربية التي اتخذها هولو ، وسرعان ما شاهد شرذمة غودن تقتحم وادي نانسون في

طريقها الى الصخور المحاذية لوادي كويسنون هـــذا فيما كان هولو يقطع بدوره طريق قصر فوجير مجتازاً الطريق الضيقة الخطرة التي تؤدي الى قمة احد جبال سان‌سولبيس . وهكذا سارت فرقتان من الجنود في خطين متقابلين . واذ وصل هولو الى منبسط الصخور فصل من فرقته الجنود المرتدين البزات الرسمية ووزع الباقين في ثلاثة خطوط على ثلاثة مراكز بحيث لا يتمكن « الغار » وجنوده من الافلات من ايديهم وقد سدوا امامه جميع المنافذ .

واذ رأى كورنتان هذه الترتيبات المحكمة ، هتف قائلاً : انه لمحتال كبير هذا الذئب العتيق هولو ، هذه نهاية الـ « غار » .. لو ان ماري سلمت المركيز ، هي وانا مشتركين ، لجمعت بيننا صلة قوية لا فاصم لها ، هي الغدر .. إلا انها ستكون لي على كل حال ...

هوذا غودن وشرذمته قد وصلوا الى المقلب المكون من صخور سان سولبيس والذي ينحدر بتلال صغيرة الى وادي جيباري . ترك غودن الطريق وقفز مــن فوق حاجز اول حقل صادفه وتبعه ستة رجال من مواطنيه ، اما الستة الباقون ، فقد ساروا ، حسب الاوامر ، في الحقل المحاذي للطريق . وانطلق غودن ، مسرعاً الى شجرة تفاح في وسط الغابة . هناك كان بوبيه وسبعة او ثمانية رجال مختبئين وراء أشجار الكستناء .

رفع بوبيه رأسه قبل الجميع ، فصرخ .
ـ الصمت ! لقد لحقت بنا العصابات ، ولكن ، طالما رجالها هم على مرمى رصاصنا فلن نخطئهم وإلا ، وحق الغليون ، فلسنا مستحقين ان نكون جنوداً للبابا ..

ووقع بصر غودن على بضع فوهات بنادق مصوبة نحو شرذمته وسمع صوتاً يقول: مَن هناك ؟ !

وتبع الصوت ثماني طلقات انفجرت حول الفرقة المضادة للناعقين ، فجرح اثنان من افرادها . اما الفوجيريون الخمسة ، فقد أجابوا :
ـ اصدقاء ! ثم اسرعوا نحو الاعداء قبل ان يتمكنوا من تعبئة بنادقهم

من جديد ، وفي المقابلة وبعد ان تعرف رئيس الفرقة على بزات وقبعات نصف فرقته قال :

– لم نحسن القول لقد تصرفنا كبريتونيين حقيقين فبدأنا الضرب قبل التفاهم .

وقف الجنود الثمانية مصعوقين حين تبينوا غودن . وباسف شديد صرخ بوبيه مخاطباً غودن بقوله :

– عجباً يا سيدي الضابط من ذا الذي يراك ولا يظنك من رجال العصابات وانت متخف بجلد المعزى ؟

– انها لمصيبة حلت بنا ونحن جميعنا ابرياء طالما انكم لم تأخذوا علماً بخروج المضادين للناعقين ، ولكن ، ما وراءكم ؟ سأل غودن فأجابه بوبيه :

– نحن يا سيدي الضابط ، نسعى في البحث عن بضعة من الناعقين الذين يتسلون بمداعبتنا. نركض كالجراذين المسممة ولكثرة ما قفزنا من فوق السياجات تعبنا فجلسنا نستريح ، على ظني ان الناعقين اصبحوا الآن في ضواحي ذلك ذلك الكوخ الكبير حيث تشاهدون تصاعد الدخان . قال غودن :

– حسن ، انتم ، الجنود الثمانية ، وبوبيه ، ترتدون الى صخور سان سولبيس عبر الحقول وهناك تدعمون خط الجنود الذي اقامه القائد هولو ، ينبغي الا تبقوا معنا طالما انكم بالبذلات العادية ، ونحن متخفون بلباس الناعقين ، اننا ، وحق الف خرطوشة ، سنقضي على هؤلاء الكلاب بما فيهم « الغار ». هيا ، سيروا الى اليمين ولا تطلقوا النار على ذوي الجلود من الذين تصادفونهم في الطريق ... تتعرفون على المضادين للناعقين من عقدة الرقبة المجدولة كالحبل .

ترك غودن جريحيه تحت شجرة التفاح واتجه نحو بيت غالوب شوبين الذي دله عليه بوبيه ، بينما بدأ الضابط الشاب يتعقب اثر الناعقين . هناك كانت الفصيلة التي يقودها هولو قد وصلت ، على خط العمليات الحربية ، الى نقطة مقابلة للنقطة التي وصل اليها غودن . وانحدر المحارب العجوز هولو وهو على رأس رجاله بهدوء على امتداد الحواجز بحمية الشباب ، فكان يقفز من فوق السياجات بخفة ملقياً نظرات حادة على جميع المرتفعات مصغياً باذن الصياد الى اقل

الحركات. وفي الحقل الثالث الذي دخله رأى امرأة في الثلاثين من عمرها منهمكة في فلاحة الأرض تعمل بنشاط وبالقرب منها ولد في نحو السابعة من عمره يحمل منجلاً ينفض به الجليد عن بعض الاغصان النامية على جزوع الأشجار ليقطعها ويجمعها في حزمة . . بهبوط هولو الى الضفة الثانية من السياج احدث هولو ضجة نبهت الولد وامه فرفعا رأسيهما. واذ ذاك حسب هولو المرأة عجوزاً لكثرة التجاعيد التي غشت جبينها ورقبتها قبل الاوان . كانت ملتفة بجلد في حالة التلف تحته فستان اصفر متسخ. واذ اقترب منها ناداها بقوله:

– ايتها العجوز ، اين هو الغار ؟

وفي هذه اللحظة كانت فرقة هولو المضادة للناعقين قد لحقت بقائدها الى الحقل ، وبعد ان القت المرأة نظرة حذر وارتياب على الفرقة ، اجابت على سؤال هولو بقولها :

– لكي تصلوا الى الغار يجب عليكم ان تعودوا من حيث أتيتم.

– وهل سألتك عن طريق ضاحية الغار في فوجير ايتها العجوز اللعينة وحق حنة القديسة ، هل مر الغار من هنا ؟

– لا افهم ماذا تقول .

– ان الغار في خطر. هل تريدين ان يبتلعنا الزرق الذين يتعقبوننا ؟

سمعت المرأة هذا الكلام فرفعت رأسها والقت نظرة حذرة اخرى على المضادين للناعقين واجابتهم :

– كيف يستطيع الزرق ان يقتفوا اثركم ؟ لقد رأيت ثمانية منهم ذاهبين الى فوجير من الطريق السفلى .

– ألا يبدو كأنها تريد ان تعضنا بأنفها ، قال هولو ، ثم لفت نظرها باشارة من اصبعه الى مسافة خمسين خطوة الى الوراء حيث ظهر اربعة جنود ببزات وبنادق لا تخفى هويتها وقال :

– انظري أيتها العنزة العجوز، أتريدين ان يذبح اولئك الزرق اخواننا الذين أرسلهم مارش آتير لنجدة « الغار »، وهو يوشك ان يقع في ايدي الفوجيريين ؟

ـ المعذرة يا سيدي، فما أسهل ان يُخدع المرء في هذه الايام!..من أي منطقة أنتم ؟. فأجابها بعضهم بأصوات لا تخفى لهجتها المحلية .

ـ نحن من سان جورج .. ونحن نموت من الجوع .

ـ حسناً ، اليكم الخبر اليقين ، أترون هذا الدخان المتصاعد هناك ، انه بيتي، تأخذون الطريق على اليمين ، ولعلكم تجدون زوجي غالوب شوبين في الطريق ، فهو يتجسس ليحذر « الغار » الذين يزورنا اليوم .

ـ شكراً أيتها المرأة . قال هولو ذلك والتفت نحو رجاله قائلاً :

ـ هلموا الى الامام ، لقد أمسكناه وحق الرب !

ولحقت الفصيلة بقائدها مهرولةً ، واذ سمعت المرأة الكلمة البذيئة التي تلفظ بها المتنكر بزي ناعق، اصفر وجهها، وجلست على الارض مطوقة ابنها بذراعيها وقالت له :

ـ ليرأف القديس لابر وعذراء اوراي القديسة بنا ، ان هؤلاء ليسوا من رجالنا .. احذيتهم بلا مسامير .. اسرع يا ولدي في الطريق السفلى وأنذر والدك ، فالخطر يتهدده .

وبسرعة البرق ركض الولد عبر الادغال والاشواك .

نعود الى الآنسة دو فرنوي ، فهي لم تصادف في طريقها احداً من الزرق او من الناعقين الذين كانوا يتعقبون بعضهم البعض في الحقول والغابات ، حول كوخ غالوب شوبين ، وحين رأت عموداً من الدخان يتصاعد من داخون ذلك البيت الكئيب خفق قلبها وتصاعدت دقاته القوية . توقفت واسندت يدها الى غصن شجرة. تأملت طويلاً في الدخان الذي يستخدم كمنارة لأصدقاء الرئيس الشاب، او لأعدائه . وما شعرت قط بانفعال ساحق كهذا الذي شعرت به في تلك اللحظة . قالت تخاطب ذاتها واليأس مطبق عليها :

ـ لكم احبه ! آه ! لن أتمالك زمام امري امامه اليوم ، وفجأة اجتازت المجال الذي يفصلها عن الكوخ لتجد نفسها في الساحة حيث هجم عليها الكلب فأسكته غالوب شوبين . بدخولها الكوخ تلفتت حولها كمن يبحث عن شيء ..

لم يكن المركيز هنـــاك فتنفست الصعداء . علمت بارتياح ان الناعق اضطر الى تنظيف غرفته الوحيدة . وحمل غالوب شوبين بندقيتـه . أدى لضيفته التحية بصمت وخرج مع كلبه . تبعته ماري الى العتبة فرأته يسير في طريق تبتدىء من يمين الكوخ حيث يوجد مدخل امامه شجرة كبيرة يابسة تكون حاجزاً شبه متهدم. من هنا استطاعت ماري ان ترى سلسلة من الحقول سياجاتها تمثل للنظر سلسلة من المداخل والمخارج، فالأشجار العارية والحواجز تسمح برؤية اقل مشهد يجري في الحقول .. وحين اختفت قبـــعة غالوب شوبين الواسعة عن النظر ، عادت ماري الى ناحية الشمال فشاهدت كنيسة فوجير، غير ان بناء الزريبة اخفى معالمها .. سرحت بصرها في ارجاء وادي كويسنون فبدت لها ابسطة ناعمــة ، بياضها يزيد في اكفهرار السماء الملبـــدة بالغيوم ، كان السكون عميقاً فشعرت بانقباض شديد للظروف التي اضافت الى توجساتها حزناً يكاد يكون جسدياً .

واخيراً شاهدت شاباً يقفز من فوق السياجات كالغزال ، ويركض بسرعة مدهشة .. « انه هو ! » كذلك قالت في سرها وكان مرتدياً ملابس بسيطـــة كملابس الناعق .

بعد قليل كان الشاب على بعد خطوتين منها امام المدفأة حيث تتوهج النار . كلاهما عجز عن النطق وتعانقت نظراتهما ، يوحدهما أمل واحـــد ويفصلهما ريب واحد . واخيراً قالت ماري :

ـ حرصي على سلامتك حملني على المجيء الى هنا .

ـ على سلامتي !؟

ـ اجل ، طالما انا في فوجير حياتك في خطر . لشدة حبي لك لم ارحل هذا المساء . ارجوك لا تبحث عني بعد اليوم !

ـ اتذهبين يا ملاكي ! سألحق بك .

ـ تلحق بي ؟ اتظن ؟ والزرق ؟

ـ ما شأن الزرق بحبنا ؟

ـ يبدو لي انه من الصعب ان تبقى في فرنسا ، كما انه من الصعب ان

تتركها معي .

ـ وهل في الحب شيء غير ممكن ؟

– الحق معك ، كل شيء في الحب ممكن ، انمـــا تجرأت انا فتخليت عنك من أجلك ؟

– ماذا ؟ اتراك رضيت بمخلوق دنيء لا تحبينه ثم ترفضين رجلا يحبك حتى العبادة، ويقسم انه لا يحب سواك وانك سوف تكونين ملء حياته ؟.. اتحبينني يا ماري ؟ – أجل .

– اذن ، كوني لي .

– انسيتَ انني عدت الى لعب دور امرأة فاجرة وانه ينبغي ان تكون انت لي ؟ اذا رأيتني اهرب منك ، فذلك حتى انقذك من الاحتقار الذي اعانيه، ولولا هذا الخوف ..

– ولكن ، اذا كنت لا اتهيب شيئاً ؟!

وكيف اضمن ؟ انني مرتابة ، شأن كل امرأة في مثل وضعي ، اذا كان حبنا لا يدوم طويلا ، فليكن كاملاً على الأقل ، مـــاذا تراك فعلت من اجلي ؟ انك تشتهيني ، اتظن انك بذلك تسمو على جميع الذين رأوني حتى الآن ؟ هل من اجل ساعة لذة خاطرت بناعقيك دون ان يخطر ببالك اني قلقة على الزرق الذين هلكوا فخسرت كل شيء ؟

ترى ماذا عساك تفعل لو طلبت منك ان تتخلى عن جميع مبادئك ، وعن جميع آمالك ، ان تتخلى عن الذين قد يهزأون بك لو هلكت من أجلهم بينما أموت انا من أجلك ؟ ماذا عساك تقول لو طلبت منك ان تخضع للقنصل الأول حتى تتمكن من اللحاق بي الى باريس ؟ ماذا انت فاعل لو طلبت ان نرحل الى أميركا ونعيش في عالم كله غرور لتؤكد لي انك تحبني من أجلي بالذات كما احبك الآن؟ وبكلمة موجزة ، ماذا تقول لو سألتك ان تنخفض الى مستواي ؟

– كفى ياماري، كفاك تجنياً واتهاماً لنفسك ! لقد فهمتك، ان كنت في بادىء الأمر قد رغبت فيك بدافع الشهوة، فاعلمي ان هذه الشهوة انقلبت الى حب عظيم .

انت يا اخت روحي ، ان روحك لاسمى من اسمك واغلى من جمالك . ان اسمي لنبيل بما فيه الكفاية . واشعر باني جدير بان افرضك على العالم . ألأني اتوخى فيك اللذة الصارخة البريئة ؟ ام لأني آمل ان اجد في روحك اغلى الفضائل التي تحببنا بالمرأة ؟ انني اجهل السبب ، غير ان حبي لا حدود له ، ويبدو لي انني اصبحت لا اطيق العيش بدونك ، وحياتي ستكون منفرة ان لم تكوني بقربي .

– بقربك ؟ وكيف ؟

– آه ! يا ماري اما آن لك ان تفهمي ألفونس ، اسير حبك ؟

– اتظن انك تغريني بمنحي اسمك ويدك ؟ هل عرفت ماذا يحل بي لو احببتني لمدة ستة أشهر ؟ ، كلا ، كلا، ان العشيقة هي المرأة الوحيدة التي تتأكد من المشاعر التي يظهرها لها الرجل . وذلك لأن الواجبات والقوانين والأولاد ليسوا روابط صادقة ، واذا كانت تدوم مدة اطول فذلك لأن المرأة تجد في غرورها سعادة تجعلها تتحمل جميع الأشجان ، ماذا ؟ أأكون زوجتك واصبح عبأ ثقيلاً عليك يوماً ما ؟ هذا الخوف يجعلني افضل الحب العابر ، الحب الصحيح ، ولو كان في نهايته البؤس والموت . أي نعم ، استطيع ان أكون اماً فاضلة وزوجاً مخلصة، ولكن ، للحصول على مثل هذه المشاعر في نفس امرأة لا يجوز للرجل ان يتزوجها تحت تأثير الشهوة . ومن جهة اخرى ، من يدري اذا كنت انا نفسي سأظل راغبة فيك غداً؟ كلا،لا اريد ان اكون سبباً لشقائك، سأترك بريتانيا لاعود الى فوجير ولن تأتي للبحث عني هناك ...

– حسن ، بعد غد ، صباحاً ، اذا رأيت الدخان يتصاعد من صخور سان سولبيس ، فاعلمي اني سأكون في المساء عندك ، عشيقاً أو زوجاً . سأقتحم كل شيء في سبيل ان اكون احد هذين ، والخيار لك .

– ولكن يا الفونس . أتحبني الى حد المخاطرة بحياتك قبل ان تمنحنيها ؟

لم يحر جواباً ، تطلع فيها وخفض عينيه، الا انه قرأ على وجه حبيبته ذهولاً يضاهي ذهوله . وبسط لها ذراعيه . اعترى ماري ضرب من الجنون فالقت برأسها على كتفه بحنان وكادت تستسلم له لتجعل من هذه الغلطة سعادتها الكبرى

ولو كان فيها الخطر على مستقبلها كله. وسمعت حركة في الخارج، فانفلتت من بين ذراعيه كانها استيقظت من حلم، وهرعت الى خارج الكوخ حيث استطاعت ان تستعيد رباطة جأشها وان تفكر بوضعها :

– لو فعلت لقبلني الآن وقد يسخر بي غداً، لو صدق ظني هذا لاقتلنه، ولكن، ليس الآن. قالت ذلك وهي تشاهد بوبيه فأشارت اشارة فهمها الجندي بوضوح فارتد بسرعة وعاد على اعقابه كأنه لم ير شيئاً. وفجأة دخلت الآنسة دو فرنوي الى الغرفة وطلبت من المركيز ان يلزم الصمت التام قائلة بذعر شديد وبصوت مكبوت :

– انهم هنا ...

– من ؟

– الزرق .

– آه ! لن اموت بدون ...

– أجل خذها ..

وبسرعة اخذ بها، وهي باردة الأطراف. لا تمتنع ولا تقاوم وببرود وبلا سلاح فاقتطف من شفتيها قبلة كلها هول ومتعة، ولعلها القبلة الأولى والاخيرة. ثم اتجها معاً نحو العتبة حيث اخرجا رأسيهما معاً من الباب ليطمئنا الى خلو الساحة فرأى المركيز غودن على رأس عشرة من الرجال متمركزين في وادي كويسنون. التفت نحو الحقول فلمح تحت الشجرة اليابسة سبعة جنود آخرين، صعد الى سطح غرفة الخمر وثقبه ليقفز منه الى التلة، لكنه سرعان ما خبأ رأسه اذ رأى هولو متمركزاً مع جنوده يقطع عليه طريق فوجير. فالتفت الى عشيقته فصاحت بيأس اليم. فقد سمعت اصوات ثلاث فصائل من الزرق تطوق المنزل. فقال لها المركيز :

– اخرجي انت اولاً فتحميني .

حين سمعت هذه الكلمة، الرائعة بالنسبة الى قلبها المحب، تقدمت الى الباب وحجبت المداخل بجسمها وهي سعيدة، فرحة، بينما كان المركيز يحشو بندقيته .

وبعد ان قدر المسافة ما بين عتبة الكوخ وجذع الشجرة الكبيرة ، القى بنفسه امام الرجال السبعة الزرق . وامطرهم بنار بندقيته فاتحاً لنفسه طريقاً بينهم . وقبل ان يتمكن رجال الفصائل الثلاث من تطويق السياج الذي قفز من فوقه . كانت قدما المركيز قد سبقتا الريح . وصرخ هولو بصوت اشبه بالرعد :

— اطلقوا النار ، النار ، النار ، وحق الشيطان ! اليس في عروقكم دم فرنسي ؟ اطلقوا النار عليه !..

مع هذا الكلام فتح رجال هولو ورجال غودن النار معاً على الهارب. الا انهم اخطأوه ولم يعرفوا كيف اتجه . وكان المركيز قد وصل الى السياج بنهاية الحقل الأول وشعر بدنو غودن الذي انطلق في اثره بعنف ، فضاعف سرعته ، لكن غودن جاراه في الركض فوصل الاثنان الى السياج الثاني معاً ، عندئذ اشرع مونتوران بندقيته وضرب بها رأس غودن فعجز عن اللحاق به .

لا يمكن القلم ان يصف القلق الذي ساور ماري والاهتمام الذي ابداه هولو وجنوده ازاء المشهد، كان كل منهم يتتبع بنفس مكتوم وحسب مصلحته حركات الراكضين . فقد وصل الغار وغودن معاً الى ستار الصقيع الأبيض في الغابة ، غير ان الضابط غودن تقهقر فجأة وانطلق وراء شجرة التفاح حيث امطره بالرصاص العشرون ناعقاً الذين كانوا قد احجموا عن اطلاق النار اولاً خوفاً من ان يصيبوا رئيسهم . وعندئذ هرع رجال هولو بسرعة ليخلصوا غودن الذي راح ، وهو بدون سلاح ، يتنقل من شجرة الى اخرى مغتنماً فرصة انصراف الناعقين الى حشو بنادقهم بالرصاص . لم يدم هلعه طويلاً ، فقد هرع هولو على رأس فرقته الى المكان الذي طرح فيه المركيز بندقيته ودعموه. وفي تلك اللحظة رأى غودن خصمه يجلس ، منهكاً ، تحت شجرة في الغابة ، فترك رفاقه يناوشون الناعقين المتمركزين وراء الحاجز واتجه هو نحو المركيز بشراسة الحيوان المفترس . واذ رأى قناصو الملك هذه المناورة ، اطلقوا صرخات رهيبة لتحذير رئيسهم ، ثم بعد ان اطلقوا الرصاص على خصومهم ، حاولوا الصمود لهجماتهم ، غير ان هؤلاء استبسلوا في اختراق الحاجز وانقضوا على الناعقين لانتقام دام

رهيب انسحب الناعقون الى المرتفع الذي ارتكب هولو غلطة كبيرة بتركه بدون حامية. وقبل ان يتمكن الزرق من التعرف الى بعضهم، كان الناعقون قد اتخذوا من فجوات الصخور نقاط تمركز حصينة. وكان بوسعهم ان يضربوا منها جنود هولو لو ظهر انهم ينوون متابعة الهجوم على الناعقين.

وفيما كان هولو وجنوده يسيرون على مهل في الغابة الصغيرة باحثين عن غودن، كان الفوجيريون الزرق يعرون قتلى الناعقين ويجهزون على الاحياء منهم.

في هذه المعركة الحامية الوطيس لم يقع اسرى من الفريقين، ذلك لان العادة جرت ان يجهز على الجرحى والأسرى معاً.

نجا المركيز وترك الناعقون والزرق بعضهم، حيناً، ليتعرفوا على قوة حصانة مراكزهم. وعرف كل منهم عدم جدوى القتال بعد نجاة المركيز ولم يعد كل من الفريقين يتمنى سوى الانسحاب من المعركة.

سرح القائد بصره في ارجاء الغابة بانتباه وقال:

– ان فقدت هذا، فلن يكون لي بعد اليوم صديق.

وهنا قال احد شبان فوجير وهو منهمك بتعرية الأموات:

– هوذا طائر بريش اصفر. قال ذلك وعرض على رفاقه محفظة مليئة بقطع نقد ذهبية وجدها في جيب قتيل يرتدي قفطاناً اسود. وسحب آخر كتاباً من جبة الميت، واذ عرف انه كتاب صلوات طرحه ارضاً وقال:

– هذا كاهن!. وقال ثالث لم يجد في جيب قتيل آخر كان يعريه سوى دينارين من فئة ستة فرنكات: هذا الناعق اللص افلسنا فدراهمه قليلة. فأجابه رفيق له:

– ولكنه يحتذي حذاء جديداً ومتيناً. وراح الاثنان يختصمان على الحذاء وهما ينتزعانه من قدمي الميت.

تسلم احد الفوجيرين الأموال السليبة ليوزعها على جنود البعثة عندما يجتمعون. وعندما عاد هولو ومعه الضابط الشاب غودن من دورية فاشلة للقبض على «الغار»، وجد عشرين رجلاً من جنوده وثلاثين من الناعقين المضادين امام احد عشر قتيلاً من الناعقين طرحت جثثهم في حفرة وراء الحاجز. خاطب

هولو جنوده بصوت صارم قائلاً :

– ايها الجنود ، امنعكم منعاً باتاً من اقتسام هـــذه الامتعة فيا بينكم ، انتظموا في صفوفكم بسرعة . فأجابه جندي وهو يلفت نظره الى حذائه وقـد ظهرت منه اصابع قدميه :

– سيدي القائد ، لا بأس اذا لم نتقاسم المال ولكن ، هذا الحـذاء ... انه يناسبني تماماً .

– اتضع قدميك في حذاء انكليزي ؟ قال هولو . فأجابه الجندي :

– سيدي القائد اننا ما برحنا منذ بداية الحرب نتبادل مع الاعداء الأمتعة المتروكة .

– اذن ، لن امنعكم من مزاولة عاداتكم ، افعلوا ما شئتم .

وهنا اعطى الجندي المحفظة بما فيها لغودن من اجل جهوده وبسالته وهو يقول له :

– خذها فان رئيسك لن يعترض .

وتطلع هولو الى غودن من طرف خفي فرأى سحابة من الأصفرار تغمر وجهه حين صرخ قائلاً :

– انها محفظة عمي ..

وعلى الرغم من تعبه الشديد، خطا بضع خطوات نحو الجثث وكانت اولاها جثة عمه ، ما كاد بصره يقع على وجهه المخضب ببقع زرقاء وذراعيه المتصلبتين وجرحه المميت حتى صرخ :

– فلنذهب من هذا المكان يا سيدي القائد .

وسارت فرقة الزرق في طريقها والقائد هولو يسند بذراعـه الضابط غودن وقد قال له :

– يا للصاعقة . لا تبتئس . فأجابه غودن :

– لقد مات ، مات يا سيدي القائد ، كان قريبي الوحيد . وعلى الرغم من لعناته ، كان يحبني . ولو عاد الملك لطالب الجميع برأسي ، الا هو . فأنه جدير

باخفائي تحت جبته .

تم توزيع الأمتعة فانضم الناعقون ـ المضادون الى طابور الجنود الزرق وساروا في طريقهم .

قلق رهيب تسرب مع هبوط الليل الى كوخ غالوب شوبين فقد عادت باربيت وابنها من الحقل الى الكوخ في ساعة العشاء ، هي تحمل حزمة من الحطب والولد يحمل العشب للمواشي ، بدخولها بحثاً عن غالوب شوبين فلم يجداه ، كانت الغرفة شبه فارغـــة ، وليس من نار تدفىء البيت ، السكون والظلمة مخيمان وكل شيء ينبىء بكارثة حلت بهـذا المنزل .. اشعلت النور وملأت زجاجتين بالخمر وهي فريسة هواجس عميقة تصغي لأقل حركة في الخارج . عدة مرات حدقت الى ولدها ولكنها عجزت عن مكالمته . بعد لحظات علقت عينا الطفل بالوتدين في الحائط حيث اعتاد والده ان يعلق سلاحه فرآهما فارغين وقد ارتجفت امه لدى هـــذا المشهد .

لم يكن يقطع السكون سوى خوار البقرات ووقع نقط الخمر المتساقطة من البرميل ، وقد انتعشت المرأة التعسة ، حين جهزت مقدار ثلاث كاسات مــن الفخار ممــا يشبه الحساء المركب من الحليب وقطع الفطائر والكستناء المشوية ، وقال الطفل لأمه :

ـ لقد جرت معركة في حقل الـ « بيروديير » .

ـ اذهب وانظر ..

ركض الصبي وتعرف في ضوء القمر على كومة الجثث ، واذ لم تكن بينها جثة والده رجع مسروراً وهو يصفر بعد ان التقط بضع قطع من فئة المئة فلس مدوسة بأرجل المنتصرين او منسية في الوحل . برجوعه وجد امه منهمكة بفتل خيطان القنب قرب النار فأعطاها اشارة سلبية ، لكنها لم تجرؤ على التفاؤل .

دقت ساعة كنيسة « سان ليونار » العاشرة فرقد الصبي بعــد ان تمتم بصلاة لعذراء اوراي المقدسة . وفي الصباح ، أطلقت باربيت هتاف الابتهاج حين سمعت وقع حذاء مسمّر في الخارج عرفت انه حذاء غالوب شوبين الذي اطل بوجه عابس ،

فابتدرته زوجته بقولها :

ـ بعناية القديس « لابر » الذي نذرت له شمعة جميلة فقد نجا « الغار » !.. لا تنسَ اننا مدينون لهذا القديس بثلاث شمعات !

لم ينبس غالوب شوبين ببنت شفة بل اخذ زجاجة خمر وشربها دفعة واحدة، وبعد ان احضرت له الحساء وتناولت منه أسلحته ، وبعد ان جلس قرب النار سألها :

ـ كيف جاء الزرق والناعقون المضادون الى هنا ؟ لقد كانوا يتقاتلون في فلوريني، فأي شيطان أنبأهم بأن « الغار » عندنا؟ لم يعلم احد بأمره سوى الآنسة دو فرنوي ونحن الثلاثة ، فمن ذا الذي وشى ؟

امتقع وجه المرأة وقالت وهي ترتجف :

ـ أكد لي الناعقون المضادون انهم من أهالي سان جورج فأخبرتهم بأن « الغار » موجود عندنا .

تحول وجه غالوب شوبين الى لون التراب وترك صحفته على حافة الطاولة . واردفت زوجته قائلة وهي على أشد ما يكون من الذعر :

ـ لقد ارسلت ولدنا ليحذرك ولكنه لم يجدك .

نهض الناعق وانهال بالضرب على المرأة ، فسقطت على السرير ، صفراء كالأموات ، وصاح زوجها :

ـ أيتها الساقطة الملعونة ، لقد قتلتني ، ثم اخذ زوجته بين ذراعيه وهو يصرخ: باربيت! يا باربيت!.. ايتها العذراء القديسة لقد جرت عليها، فارحميني .

واذ فتحت باربيت عينيها سألت زوجها بقلق :

ـ اتظن ان مارش آتير عرف بالأمر ؟

ـ « الغار » هو الذي سأل من أين اتت هذه الخيانة ؟

ـ وهل اخبر مارش آتير ؟

ـ كان مارش آتير وبيل ميش في فلوريني

تنفست باربيت الصعداء وقالت :

ـ اذا مسّا شعرة واحدة من رأسك لأستنزلن عليهما غضب السماء .
ـ آه ! لم يعد لي شهية للطعام .
وضعت امامه زجاجـــة اخرى من الخمر ، فلم ينتبه اليها ، جرت دمعتان كبيرتان على خدي باربيت فبللتا تجاعيد وجهها الكامد . وقال لها زوجها :
ـ اسمعي يا زوجتي ، اذهبي صباح غد الى غابة « سان ليونار » واجمعي بعض الحطب على احدى الصخور واشعلي فيها النـــار ، تلك اشارة متفق عليها بين « الغار » وبين مرشد رعية سان جورج الذي يأتي ليقوم بمراسم القداس .
ـ سيذهب اذن الى فوجير ؟
ـ اجل ، الى بيت حسنائه ، سأقضي هذا اليوم ساعياً لهذا الغرض ، اظن انه سيتزوجها ثم يخطفها ، فقد طلب مني ان أستأجر له جوادين اربطهما عـلى طريق سان مالو .
بعد ذلـك نام غالوب شوبين بضع ساعات ثم انطلق في سبيله ، وفي صباح اليوم التالي عاد الى بيته بعد ان قام بالمهات التي عهد بها اليه المركيز . اما زوجته ، وقد تبدد شيء من مخاوفها حين علمت ان بيل ميش ومارش آتير لم يحضرا ، فقد ذهبت شبه مطمئنة الى صخور سان سولبيس ممسكةً بيد ابنها الذي حمل بعض الجمرات في فردة قبقاب عتيق لاشعال النار في الحطب حسب التعليمات .
ما كادت الزوجـة والابن يتواريان حتى سمع غالوب شوبين رجلين يقفزان آخر سياج من سلسلة سياجات الحقول ، ومن خلال ضبابة كثيفة اخذ شخصاهما يتضحان للنظر شيئاً فشيئاً .
ـ « انهما بيل ميش ومارش آتير ! » فكر غالوب شوبين مرتعداً. وسرعان ما اطـــل الرجلان بوجهيهما العبوسين في ساحة الكوخ . وابتدره مارش آتير بصوت صارم :
ـ نهارك سعيد يا غالوب شوبين .
ـ نهارك سعيد يا سيدي مارش آتير ، هل لكما بالدخول لتناول كأسين من الخمر ؟ لدي كعك طيب وزبدة طازجة .

– لن نرفض لك طلباً يا ابن العم ، قال بيل ميش .

ودخل الناعقان . الى هنا لم يبدر منهما ما يروع رب المنزل الذي أسرع في احضار زجاجة خمر كبرى ملأ منها ثلاث كؤوس فيما كان مارش آتير وبيل ميش جالسين على طرفي الطاولة يقطعان الكمك ، ثم يغمسانه في الزبدة ويأكلان . وضع غالوب شوبين الاقداح الثلاثـــة مترعة تعلوها الرغوة امام ضيفيه وجلس معهما للطعام ، إلا ان رب المنزل كان من وقت الى آخر يلقي نظرة خفية على مارش آتير وهو يحاول ان يرضيه بالشراب .

ادعى بيل ميش انـــه يشعر بالبرد فنهض وأقفل الجزء الاعلى من الباب ، فأظلمت الغرفة ، غير ان النار المشتعلة ظلت ترسل بعض وميضها الاحمر في ارجاء الغرفة . وفي هذه اللحظة كان غالوب شوبين قد أعاد تعبئة الاقداح الثلاثة ، غير ان ضيفيه رفضا الشرب ، ثم ألقيـا قبعتيهما على الطاولة واتخذا موقفاً جدياً . وبدرت منهما حركات ونظرات رجف لها غالوب شوبين فقد خيل اليه انه يرى الدم تحت قلنسوتيهما الحمراوين . قال له مارش آتير :

– احضر ساطورك .

– ولكن ، يا سيدي مارش آتير ، ماذا تريد ان تفعل به ؟

– هيا يا ابن العم ، انت تعرف السبب .. لقد حوكمت .

ونهض الناعقان معاً وهما يستلان بندقيتيهما . فقال المضيف :

– ولكن يا سيدي مارش آتير . لم اقل شيئاً عن « الغار » . وفي نفس الوقت ارتطم غالوب شوبين التعس بخشبة سرير ابنه فسقطت على الارض ثلاث قطع نقدية من فئة المئة فلس فالتقطها بيل ميش وقال لمارش آتير .

– ارأيت ؟ لقد اعطاه الزرق هذه القطع الجديدة .

– اقسم لكما بالقديس لابر انني لم اقل شيئاً عن « الغار » ، انها زوجتي التي حسبت الناعقين – المضادين من اهالي سان جورج ، هذه هي الحقيقة . فانتهره مارش آتير بقوله :

ولماذا تحدثت عن هذه الشؤون مع زوجك ؟ على كل حـــال نحن لا نطلب منك تبريراً ، انما نطلب ساطورك ، لقد صدر الحكم عليك بالموت .

واشترك الناعقان في امساك غالوب شوبين الذي فقد كل قوة للمقاومة فسقط على ركبتيه ورفع نحو جلاديه يديه متوسلاً بيأس :

ـ يا صديقي ، يا ابن عمي ، ماذ سيحل بابني ؟

ـ سأتعهده ، اجاب مارش آتير .

ـ يا رفيقي العزيزين ، لست مستعداً للموت . هل تدعاني اموت بدون اعتراف؟ لكما الحق ان تقتلا جسدي ، اما روحي فلا يحق لكما ان تحرماها من آخرة مرضية .

ـ كلام معقول، قال مارش آتير وهو يتطلع الى بيل ميش.

وبقي الناعقان فترة ما في حيرة كبرى دون ان يجدا حــــلاً لهذه المسألة الوجدانية ، وغالوب شوبين يتعلق بحبال الهواء مترقباً بارقةً من أمل . وفجأة اخذ بيل ميش المحكوم من ذراعه ، وقاده الى الزاوية وقال له :

ـ اعترف لي بكل خطاياك وانا انقلها الى الكاهن فيحلني منها جميعاً بالنيابة عنك. واذا كان لا بد من جزاء يفرض عليك للغفران فانا انفذه عنك ومن اجلك.

استغرق غالوب شوبين من الوقت فترة غير قصيرة لسرد خطاياه ، ولكن على الرغم من تعدد جرائمه وظروفها فقد اتى على آخر سبحته وقال لمعرّفه :

ـ ومع ذلك يا ابن العم، وبما اني اخاطبك بصفتك معرّفي الآن فاقسم لك باسم الله العظيم انه ليس هناك ما الام عليه سوى انني حشوت لقمتي بكثير من الزبدة ... استشهد القديس « لابر » الذي ترون صورته فوق المدفئة ، انني لم اقل شيئاً عن « الغار » . كلا يا صديقي العزيزين انني لم اخن .

ـ حسن ، انهض يا ابن العم سوف تتفاهم عن كل ذلك مع ربك .

ـ اتركاني اودع زوجتي بكلمة . فأجابه مارش آتير :

ـ هيا ، استعد ، تصرف تصرفاً بريتونيا وانتهِ بسلام .

امسك الناعقان مجدداً بغالوب شوبين ، والقياه على المقعــد وهو مستسلم لا يأتي باي مقاومة . لكنه اطلق بضع صيحات غامضة حين هوى الساطور على عنقه ، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد ، فحمله مــــارش آتير من

شعره ، وخرج به من الكوخ . واذ وجد مسماراً كبيراً في الباب ، جدل الشعر وعقده ثم علق الرأس الدامي دون ان يطبق عينيه .

غسل الناعقان أيديهما بهدوء في وعاء كبير مليء بالمـــاء ، ثم اخذا قبعتيهما وبندقيتيهما واجتازا السياج وهما يصفران لحناً بلدياً معروفاً .

وفيما كان بيل ميش يغني بعض مقاطع من أغنية شعبية قصيرة سمعت باربيت الغناء من بعيد :

في البلدة الاولى	ألبسهـا العاشق	ثوبهـا الابيض
في البلدة الاخرى	ألبسهـا العاشق	من فضة وذهب
جميلة فتانـــة	مدت لها الشفوف	في ملتقى العسكر

وراحت بدورها تغني المقاطع الباقية من الاغنية وهي في طريقها الى بيتها :

هيا بنا نرحـل	هيا الى الحرب	قد حانت الساعة
يا ضابطي الأمثل	أرجوك لا ترحل	بنيّتي راحت
ليست على الارض	ليست على البحر	ان شئت فاخطبها
تعـالي يا بنيتي	تجردي حـــالاً	للّيم ألقيك
والضابط الشامر	سبحاً تلقّاهـــا	والموت نجاها
هيا الى الحرب	يا بهجـــة القلب	قد حانت الساعة
في البلدة الاولى	الخ ...	

وما كادت تصل الى ساحة المنزل حتى جمد لسانها ، جمدت في مكانها لحظات ثم انفجرت من أعماقها صرخة أليمة ، قطعها ابنها بقوله :

– ماذا جرى يا امي الحبيبة .

سحبت يدها من يد ابنها بشراسة ودفعته الى الأمام قائلة :

– وحدك في الحياة ، لم يبق لك اب ولا ام !.

تطلع الولد باكياً الى الباب فرأى رأس والده معلقاً. فتح عينيه وتأمل طويلاً هذا الرأس الحبيب وهو مشدوه لا يعرف أي شيء يقول. وفجأة عادت باربيت

فأخذت بيد الطفل، فضغطت عليها بعنف وقادته بخطى خاطفة الى داخل المنزل.

اول شيء وقع بصرها عليه هو فردة حذاء زوجها مليئة بالدم اذ كانت تحت المقعد الذي ألقى مارش آتـير وبيل ميش غالوب شوبين عليه ليقطعا رأسه، وقالت للصبي :

– اخلع حذاءك، ضع قدمك في هذا الحذاء .. حسن، تذكر دائماً حذاء ابيك، لا تضع قدميك في أي حذاء بعـــد اليوم دون ان تتذكر الحذاء الذي وجدته مليئاً بدم سفكه الناعقون . انتقم لأبيك، اقتل الناعقين .

قالت ذلك وهزت رأسها بحركة عصبية، واستأنفت قائلة وقد اتخذ وجهها شكلاً مرعباً :

– أستشهد القديس «لابر» بأني نذرتك يا ولدي للزرق. سوف تكون جندياً لتنتقم لأبيك .. اقتل، اقتـــل الناعقين، افعل كما افعل انا، آه ! لقد قطعوا رأس زوجي، لأسلمن رأس الغار للزرق !.

وقفزت عن السرير كالمجنونـــة . تناولت كيس النقود من مخبئه . أمسكت بيد ابنها المذعور وجرته قبل ان يتمكن من احتذاء مداسه وسارت به في طريق فوجير غير ملتفتة الى الكوخ الذي قررت ان تهجره . وحين وصلت الى قمـــة صخور سان سولبيس أشعلت النار في الحطب يساعدها ابنها في ذر العيدان الخضراء المحملة بالجليد على الحطب ليزيد في لهيب النار، وقالت باربيت لابنهـا وهي تشير الى النار :

– ان هذه النار ستدوم أكثر من ابيك واكثر مني ومن « الغار » .

بينما كانت الثاكل وابنها يوقدان النار، كانت الآنسة دو فرنوي معلقة عينيها في تلك الصخرة، محاولة، عبثاً، اكتشاف الاشارة التي أعطاها المركيز، فقد كان الضباب الكثيف يغطي المنطقة ويحجب حتى أقرب الأمكنة من المدينة . كانت تتأمل المناظر حولها باهتمام زائد، والافكار تتواثب في رأسها ولما لم تر النار على رأس الصخرة في سان سولبيس، استرسلت في التفكير : لعلي تماديت في دلالي عليه !؟ حسبي انني عرفت مقدار حبه لي . آه يا فرانسين، لقد تحقق

الحلم ، هذا المساء سأصبح المركيزة دو مونتوران ، ترى أي شيء عملت لأستحق هذه السعادة الكاملة ؟ آه ، لقد احببته ، والحب وحده يدفع ثمن الحب .

– هذا المساء تصبحين المركيزة دو مونتوران يا ماري ؟ أكاد لا اصدق ، ترى من ذا الذي اخبره عن شمائلك ؟

– أي يا بنيتي ، ليست عيناه جميلتين فحسب ، انه صاحب نفس عالية ، آه لو رأيته في ساعة الخطر ! لا بد ان يكون رائعاً في الحب بقدر ما هو رائع في شجاعته .

– ان كنت تحبينه كل هذا الحب ، فلماذا اذن ترضين بمجيئه الى فوجير ؟

– وهل وجدنا الوقت الكافي لنقول كلمة عندما فوجئنا ؟ ومع هذا ، أليس في ذلك دليل حب ؟ .. بانتظار مجيئه ، سرحي شعري .

اكثر من مئة مرة خربت تسريحة شعرها بحركاتها المكهربة وبتلاحم افكارها المتهيجة باناقتها . مع كل عقصة لشعرها ومع كل جديلة تلقيها الى اعلى ظهرها تساؤل مرتاب :

– لتراه يخدعني !! وفيما هي تسائل المرآة عن وقع نظرة جانبية او ابتسامة رقيقة أو طية على جبينها أو آثر من غضب أو غنجة أو ازدراء ، كانت تبحث في الوقت نفسه عن حيلة جديدة تأسر بهـــا ، وحتى آخر لحظة ، قلب الزعيم الشاب . قالت لفرانسين :

– الحق معك ! انا على رأيك ، اريد ان يتم الزواج ، هذا هو آخر يوم من الأيام القاتمة . يوم فيه موتي أو سعادتنا . واردفت قائلة وهي تسرح بصرها فوق قمم صخور سان سولبيس المغطاة بالضباب :

– انه لضباب مقيت هذا الذي يحجب المناظر عن العيون .

وراحت تنزل الستائر الحريرية التي تزين النوافذ متعمدة خنق النور لتضفي على الغرفة ظلمة خفيفة فيها كثير من الفتنة .

ونادت فرانسين لتقول لها :

– ازيلي عن المدفأة كل ما عليها من الطـُرَف ولا تتركي عليها سوى المنبـــه والاناءين من بورسلين ساكس . سأضع فيها بنفسي ازهـــار الشتاء التي احضرها

لي كورنتان ... اخرجي جميع الكراسي ، لا اريد ان ارى هنا سوى الكنبة ومقعد واحد. وعندما تنتهين ، نظفي السجادة بحيث تصبح الوانها زاهيــة ، ثم اجعلي الشموع على جناحي المدفأة وفي المشاعل .

انعمت ماري النظر في السجاجيد المعلقة على الحائط، وبتذوق رفيع تبينت الألوان التي تربط بين هذه التحف الأثرية وبين اثاث المخدع بانسجام الألوان أو تعاكسها . وبنفس النهج رتبت الأزهار في الآنية التي تزين الغرفـــة .ثم وضعت الكنبة قرب النار . وعلى كل من الطاولتين المذهبتين على جانبي السرير المقابل للمدفأة وضعت اناءً من بورسلين ساكس مليئاً بالازهار التي تضوع منها أطيب العطور . ولقد اختلجت اكثر من مرة وهي ترتب طيـــات الستارة الخضراء المتماوجة فوق السرير وتلقي اللمسة الاخيرة على الغطاء الصيني البديع .

تلك ترتيبات لا تخلو من سر من اسرار السعادة غير المحدودة عند المرأة اذ تولد فيها اندفاعاً محبباً وتنسيها كما انست الآنسة دو فرنوي جميع شكوكهــا ومخاوفها. ان مثل هذه العناية والدقة لنوع من التعبير العميق لمخـلوق غائب حبيب قد يمنح ، فيما بعد ، ابتسامة رضى قدسية ترى فيها المرأة خير مكافأة لها على حسن ذوقها واناقتها . واذ ذاك فهي تستسلم ، مسبقاً للحب . فليس في النساء من لا تردد في نفسها في مثل هذا الموقف ما تمتمت الآنسة دو فرنوي :

– هذا المساء سأكون سعيدة !.. اطهر فتاة بين النساء ترسم هذا الأمل على تموجات الحرير والموسلين ثم ، بصورة لا شعورية ، يأتي الأنسجام الذي اضفته حولهـــا فيدمغ كل شيء بطابع الحب . وفي وسط هذا الجو الغرامي تصبح الاشياء شهوداً حية تشترك معها بجميع مسرات المستقبل ، فهي تسترق المستقبل في كل حركة وفي كل فكرة . ثم دهمها القلق وجفاها الصبر ففي كل حركـــة حدس جديد . الشك يقبض على صدرها بيد خشنة ، انهـــا تحترق ، تضطرم وتتمزق لفكرة عابرة تلسع كقوة مجسدة ، وكل ما حولهـــا ضائع بين النصر والفشل واللذة والعذاب . ولو لا فسحة الامل لما قدرت على الاحتمال .

مرات لا تعد رفعت الستائر وهي ترجو ان تشاهد عمود الدخان يرتفع فوق

الصخور ، ولكن الضباب كان يتكاثف اكثر فاكثر . فتتوهم ان كارثة ما ستقع. واخيراً عيل صبرها فاسدلت الستارة وقررت الا تعود الى رفعها مرة اخرى .

تأملت فرانسين سيدتها برهة ثم هتفت :

– ما أجملك !

– يا لنا من مجنونات نحن النساء ! اليس الحبيب هو دوماً ابهى زينتنا !

غادرت فرانسين الغرفة تاركة سيدتها لخواطرها وقد استلقت باسترخاء ناعم فوق الاريكة . وقد تأكدللفتاة ان سيدتها لن تقدم على التخلي عن المركيز لأي سبب كان .

التقى الجنرال هولو وكورنتان بباربيت وجرى بينهما الحديث التالي :

– هل انت متأكدة مما قلته ؟

– انظر بعينيك الى هناك، الى صخور سان سولبيس في غابة سان ليونار .

التفت كورنتان نحو القمة باتجاه المكان الذي اشارت اليه باربيت باصبعها . فرأى ، وقد تبدد الضباب ، عموداً من الدخان الرمادي الذي تكلمت عنـــه زوجة غالوب شوبين وسألها :

– متى يحضر ؟ أهذا المساء ام في هذا الليل ؟

– لست ادري .

– لماذا تخونين حزبك ؟

– آه! يا سيدي الجنرال، انظر الى قدم ولدي، انها مخضبة بدم زوجي الذي ذبحه الناعقون كما تذبح النعاج وذلك ثمناً للكلمات القليلة التي انتزعت مني امس الاول . خذ ولدي .. خذه . بما انك كنت السبب في حرمانه من ابيــه ومن امه، فأجعل منه ازرق حقيقياً ايها الرجل الكريم ، وليقتل الكثير من الناعقين. هذه مئتا دينار ، احتفظ بها لولدي ، انها جني أبيه في مدى اثني عشر عاماً .

نظر هولو بدهش الى هذه القروية الشاحبة المغضّنة الوجه ، وقال لها :

– وانت ؟ ماذا سيحل بك ؟ الافضل ان تحتفظي بالمبلغ لنفسك .

– لنفسي ? وهزت رأسها أسفاً وهي تستأنف قائلة : ولكنني لم أعد بحاجة

الى شيء ! لو خبأتني في برج قصر فوجير فلا بد ان يصل الناعقون إلي لقتلي .

قالت هذا وقبلت ولدها قبلة أليمة ، ثم نظرت اليه ملياً والدموع تنهمر من عينيها ، ثم اخذت طريقها وتوارت !..

هنا خاطب كورنتان القائد بقوله :

– هذه فرصة ثمينة ينبغي، للاستفادة منها ، تفكير رجلين لا رجل واحد. ان حاصرنا بيت الآنسة دو فرنوي ، كلانا ، حملناهـا على الوقوف ضدنا ، ولسنا نحن وجميع جنودنا بقادرين ان نقف في وجه هذه المرأة لو شاءت ان تنقذ الرجل ، ان المركيز هو ربيب البلاط ولا بد ان يكون واسع الحيلة ، انه شاب صلب العود، ولا يمكن ان نقف بانتظاره على مدخل فوجير ، اذ ربما قد دخلها . ولا فائدة من مداهمة المنازل لأن في ذلك تنبيهاً للسكان او ازعاجاً لهم. فقال هولو:

ـ سأطلب من حارس مركز سان ليونار ان يزيد على دورته ثلاث خطوات فيصل قبالة منزل الآنسة دو فرنوي ، وفي نفس الوقت اتفق مع الحراس على اشارة ادرك بها ان شاباً ما دخل المنزل فأكون على رأس فريق من الحرس الوطني هناك .

فقاطعه كورنتان بقوله :

– واذا لم يكن ذلك الشاب هو المركيز بعينه ؟ واذا كان المركيز لا يدخل المنزل من الباب ؟ واذا كان الآن موجوداً في المنزل ؟ واذا واذا واذا ..

كان كورنتان يخاطب القائد وفي لهجته شيء من التعـالي ومن السخرية فثارت كبرياء القائد وصاح محنقاً : اليك عني يا مواطن، الى جهنم.. ان وقعت الطريدة بين يدي رجالي فسأقتلها وان علمت ان الرجـل في منزل ما ذهبت لمحاصرته واعتقال المطارد واطلاق النار عليه، ثم تقيم في وجهي الصعوبات انت!

– يا سيدي ، ان رقيم الوزراء الثلاثة يأمرك باطاعـة الآنسة دو فرنوي .

– لتأتِ هي بنفسها الي وعندئذ يكون لكل حادث حديث .

– انها لن تلبث ان تقول لك بذاتها متى يأتي النبيل . قد تغضب وتثور لو رأتك تضع عليها الحراسة وتحاصر منزلها ..

– هذا الرجل هو الشيطان بعينه ، قال القائد العجوز في نفسه وهو يشاهد كورنتان يصعد بخطى واسعة درج رين حيث جرى هذا الحوار ويأخذ طريقه الى مدخل سان ليونار . وعاد القائد يخاطب نفسه قائلاً :

– سيسلمني مونتوران مقيــداً بالسلاسل فأضطر الى ترؤس مجلس حربي لمحاكمته .. لا بأس ! ان « الغار » هو عدو الجمهورية وقاتــل صديقي جيرار ، فلينقص عدد النبلاء واحداً ، والى الجحيم ...

ثم استدار على عقبيه وراح يزور مراكز المدينة وهو يصفر لحن المارسيلييز نشيد الجمهورية الوطني .

وفي هــذا الوقت ، كانت قدما كورنتان تطآن صالة الآنسة دو فرنوي التي كانت غارقة في احلامها المتقلبة . واذ واجهته قال لها ضاحكاً :

ـ ايتها المحتالة الصغيرة ، اما زلت تخادعينني ؟ ماري ، يا مــاري ! انك تلعبين دوراً خطر جداً ما دمت لا تشركينني باللعبة وتتصرفين دون استشارتي. ان نجا المركيز بجلده ... فقاطعته بقولها :

ـ لن تكون انت المسؤول .. ثم بأي حق تدخل بيتي ؟

ـ بيتك ؟ قالها بلهجة ساخرة . فأجابته بكبر :

ـ انك تذكرني بانني لست في بيتي ، لعلك اخترت لي هذا البيت لتكون في حرز حريز عند ارتكاب جرائمك ، سأخرج من هذا البيت . سأذهب لاعيش في الصحراء حتى لا ارى .. فأجابها مقاطعاً :

ـ حتى لا ترى الجواسيس .. لكن هــذا البيت ليس لي ولا لك ، انه للحكومة . وخروجك منه لا يفيدك بشيء .

امتعضت الآنسة دو فرنوي من لهجته ونظرته التهكمية فنهضت عن مقعدها وتقدمت بضع خطوات ولكنها توقفت فجأة حين رأت كورنتان يرفع ستارة النافذة ويدعوها للوقوف الى جانبه وهو يقول لها بهدوء :

ـ ارأيت عمود الدخان هناك ؟

– ما شأن هذا العمود برحيلي من هنا ؟

ـ لماذا تغيرت نبرة صوتك ؟ يا مسكينة انني عارف بكل شيء، ان المركيز سيحضر اليوم الى فوجير . وليس بقصد تسليمه الينا اقمت كل هـذه الزينات ، في هذا المخدع ، من ازهار وشموع .

شحب وجه الآنسة دو فرنوي وهي ترى مصرع المركيز في عيني هـذا الوحش البشري. واحست بعاطفة حب نحو حبيبها تقرب من الهذيان ، في منبت كل شعرة في رأسها احست بوخزة أليمة ،حتى لم يعد بامكانها ان تقف على رجليها فسقطت على الاريكة منهارة القوى . اما كورنتان ، فقد وقف هنيهة مكتوف الذراعين، فرحاً وحزيناً في نفس الوقت، فرحاً لأنه وجد في تعذيبها انتقاماً له، وحزيناً لأنه ما برح يستطيب حمل نيرها مهما كان ثقيلاً ، وقال بصوت مسموع :

ــ انها تحبه ! فصرخت قائلة :

ـ احبه فقط ؟ انه حياتي. انه نفسي ، انه الهواء الذي انشق.. وانطرحت على قدميه قائلة :

ـ يا ذا القلب الرخيص ، والنفس الوضيعة ! احب الي ان اهون في سبيل انقاذه من ان اهون من اجل هلاكه ، سأفتديه بدمي .. تكلم ايها الرجل ، ماذا يعوزك ؟

ـ جئت لأتلقى اوامرك يا ماري . قالها مرتجفاً وبصوت حنون . ورفعها عن الأرض بتوءدة وادب ثم اردف قائلاً:

ـ اجل يا ماري ، ان اهاناتك لي لا تمنعني من اكون لك بكلي على ان لا تخدعيني فيا بعد .

ـ ان كنت تريدني عل احبك ، فساعدني على انقاذه .

ـ حسن . في أي وقت يجيء المركيز ؟

ـ آسفة ، لست ادري .

وراح الاثنان يتبادلان النظر فقالت ماري في نفسها :

ـ لقد ضعت ! .. وقال هو في نفسه :

ـ انها تخدعني ، وخاطبها بقوله :

ـ لدي ، يا ماري ، مبدآن . المبدأ الاول هو ألا اصدق كلمة ممـــا تقوله النساء . والثاني ان ابحث دائماً عن المصلحة التي تسعى اليها المرأة والتي تتنافى تماماً مع الكلمات التي تتلفظ بهـــا شفتاها ... اعتقد اننا متفاهمان الآن ، اليس كذلك ؟

ـ كل التفاهم . لا ريب انك تطلب البرهان ولكنني احتفظ بهذا البرهان الى ان تثبت لي حسن نيتك .

ـ الوداع يا آنستي ، قالها كورنتان بكثير من الجفاء وهو يهم بالانصراف.

ـ ابق هنا ، اجلس على هذا المقعد ، ومهلاً بعض هذا الدلال والحرد ، وإلا فاني أستطيع ان استغني عنك في انقاذ المركيز، اما من جهة الـ ٣٠٠ ألف فرنك التي تراها مفروشة امامك فاني ابدلها لك ذهباً في أي لحظة يصبح فيهـــا المركيز بأمان .

نهض كورنتان وتراجع بضع خطوات الى الوراء وهو يقول لها: لقد أصبحت ثرية بمدة وجيزة .

ـ بامكان مونتوران ان يدفع لك ضعف هذا المبلغ فدية عن حياتـــه . فأثبت لي ان لديك الوسائل الكافية لابعاد الخطر عنه .

ـ الا تستطيعين ان تهربيه ساعة وصوله ما دام هولو يجهل ساعة اللقاء و .. توقف فجأة عن الكلام كأنه يلوم نفسه واستدرك قائلاً :

ـ أأنت تطلبين مني حيلة ؟؟ اصغي الي يا ماري . انني متأكد من ولائك ، عديني انك تعوضين علي كل ما اخسره في سبيلك ، هدئي القائد حتى يتمكن المركيز من التنزه في فوجير وكأنه في سان جيمس .

ـ انني اعدك بما طلبت .

ـ لا ، ليس هكذا ، اقسمي لي بامك .

ارتعشت الآنسة دو فرنوي وهي ترفع يدها . وأدت القسم كما طلب الرجل الذي تغيرت لهجته تماماً حين قال :

ـ تستطيعين الاعتماد علي ، لا تخدعيني ولسوف تباركين يدي هذا المساء .

ـ لقد صدقتك .

وودعته باحناء رأسها وبابتسامة هي مزيج من التحنان والدهش ولا سيما حين طفت على وجهه موجة من الحنان الكئيب .

« ما اروعها مخلوقة ! » هتف كورنتان وهو يبتعد عنها ، ليتني احوزها لتكون مصدر ثروتي ولاستمتع بها في نفس الوقت . اهي التي جثت امامي حقاً ؟ .. آه ! ذلك لأن المركيز في خطر . اذا كنت لا استطيع الوصول اليها الا بعد اغراقها في حمأة من الوحل فسأغرقها حتى تكون لي في النهاية .

وكانت قدماه قد قادتاه الى الساحة دون علم منه حين وصل في تفكيره الى القول :

ـ على كل حال ، لعلها لم تعد ترتاب بي ، ٣٠٠ الف دينار ذهب تدفعها في الحال !.. تحسبني محباً للمال ، بخيلاً . هذه حيلة ولعلها تزوجت المركيز من حيث لا ادري .. ترى من أين جاءت بالمال ؟ وتضعضع فكره فلم يجرؤ على اتخاذ أي قرار حاسم .

الضباب الذي كان قد تبدد في اواسط النهار ، عاد يتكاثف حتى حجب عن عيني كورنتان اقرب الأشجار اليه . « تلك مصيبة اخرى » قال في نفسه وهو يحث الخطى الى منزله . وكان من المحال رؤية شيء على بعد ست خطوات منه .

بين الصخور العالية ، عثر كورنتان بغلام يتسلق الصخور فقبض على ذراعه وقال :

ـ من الحي ؟

فأجاب الغريب بصوت طفل بريء :

ـ انا ، يا سيدي .

ـ آه ! انت الصبي ذو القدم الحمراء . الا تريد ان تثأر لوالدك ؟

ـ أجل .

ـ حسن ، هل تعرف « الغار » ؟

ـ نعم ، اعرفه .

ـ شيء عظيم ، عليك ان تلازمني وافعل ما اقول لك بدقة. وهكذا تكمل المهمة التي بدأتها امك وتكسب مبلغاً كبيراً من الفلوس ، هل تحب الفلوس ؟

ـ أجل .

ـ اذن فانت تحب الفلوس المستديرة الكبيرة وتريد ان تقتل « الغـار » .. سأعتني بك . وخاطب كورنتان نفسه قائلاً :

ـ ايه ! ماري ! ستسلميننا المركيز بنفسك .. انها في حالة من الهيـاج لا تسمح لها بتمييز الضربة التي سأسددها لها . فضلاً عن ان العاشقين لا يدققون في الأمور ، فان هذه لا تعرف خط حبيبها المركيز ، وهذا هو الوقت المنـاسب لمكيدة تحطم كبرياءها . لكن لا بد لي من هولو لكي اضمن النجـاح لحيلتي . فلأذهب اليه .

في الوقت نفسه كانت الآنسة دو فرنوي وفرانسين تبحثان الوسائل الممكن اتباعها لانقاذ المركيز من كرم كورنتـان المريب ومن حراب هولو . فارتأت الخادمة ان تذهب بنفسها لتخبر « الغار » بالواقع . فلم يعجب هذا الرأي ماري لاستحالة العثور به او معرفة الطريق التي يسلكها ، وبعد ان استعرضتا عدة مشاريع خياليـة ارتأت الآنسة دو فرنوي ترك الامور تجري في أعنتها الى ان يحضر المركيز فان رأت أنه في خطر عملت بوحي الساعة .

وفيما هي فريسة للهواجس ، فهي متشائمـة تارة ، وطوراً متفائلة ، اذا هي تسمع طلقات ارسلتها اثنتا عشرة بندقية دفعة واحدة في الخارج ، فشدت على يد فرانسين قائلة : اني أموت .. لقد قتلوا خطيبي .

وبعد قليل سمعت وقع أقدام ثقيلة في الصالون فنهضت فرانسين على رغمها ، وأدخلت الى مخدع سيدتها جندياً جمهورياً أدى للآنسة دوفرنوي التحية العسكرية وقدم لها رسالتين في ورقة قليلة النظافة ، واذ لم يتلق جواباً : قال انها من قبل القائد هولو وانسحب .

قرأت ماري الرسالة الاولى بامضاء هولو وقد جاء فيها ما يلي :

حضرة الآنسة .

لقد قبض رجالي على احد مبعوثي « الفار » فقتلوه . من بين الاوراق التي عثروا بها معه رسالة أبعث بها اليك لعلها تفيدك بشيء .. الخ ..

ألقت رسالة هولو في النار وهي تشكر الله لأنه لم يكن حبيبها هو القتيل . تنفست بارتياح وقرأت باهتمام زائد الرسالة الاخرى وكانت من المركيز موجهة الى مدام دو غوا . وقد ورد فيها ما يلي :

... كلا ، يا ملاكي ، لن أذهب هذا المساء الى فيفتيير ، ستخسرين هذا المساء رهانك مع الكونت ، اما انا فسأقهر الجمهورية بشخص تلك الفتاة اللذيذة التي تساوي حتماً ليلة واحدة . وأظنك توافقينني على صحة تقديري ، ذلك هو الربح الوحيد الذي سأحرزه من هذه الحملة الحربية ، اذ ان مقاطعة « فانده » استسلمت، ولم يعد لي أي عمل في فرنسا. وسنرحل معاً وبدون شك الى انكلترا. فالى الغد ..

سقطت الرسالة من يدها وأطبقت عينيها في صمت عميق . لم تتحرك في مكانها بل بقيت كما هي مائلة الى الوراء ، ورأسها مسند الى وسادة . وبعد قليل فتحت عينيها وتطلعت الى المنبه فاذا الساعة قد قاربت الرابعة . وبسخرية قاسية قالت : وفوق ذلك فحضرته يأبى إلا ان يحضر متأخراً لينتظره الناس.

قالت فرانسين : ليته لا يأتي ..

– اذا لم يحضر ، ذهبت انا اليه ، ولكنه ان يلبث ان يكون هنا ، أأنا جميلة يا فرانسين ؟

– اراك شاحبة الوجه .

– انظري هذه الغرفة المعطرة ، هذه الازهار ، هذه الانوار ، أترى كل شيء هنا يمكن ان يعطي فكرة عن حياة الجنة لذلك الذي سأغرقه هذه الليلة في لذة الحب .

– ماذا حدث يا سيدتي ؟

– الذي حدث هو انني ضحية خيانة ومخادعة ورياء ، لقد خسرت كل شيء . وسأقتله حتماً ، سأمزقه تمزيقاً وانكل به تنكيلاً .. أي نعم ، كان في

حركاته وتصرفاته احتقار لا يحسن اخفاءه ولم أشأ ان أستبينه. آه! انني اموت، لكم انا بلهاء، سيحضر .. وفي هذه الليلة سأعلمه ان الرجل الذي نالني، سواءاً أكان زوجي او عشيقي لا يمكنه قطعاً ان يتركني، سأفصل انتقامي على قياس الاهانة، وسيموت مقطوع الرجاء. كنت أتوسم فيه الشهامة والاباء، ولكنه، ولا شك، من نسل نادل حقير لا من نسل امير خطير. لقد خدعني بمهارة حتى أبيت ان اصدق ان الرجل الذي سلمني لبيل ميش بدون شفقة يمكن ان ينحط الى مخاتلات ومداجاة تليق بالرعاع. أن يلعب على امرأة أحبته فذلك جبن ما بعده جبن، ان يقتلني فلا بأس، اما ان يكذب! هو الذي رفعتُه في عيني! الى المقصلة، الى المقصلة وليتدحرج رأسه عن جسمه بلا أسف، أتراني عاتية؟ سأتركه يموت مغموراً بمداعبات وقبلات تكلفه عشرين عاماً من حياته.

بصوت عذب ملائكي هتفت فرانسين مخاطبة سيدتها بقولها: كوني ضحية خطيبك ولكن لا تكوني عشيقته وجلاده، احفظي صورتــه في عمق قلبك متجنياً لا حانقاً، لو لم يكن لنا في الحب اليائس أية مسرة فماذا يحــل بنا نحن النساء التعسات؟ الله وحده يا ماري، الله الذي لا تفكرين به مطلقاً، هو الذي سيجزينا جزاء خضوعنا لحكمه علينا: حب واوجاع!

– يا لك من قطة ناعمــة وما احبك الي من واعظة! قالت لها الآنسة دو فرنوي وهي تلامس يدها، وأضافت: في صوتك عذوبة وسحر! وان الحكمة لتغدو عذبة على لسانك، سأعمل بمشورتك...

– أتسامحينه ولا تسلمينه؟

– اصمتي ولا تعودي الى ذكر هذا الرجل، لقد أصبح كورنتان بالنسبة اليه مخلوقاً شريفاً، أفهمت.

قالت هذا ونهضت مصطنعة هدوءاً رهيباً، وهي تكتم تضعضعاً جارفاً وتعطشاً مريراً للانتقام. في مشيتها البطيئة المتزنــة تصميم دفين يعلم الله على أي شيء انطوى. واتجهت نحو مركز حراسة مدخل سان ليونار لتسأل عن مقر القائد هولو. وما كادت تخرج من منزلها حتى دخله كورنتان فابتدرته فرانسين بقولها:

ـ اواه ! يا سيدي . اذا كان يهمك أمر المركيز الشاب فانقذه . لقد قررت الآنسة دو فرنوي ان تسلمه بسبب تلك الرسالة المشؤومة التي خربت كل شيء .

ببرود اخذ كورنتان الرسالة وسأل :

ـ الى اين ذهبت ؟

ـ لست ادري .

ـ انا ذاهب لانقذها من يأسها .

توارى حاملاً معه الرسالة . اجتاز المنزل بسرعة وسأل الصبي الذي كان يلعب أمام الباب :

ـ في أي طريق سارت السيدة التي خرجت من هنا ؟

مشى ابن غالوب شوبين بضع خطوات مع كورنتان ليدله على الطريق المنحدر الذي يؤدي الى مدخل سان ليونار .

في هذا الوقت دخل منزل الآنسة دو فرنوي اربعة رجال متنكرين لم يرهم احد .

وقال كورنتان للصبي :

ـ عد الى حيث كنت ، وتظاهر بانك تتسلى بتحريك مزلاج الشباك وانتبه جيداً ، تطلع في كل مكان حتى فوق السطوح .

وانطلق كورنتان مسرعاً في الاتجاه الذي اشار اليه الصبي ، متصوراً انه يرى الآنسة دو فرنوي وسط الضباب ، ولحق بها لدى وصولها الى مركز سان ليونار . فقال لها ، وهو يقدم لها ذراعه لتستند اليها :

ـ الى اين؟ انك صفراء اللون،ماذا جرى؟ هل يليق بك ان تخرجي وحدك؟ اليك ذراعي .

ما كادت تنهي سؤالها عن مقر القائد حتى سمعت حركة استقبال عسكرية رسمية خارج مدخل سان ليونار واستطاعت ان تميز صوت هولو وسط الجلبة وهو يقول :

ـ يا لصاعقة السماء ، في حياتي لم اقم بدورية في مثل هذا الضباب المشؤوم ،

لقد تحكم ذلك النبيل بالوقت ، فالرياح تجري كما يحلو له .

اقتربت الآنسة دو فرنوي من القائد . وبعد ان ضغطت على ذراعه خاطبته بقولها :

ـ من أي شيء تتذمر ؟ هذا الضباب يخفي الانتقام كما يخفي الخيانة. المهم ان تشترك معي في اتخاذ أضمن التدابير بحيث لا يتمكن الغار من الهرب اليوم .

ـ أهو عندك الآن ؟

ـ كلا ، لكنك ستعطيني رجل ثقة ارسله اليك ساعة وصول المركيز. وهنا تدخل كورنتان :

ـ ماذا انت فاعلة؟ وجود جندي في منزلك سوف يخيفه ، اما وجود طفل فلا يوحي بالارتياب ، وساجد لك هذا الطفل .

اردفت الآنسة دو فرنوي قائلة للقائد : بفضل هذا الضباب الذي تلعنه ، تستطيع منذ الآن ان تطوف حول منزلي ،ضع جنودك في كل مكان. اقم الحراسة في كنيسة سان ليونار لتراقب الساحة التي تطل عليها نوافذ صالتي . اقم معسكراً في ساحة برومناد. ان نوافذ غرفتي ولو ارتفعت عشرين متراً عن الأرض فقد يجد اليائس قدرة على القفز منها . اصغ الي ، ربما اخرجت ذلك الرجل من باب بيتي ، فعليه لا تعهد بمهمة مراقبته الا لرجل شجاع . اذ لا يمكن ان ننكر جرأة الغار ، فهو ، لا بد سيدافع عن نفسه .

نادى القائد هولو على الضابط غودن الذي حضر في الحال وقال له بصوت خفيض:

ـ اسمع يا ولدي . ان هذه الفتاة الصاعقة تريد ان تسلمنا الغار ولا اعرف السبب ، ، وليس من شأني ان اعرف . خذ معك عشرة رجال وتمركز بحيث ترى كل شيء ولا يراك احد .

ـ حاضر ، يا سيدي القائد ، انني اعرف هذه الديار .

ـ حسن ، يابني ، سأرسل اليك بوبيه ينذرك من قبلي بالوقت المناسب لتلعب لعبتك ، احرص ان تلحق بالمركيز . اقتله ان استطعت حتى لا اضطر الى قتله بنفسي بعد المحاكمة ، فان كان قتله على يدك رفعتك الى رتبة ملازم والا لا

يكون اسمي هولو . وقال موجهاً الكلام الى الآنسة دو فرنوي :
ـ هذا ارنب لا يتراجع . سيؤمن الحراسة أمام منزلك . حتى اذا دخل النبيل أو خرج فلن يخطئه .
ذهب غودن مع العشرة الرجال وما كاد يتوارى حتى التفت كورنتان نحو ماري وقال لها بصوت خفيض :
ـ اتعرفين ماذا تفعلين ؟
لم ترد عليه بل استمرت تنظر بشيء من الرضى الى الذاهبين بقيادة غودن ليتمركزوا في محلة برومناد . واستدارت لتقول للقائد :
ـ يوجد منازل ملتصقة بمنزلي . حاصرها هي الأخرى اذ لسنا مستعدين ان نندم على اي تهاون في الوقاية .
قال هولو :
ـ انها متهيجة . فأسرّ كورنتان في اذنه قائلاً :
ـ الست نبياً انا ؟ اما الذي سأضعه في خدمتها فهو الصبي ذو القدم الحمراء وبذلك ...
وقبل ان يكمل كلمته ، رأى الآنسة دو فرنوي قد انطلقت فجأة نحو منزلها ، فلحق بها وهو يصفر كالرجل السعيد الى ان وصلت الى مدخل المنزل حيث كان ابن غالوب شوبين في انتظاره ، فقال لماري :
ـ ادخلي معك هذا الولد . لن تجدي احداً في مثل براءته وسرعته ، وقال للصبي :
ـ عندما ترى الغار يدخل المنزل وتسمع اي كلمة تقال لك ، اهرب وتعال الي تجدني في قيادة الحرس الوطني . سأقدم لك ما يكفيك من الفطائر طوال حياتك .
ضغط الطفل على يد كورنتان تحبباً ولحق بالآنسة دو فرنوي .
ولما أغلق الباب تمتم كورنتان بينه وبين نفسه قائلاً : والآن يا صاحبيّ تفاهما قدر ما تشتهيان . اما انت يا مركيزي الصغير فان شئت ان تحب فسيكون ذلك في نعشك !..

غير انه لم يشأ ان يحول نظره عن المنزل المشؤوم ، فتوجه الى محلة البرومناد حيث رأى القائد يوزع أوامره .

خيم الظلام وانقضت ساعتان دون ان يلحظ الحراس المنتشرون على مسافات متقاربة أي شيء يبعث الارتياب او يدل على ان المركيز قد اخترق الحصار المثلث حول المنافذ الثلاثة الى برج بابيغو .

وتنقل كورنتان بين البرومناد وقيادة الحرس الوطني مرات عديدة بغير جدوى ، فلم يشعر بحركة مريبة ولا جاءه الصبي . وبأفكار مشوشة سار الى البرومناد بخطى بطيئة وهو يعاني أنواعاً من العذاب ، دوافعها ثلاثة : الحب والطمع والطموح .

دقت الساعة الثامنة ولم يطلع القمر ، فالظلمة والضباب مخيمان على الأمكنة التي ينتظر ان تكون مسرحاً للمأساة التي يعدها هولو . لقد فرض عليه مفوض البوليس الاعلى الصمت التام فصمت وشبك يديه على صدره معلقاً بصره بالنافذة المرتفعة وقد بدت كشبح مضيء فوق البرج ، وحين قادته قدماه جهة الوادي ، راح يراقب الضباب الموشح بأشعة صفراء تضفيها أضواء المنازل المبعثرة في المدينة والضواحي ، ولم يكن يعكر السكون سوى وقع أقدام الحراس او قعقعة السلاح بين ساعة واخرى حين يبدل الحراس . كل شيء بدا في تلك الليلة ، شديد الوطأة ، صارماً ، الطبيعة والبشر .

في هذا الوقت بالذات كانت فرقة من الناعقين تزحف على البطن في الوادي السحيق ، يتقدمها مارش آتير وبيل ميش . ولدى اقتراب الاخير من منزل الآنسة دو فرنوي قال بيل ميش : الظلام حالك كأننا في حلق ذئب . فأجابه مارش آتير : تابع زحفك والزم الصمت والسكينة التامة . اجاب الناعق :

– أكاد لا أجرؤ على ترديد أنفاسي .

– ان أراد ذلك الذي دحرج الحجر بقدمه ان يجعل قلبه غمداً لخنجري فليعد الكرة !

– انا من دحرج الحجر من غير قصد .

ـ قلت لك أيها الكيس العتيق ان تزحف على بطنك كحية السياج وإلا أصبحنا جثثاً قبل ان يؤون الاوان .

غير ان بيل ميش استمر زاحفاً نحو خط رفيقه مستعيناً بيديه للزحف على بطنه ، واذ حاذاه همس في أذنه بصوت خافت جداً قائلاً :

ـ ان صدقت الست الكبيرة فسنجد في فوجير غنيمة مشبعة ، فهل تريد ان نكون شريكين ؟ .

توقف مارش آتير عن الزحف فاقتدى به جميع الناعقين الزاحفين وراءه وقد أرهقهم الزحف بين صخور الوادي الشاهقة ، وقال لبيل ميش : اصغ الي جيداً ، عرفتك محباً للغنائم كما عرفتك في المعركة تسدد الضربات أكثر مما تتلقى ، ولكننا لم نأتِ الى هنا لنحتذي أحذية الاموات . إننا أبالسة ضد أبالسة ، والويل لمن قصرت مخالبه .ان الست الكبيرة (دو غوا)أرسلتنا لننقذ« الغار »، وها هو هنا ، ارفع أنفك وانظر تلك النافذة فوق البرج .

انتصف الليل وطلع القمر فأضفى على الضباب لوناً ابيض . فضغط بيل ميش بعنف على ذراع مارش آتير وهو يشير بصمت الى حراب مشهرة على ارتفاع عشرة اقدام فوقهم وقال: لقد تمركز الزرق وليس لدينا القوات الكافية لمجابهتهم .

ـ صبراً ، لقد تحريت الأمكنة في الصباح فوجدت في اسفل البرج بين الحواجز والبرومناد مكاناً صغيراً يطرحون فيه القمامة ، ويمكننا ان نسقط فيه كما نسقط على السرير ، قال بيل ميش: لو شاء القديس «لابر» ان يحيل الدماء التي ستسفك خمراً لوجد الفوجيريون غداً مؤونة كافية لسنة كاملة .

اطبق مارش آتير براحة يده العريضة فم صديقه ، ثم قال كلمة انتقلت من فم الى فم حتى آخر الناعقين المعلقين في الهواء بنواتىء الصخور .

كان لكورنتان سمع كسمع الخلد ، وبصر حاد يكاد لا يفوته شيء ، فما عتم ان سمع تحرك الحجارة تحت البطون الزاحفة ورأى اهتزاز الاشجار لدى مرور الناعقين . ويبدو انه كان لمارش آتير ، هو الآخر ، عينان اعتادتا الرؤية في الظلام وحواس متيقظة كحواس الحيوانات البرية ، فقد استطاع ان يتبين كورنتان

كما يتبين الكلب المدرب وجود الآخرين بالشم او بالحدس. لكن كورنتان بالرغم من تحريه السكون وتحديقه الى جدار الصخور الساكنة لم يكتشف شيئاً. فان اتاح له انقشاع الضباب العابر رؤية بعض الناعقين ، حسبهم من جلاميد الصخور لدقة مجاراتهم للطبيعة في الصمت والجمود . لكن لم يلبث الخطر الذي كان يهدد هذه الجماعة ان زال ، فقد استأثرت بكورنتان جلبة واضحة في الطرف الآخر من البروموناد ، في النقطة التي ينتهي عندها جدار الارتكاز ويبدأ انحدار الصخور ، وفي اللحظة التي وصل فيها كورنتان الى ذلك المكان ، انتصب امام ناظريه وجه آدمي ، فمد يده ليقبض على المخلوق الوهمي او الحقيقي فاحس بجسم مستدير طري لا يكون عادة إلا في اجسام النساء . فانتهرها بقوله : خزاك الشيطان ! لو لم تكن وقعتك معي لاخترق الرصاص رأسك ... من أين جئت ، وأين تذهبين في مثل هذه الساعة ؟ ام انت خرساء ؟

علمت المرأة ان في سكوتها ما يثير الريب فأجابت بصوت ينم عن خوف عظيم :

ـ آه يا سيدي ، انا عائدة من سهرة .

ـ حسناً . اذهبي من هنا ايتها الساهرة ، من هنا الى اليسار ان اردت النجاة.

قال لها ذلك وظل جامداً في مكانه . الا انه حين رأى مدام دو غوا متجهة نحو برج بابيغو تتبعها من بعيد بمهارة شيطانية وقد تبين له انها تلك المرأة التي ادعت انها ام المركيز وتركها تذهب لترى أي شيء ستفعل . واثناء هذه المقابلة المشؤومة ، كان الناعقون قد تمركزوا فوق القمامة التي قادهم اليها مارش آتير .

وكالدب المدرب على الوقوف على قدميه انتصب مارش آتير على حائط البرج. فاذا رأى مدام دو غوا اشعرها بوجوده مع رفاقه فقالت له :

ـ لو استطعت ان تجد سلماً في هذا المنزل الذي تؤدي حديقته الى مسافة ست اقدام من المزبلة لنجا المركيز . اترى النور المنبعث من المخدع فوق ؟ انها غرفة التواليت المتصلة بالصالة ، الى هذا المكان ينبغي ان تصل بالسلم . هذه الجهة هي الجهة الوحيدة غير المحاصرة ، الجوادان جاهزان ، واذ كنت قد امنت ممراً في تانسون استطعنا في ظرف ربع ساعة ان نضعه في مأمن من الخطر على الرغم من جنونه . الا ان تلك الساقطة ستلحق به ، فان حاولت ذلك فاطعنها بخنجرك .

لاحظ كورنتان ان تلك الاشكال التي حسبها حجارة اخذت تتحرك فذهب تواً الى مركز سان ليونار حيث وجد هولو نائماً . فأيقظه واخبره بوجود الناعقين في البرومناد . استغرب القائد وكاد ينكر ما يسمع ولكنه قال وهو شبه نائم :

– خير خير ، فالمعركة باتت قريبة .

وحين وصل هولو الى البرومناد اراه كورنتان المركز الفريد الذي يشغله الناعقون ، فانتفض القائد وقال :

ـ لا بد انهم خنقوا حراسنا على طريقهم او خدعوهم . لكن ، صبراً ، سأرسل الى اسفل الصخرة خمسين رجلاً بقيادة ضابط من ضباطنا الاشداء . فليس من الحكمة مهاجمتهم في هذا المكان . لان هؤلاء الحيوانات ذوو اجسام مدربة فبوسعهم ان يتدحرجوا الى اسفل الوادي كالحجارة دون ان يصابوا بأذى.

كانت الساعة تدق الثانية بعد نصف الليل حين رجع هولو الى البرومناد بعد ان تخذ الاحتياطات العسكرية الصارمة ليواجه الناعقين وقائدهم مارش آتير . وهكذا ضوعف عدد حراس جميع المراكز واصبح منزل الآنسة دو فرنوي مركزاً لجيش صغير . ووجد كورنتان شاخصاً بعينيه الى النافذة التي تشرف على برج بابيغو فقال له :

ـ اظن ان النبيل يتعمد ازعاجنا ، فحتى الآن لم يظهر شيء . فاجابه كورنتان بان المركيز حضر وانه رأى ظل رجل على الستارة وقال :

ـ انني قلق على الصبي الصغير ، فلعلهم قتلوه او اغروه . وانها لكذلك اذ بخيال رجل يتحرك خلف النافذة فدعا كورنتان القائد لكبس البيت فابى هولو ان يقبض على المركيز وهو في السرير وقال :

ـ كما دخل فسيخرج واذ ذاك نصطاده . هنا كرر كورنتان الطلب وأمره باسم القانون ان يبدأ الزحف على المنزل ، فسخر منه هولو بقوله :

ـ انك ما زلت اصغر من ان تصدر الأوامر .

وببرود ، ودون ان يعبأ بغضب القائد ، قال كورنتان :

ـ ستطيعني بموجب هذا الأمر الموقع بامضاء وزير الحربية ، ام انك تظن اننا بسطاء الى حد ترك هذه الآنسة تتصرف على هواها ؟ انها الحرب المدنية ،

ونتائجها العظيمة تبرر الوسائط الحقيرة .
ـ اسمح لنفسي ايها المواطن ان.. أتفهمني؟ كفى. اغرب عن وجهي اسرع.
ـ ولكن ، اقرأ الأمر .. قال كورنتان .
ـ لا تزعجني بوظائفك ! صاح هولو في وجه كورنتان ، ورفض ان يتلقى الاوامر من مخلوق يحتقره .
في هذه اللحظة ظهر ابن غالوب شوبين وسط الرجلين كجرذ خرج من الارض . وقال : ـ « الغار » آتٍ في الطريق .
– من أي جهة ؟
– من طريق سان ليونار .
وهنا نادى هولو على بوبيه وكان قريباً منه فطلب منه ان يسرع في تحذير رئيسه الملازم ليتقدم نحو المنزل ويقيم نطاقاً من الجنود حوله .

* * *

نعود الى الكلام عن الآنسة دو فرنوي وما حل بها بعد مقابلتها لهولو وتحريضها إياه ، تحت وطأة الغضب الشديد ، على اتخاذ أقصى التدابير لاعتقال المركيز . فما كادت تقترب من منزلها وتشاهد رماح الجنود تطوقه بشكل محكم حتى دهمتها موجة من الندم. أدانت نفسها بنفسها واعترفت انها ارتكبت جريمة لا تغتفر . وانطلقت مسرعة نحو عتبة البيت حيث وقفت بعض الوقت جامدة كالتمثال ، محاولة عبثاً إيجاد أي سبب يبرر عملها . لقد ضاعت عليها معاني حركاتها وما اقدمت عليه حتى انها غدت تتساءل وهي واقفة داخل الباب وبيدها ولد مجهول . كان أمامها الوف من الشرارات تسبح في الفضاء كألسنة من نار، راحت تتمشى جيئة وذهاباً لتنفض عنها ثقل الهواجس التي غشيتها، لكنها كانت أشبه بالنائم لا ترى أي شيء على حقيقته ، ضغطت يد الصبي بشدة لم يألفها من قبل ، وقادته بخطى سريعة أشبه بالمجنونة ، ولم تكن ترى شيئاً مما في الصالة حين اجتازت عتبتها ، مع ان ثلاثة رجال أدوا لها التحية وانفصلوا عن بعضهم ليفسحوا لها مجال المرور ، قال احدهم :
– ها هي قد أقبلت . وقال الكاهن :
– انها لجميلة. وردد الاول:حقاً انها لجميلة ولكن .. انها شاحبة اللون منفعلة.

ـ وشاردة الفكر الى حد انها لا ترانا : قال ثالثهم.

على باب الغرفـــة لمحت الآنسة دو فرنوي وجه فرانسين اللطيف المرح اذ اقتربت من اذنها وهمست : انـــه هنا يا ماري ! هنا تنبهت الآنسة دو فرنوي واستعادت وعيها ، تفرست ملياً في الطفل فعرفته وقالت لفرانسين : ان اردتِ لي الحياة فخذي هذا الولد فاحبسيه لديك واحرصي ألا يهرب.

وفيما هي تتلفظ بهذا الكلام ركزت بصرها على باب غرفتهـا وبقيت برهة محدقة ، لا يطرف لها جفن كأنها ترى أمامها ضحيتها من خلال الستارة السميكة ، دفعت الباب بهدوء ثم أقفلته دون ان تدير ظهرها لأنها لمحت المركيز واقفاً امام المدفأة . كان مرتدياً بدلة العرس وقد بدا أنيقاً وجذاباً . لدى هـذا المشهد ، استعادت الآنسة دو فرنوي كامل وعيها فعلت شفتيها ابتسامة صفراء ومشت ببطء نحو الشاب ولفتت نظره باشارة من اصبعها الى المنبه وقالت :

ـ الرجل الجدير بالحب ، جدير بنا ان ننتظره .

وما كادت تنهي كلمتها حتى هوت على المقعد تحت ضربات الضمير القاسية .

جلس المركيز الى جانبها وراح يداعب يدها ويلاطفها راجيـــاً ان تمنحه نظرة ضنّت بهـا . وقال لها : مـا اروعك في غضبك ، يا ماري . انا واثق من انك ستندمين بعد لحظة لانك حولت وجهك عن زوجك السعيد .

لدى سماعها هذه الكلمة التفتت نحوه فجأة وحدجت عينيه بنظرة فاحصة عميقة دون ان تقول شيئاً . فقال باسماً وملاطفاً :

ـ ما معنى هذه النظرة الرهيبة؟ وما هذه الحرارة في يدك يا غرامي؟ ـ غرامك؟

ـ اجل ، يا غرامي ، انا لك مدى الحياة . قال ذلك وهو جاث على ركبتيه امامها ، يغرق يديها بقبلاته . لكنها دفعته بحنق وراحت تضحك كالمجانين وهي تقول:

ـ انك لا تصدق ولو بكلمة ايها الرجل المخاتل المحتال .

ثم نهضت واستلت خنجرها من قرب اناء الزهر . وقربت شفرته البراقة من صدر المركيز مهددة . لكنها سرعان ما القت الخنجر جانباً وهي تتلفظ بهـذه العبارات القاسية :

ـ انك احقر من ان اقتلك بيدي . حتى الجندي ذاته أرفع من ان يدنس

سيفه بدمك ، لا ارى احداً يليق بقتلك سوى الجلاد .

بصعوبة كانت تتلفظ بهذه الالفاظ وترقص قدميها كالطفل المـــدلل . واذ اقترب المركيز منها ليمسك يدها نفرت منه وهي تنتهره صائحة : لا تقربني .

ـ انك لمجنونة .

ـ اجل ، مجنونة ولكن ليس الى حد امكنك فيه ان تجعلني العوبـــة بين يديك . اغفر لك كل شيء في الحب ولكن لا اسمح لك ان تمتلكني بدون الحب كما كتبت تقول لتلك الـ . . . ـ لمن كتبت ؟

ـ الى تلك المرأة التقية التي تمنت قتلي .

اصفر وجه المركيز واسند ظهره على المقعد وصرخ قائلاً :

ـ ان تجرأت مدام دو غوا على مثل هذه النذالة . . .

بحثت الآنسة دو فرنوي عن الرسالة ، ولما لم تجدها سألت فرانسين عنها . فاجابتها ان كورنتان اخذها ، وهنا ادركت ماري الحقيقة وقالت :

ـ كورنتان ! لقد كتب الرسالة وخدعني. يا له من شيطان ماكر . واطلقت صيحة مريرة وسقطت منهارة القوى على المقعـد وفيض من الدموع ينهمر من عينيها ، فالشك مروّع كاليقين . وانطرح المركيز على قدمي حبيبته . ضمها الى صدره وهو يردد : لم البكاء يا ملاكي ! اين الخطأ ، شتائمك مليئة بالحب . لا تبكي ، لا تبكي ، احبك ، احبك دائماً والى الأبد . ـ اما زلت تحبني ؟

ـ وهل تشكين في ذلك ؟! وكان صوته حزيناً خافتاً .

افلتت فجأة من بين ذراعيه وابتعدت عنه مسافة خطوتين ، وقالت :

ـ ان كنت اشك ؟ . .

كان جواب المركيز ابتسامة عذبة كلها مرح وحبور فاسلست له قيادهـــا حين اخذها الى عتبة الباب حيث رأت في آخر الصالة مذبحاً اقيم اثناء غيابها . وكان الكاهن لابساً بذلة القداس ، والشموع مضاءة . وعرفت من بين الرجـال الثلاثة الذين حيوها لدى دخولها الكونت دو بوفان والبارون دو غونيك وهمـا الشاهدان اللذان اختارهما المركيز دو مونتوران لزواجه .

وبصوت خافت سألها المركيز : اما زلت ترفضينني ؟

امام هذا المشهد، تراجعت فجأة لتذهب الى غرفتها حيث ارتمت على ركبتيها ورفعت يديها نحو المركيز قائلة : آه ! سامحني ، سامحني ، سامحني !

انطفأ صوتها والتوى رأسها الى خلف مطبقة العينين بين اذرع المركيز وفرانسين كأنها تلفظ الروح. فاذا فتحت عينيها التقى نظرها بنظر الرئيس الشاب وهو يتطلع اليها بحنان وعطف وسمعته يقول :

ـ صبراً يا ماري .. هذه العاصفة هي الاخيرة ... ـ الاخيرة ؟

تبادل المركيز وفرانسين نظرات الدهشة الا انها فرضت عليهما الصمت بحركة من يدها . ثم قالت : احضرا الكاهن واتركاني معه .

جاء الكاهن فاختلت به وقالت :

– يا أبتي ، في طفولتي رجل عجوز ، شعره ابيض كشعرك . كان يقول لي دائماً : بالايمان الصحيح ينال المرء كل شيء .. فهل هذا صحيح ؟

– اجل صحيح .. كل شيء ممكن للذي خلق كل شيء .

وهنا جثت الآنسة دو فرنوي وهتفت بحرارة : يا إلهي ، ان ايماني بك يعادل حبي للمركيز ، اهدني يا إلهي الى ما فيه خيرنا ، اصنع معجزة او خذ حياتي ، تمتم الكاهن قائلاً : دعاؤك مستجاب يا بنيتي .

مستندةً الى ذراع الكاهن العجوز ، دخلت الآنسة دو فرنوي الى الصالة وفي قلبها عاطفة عميقة غامضة أسلمتها الى حب حبيبها بكل ما في روحها من شوق وحرارة . بدا وجهها مشرقاً سعيداً ، كأن هالة من النور السماوي احاطت به ، ومدت يدها الى المركيز. فاقتربا معاً نحو المذبح حيث جثا الحبيبان وبارك الكاهن زواجهما بطريقة مخالفة للتشريع الجمهوري الجديد. وقبل ان يبدأ الكاهن الورع مراسم التكريس سأل عن اسم الخطيبة فأجابت : ماري نتالي ، ابنة الآنسة بلانش دو كاستيران المتوفاة وهي رئيسة لدير سيدة سيز ، وابنة فكتور اميدي دوق دو فرنوي . مولودة في شاستيري ، بالقرب من ألنسون .

وكان اسم المركيز وألقابه قد دونت مسبقاً فوقع الزوجان والشاهدان وثيقة الزواج. وبدأت الحفلة. وفي هذه اللحظة سمعت ماري قرقعة بنادق ومشية عسكرية ثقيلة ونظامية لجنود خمنت انهم جاؤوا ليردفوا حراسة الزرق الذين كانت

اوعزت بتمركزهم في الكنيسة. فارتعشت ورفعت عينيها نحو الصليب على المذبح.
تمتمت فرانسين : انها الآن قديسة .

فقال الكونت بصوت خافت : لو مُنحت قديسات امثال هذه القديسة لأصبحت من اعظم الاتقياء .

وحين وجه الكاهن للآنسة دو فرنوي السؤال التقليدي اجابت بـ « نعم » مع زفرة عميقة . ومالت الى اذن زوجها لتقول له : بعد قليل ستعرف لماذا حنثتُ بقسمي القديم ألاّ اتزوجك ابداً .

بعد انتهاء حفلة الزواج ، وبعد ان دخل الحضور الى صالة الطعام وجلسوا حول المائدة وصل جيريمي مذعوراً ، فنهضت العروس التعسة تتبعها فرانسين لمواجهة القادم بعد ان اختلقت بعض الاعذار وطلبت من المركيز ان يترأس حفلة المائدة. ثم قادت الخادم قبل ان يلفظ كلمة تدل على شيء من حقيقة الخبر المشؤوم الذي يحمل أنباءه .

– آه ! يا فرانسين ، أحس الموت يسري في جسمي وانا لا اجرؤ ان اقول : اني اموت .

قالت ماري هذا ، ثم لم تعد الى المائدة .

كان لغياب العروس ما يبرره في حفلة كهذه الحفلة التي أقيمت لزواجها . وبعد انتهاء الطعام، وبعد ان بلغ قلق المركيز حده الاقصى عادت ماري في اجمل وأبهى بدلة من بدلات الزواج . كان وجهها طروباً هادئاً ، اما وجه فرانسين فكان ينبض في جميع قسماته بالخوف والهلع . ورأى الضيوف في هذين الوجهين اللوحة الغريبة الفريدة للموت والحياة متماسكين بالايدي كما كان يمكن لسلفاتور روزا ان يخلدهما بألوانه الغريبة الاطوار.

قالت العروس للضيوف وللكاهن :

– ستكونون جميعكم ضيوفي في هذه الليلة لأن في خروجكم من فوجير في مثل هذا الوقت خطراً على حياتكم ، وستقود هذه الفتاة الطيبة كلاً منكم الى مخدعه.

واذ حاول الكاهن ان يرفع صوته بالاعتذار أسكتته ماري بقولها :

– لا تثر يا سيدي الكاهن ، لا اظنك ستخيّب رجاء عروس في ليلة عرسها .

بعد ساعة واحـــدة اختلت العروس بحبيبها في الغرفة الشهية التي أتقنت اعدادها . ووصل الاثنان الى ذلك السرير المشؤوم كالقبر ، حيث تذوب الآمال ويموت الحب الوليد مع الصباح .

وتطلعت ماري الى المنبه وقالت لنفسها: لم يبق لنا سوى ست ساعات نحياها.

وفي الساعة الثانية صباحاً استيقظت العروس واستغربت كيف استطاعت ان تنام . وراحت تتأمل المركيز وهو نائم . كان رأسه مسنداً الى احدى يديه كالطفل ويده الاخرى ممسكة بيد زوجته وهو مبتسم نصف ابتسامة كأنه نام على قبلة شهية .

هزته بلطف فاستيقظ وختم ابتسامته ليقبل اليد الممسك بهـا . وتطلع في هـذه المرأه التعسة بعينين شرهتين لم تستطع تحمل اللذه الناضحة منها فحولت عينيها عنه لتمنع نفسها من تحديق خطر .

لاحظ موجة من الكآبة تغمر وجهها فسألها بصوت حنون :

– لم هذه الظلال الكئيبة على وجهك يا حبيبتي ؟

– مسكين انت يا الفونس الى اين تعتقد اني وصلت بك ؟

– الى السعادة . – بل الى الموت .

قالت هذا وهبت واقفة وهي ترتجف من الرعب . ونهض بدوره ولحق بها الى قرب النافذة . ابدت ماري حركة من نوع الهذيان ثم رفعت ستائر الزجاج وأرته باصبعها العشرين جندياً المتمركزين في الساحة . لقد كان ضوء القمر قـد بدد الضباب فظهرت ملابس الجنود وبنادقهم كما ظهر كورنتان المخيف يروح ويجيء كثعلب يترقب فريسته، وظهر كذلك القائد هولو جامداً مشبوك الذراعين، أنفه في الهواء وشفتاه مصرومتان ، متيقظاً وحزيناً .

ـ دعيهم وشأنهم يا ماري وتعالي اليّ ..

ـ لماذا تضحك يا ألفونس . انا التي وضعتهم هنا ..

ـ أتهذين ؟ ـ كلا .

تبادلا النظرات فأدرك المركيز كل شيء ، ومع ذلك طوقها بذراعيه وقال : أحبك دائماً .

سكتت لحظة واردفت قائلة : هل من أمل ؟

وفي هذه اللحظة سمعا نعيب البومة وخرجت فرانسين من غرفة الزينـة لتقول بفرح يقرب من الهذيان :

ـ لقد جاء بيار (مارش آتير) .

ساعدت فرانسين المركيزة في إلباس مونتوران بذلة ناعق بسرعة لا يتقنها سوى النساء. واذ رأت المركيزة زوجها يتمنطق بالاسلحة التي جاءته بها فرانسين أعطت اشارة خفيـة الى البريتونية الامينة فقادت المركيز الى غرفة الزينـة المتصلة حيث شاهد كمية كبيرة من الحرامات المشدودة الى بعضهـا والتي أعدتها فرانسين لخداع الجنود الرابضين في الساحة .

قال المركيز حين رأى ضيق الكوة :

ـ يستحيل علي ان أمر من هنا .

في هذه اللحظة أطل من الكوة وجه ضخم أسود وسمع صوت أجش عرفته فرانسين ، وقال بهدوء : اسرع يا سيدي . ان الزرق بدأوا يتحركون .

وضع المركيز قدميه على سلم النجاة . وكان جزء من جسمه لا يزال في الكوة حين أحس ان زوجته تلتصق به بحنان يائس. فاذا نظر اليها وجدها مرتدية ثيابه. ففطن الى قصدها ، وصاح محاولاً ان يأخذها معه لكنها انتزعت منه فاضطر الى الهبوط وحده ، وما كاد يصل الى اسفل السلم حتى انطلق صوت هولو يأمر جنوده باطلاق الرصاص. ومن اعماق الوادي حتى أعلى البرج توالت طلقات الناعقين جواباً على رصاص الزرق. كان الضحايا يتساقطون دون ان يحدثوا حساً واستمر اطلاق النار من الجانبين .

كان كورنتان قد سمع سقوط احـد الاشخاص من الطابق العلوي مـن المنزل ، فاشتبه بوجود كمين ما . ولما كان لجوجاً في كشف النقاب عن هذا السر ، أرسل ابن غالوب شوبين ليأتيه ببعض المشاعل . وكانت ظنون كورنتان قـد بلغت ادراك القائد الذي كان منهمكاً في مراقبة سير المعركة الحامية امام مركز سان ليوناز فصرخ مؤيداً ظنون الجاسوس وجزم بأن الذي سقط هو واحـد وليس اثنين . وانطلق الى مركز الحرس الوطني حيث لقيه بوبيه وقال : لقـد

أفرغنا الرصاص في رأسه ولكنه كان قد قتل غودن وجرح اثنين من جنودنا ،
لقد كان هائجاً الى حد انه اخترق نطاق ثلاثة صفوف من الجنود وكاد يصل سالماً
الى الحقل لو لم يدركه حارس مدخل سان ليونار بطعنة من حربته .

لدى سماعه هذا الكلام أسرع هولو الى مركز هيئة الحرس الوطني ورأى
على السرير جسم المركيز المزعوم ، اقترب منه ورفع القبعة التي كانت تغطي وجهه
واذا هو وجه المركيزة العروس لا المركيز . فتهاوى هولو على الكرسي ، وراح
يسبل شعر المرأة الاسود الطويل . وفجأة انقطع حبل الصمت بقرقعة السلاح
تحيةً لكورنتان الذي دخل مركز الحرس الوطني يتبعه أربعة جنود جعلوا من
بنادقهم شبه محمل يحمل مونتوران مصاباً بعدة طلقات وبكسر في ساقه وفي
ذراعه . وضعوه على السرير الى جانب زوجته ، فرآها واستطاع بعد جهد ان
يمسك يدها وهو ينتفض ويتشنج . أدارت بصعوبة رأسها نحوه واذ عرفته
انتفضت من رأسها حتى أطرافها ، وتمتمت بصوت خافت أليم : يوم بلا غد .

واستجمع المركيز قواه وقال للقائد ، وهو يمسك بيد زوجته : اني اعتمد على
شرفك لتبلغ نبأ وفاتي الى شقيقي الموجود في لندن وان تقول له في رسالة
خاصة ان وصيتي الأخيرة له قبل ان ألفظ النفس الأخير ألا يحمل السلاح ضد
فرنسا وألا يتخلى عن خدمة الملك . فوعد القائد الشاب المشرف على الموت بأنه
سينفذ طلبه وهو يضغط على يده قائلاً : سيكون لك ما أردت .

فاستدار هولو نحوه صاح كورنتان : خذوهما الى المستشفى القريب . وضغط
على ذراعه بقوة حتى ترك أثر أظفاره على جلده وقال له : أما وقد انتهت مهمتك
عند هذا الحد ، فاغرب عني وتطلع جيداً في وجهي حتى لا أصادفك أبداً في
طريقي بعد اليوم ، هذا اذا شئت ألا اجعل من بطنك قراباً لسيفي المسنون .
قال هولو ذلك واستل سيفه .

فابتعد كورنتان عن القائد وهو يتمتم في طريقه قائلاً :
هذا ايضاً واحدٌ من اولئك الرجال الشرفاء الذين لن يتعلموا قط كيف
يجنى المال وتُنال المراتب ...

واستطاع المركيز ان يشكر خصمه بايماءة من رأسه تعبيراً عن تقدير يكنه الجنود دائماً لأعدائهم من ذوي النخوة والشهامة .

في سنة ١٨٢٧ ، شوهد في سوق فوجير رجل عجوز برفقة زوجته يساوم على ثمن المواشي دون ان يعترض أحد سبيله، على الرغم من انه كان قد قتل اكثر من مئة رجل، وعلى الرغم من كون الجميع يتذكرون أنه لُقب في الماضي بـ «مارش آتير». وان الشخص الذي ندين له بأثمن المعلومات عن شخصيات هذه القصة شاهد مارش آتير يقود بقرة ويسير ببساطة تدعو الى القول : هذا رجل طيب . اما زميله سيبو الملقب بـ « بيل ميش» فقد عرف الجميع كيف انتهى ! ولعل مارش آتير قد بذل أقصى جهوده لينقذه من المقصلة، لكن دون جدوى .

ولعله كان حاضراً ، في ساحة ألنسون ، حين حدثت فيها تلك الاضطرابات المخيفة التي كانت حلقة من الأحداث العنيفة التي رافقت دعوى السادة ريغويل ، وبريون ، ولاشنتري الشهيرة .

فوجير : في آب (اوغسطس) سنة ١٨٢٧

عويدات للنشر والطباعة ٢٠٠٨/١١١٤







الناعقون



النص كاملاً

الناعقون

... سألها المركيز:

- وهل نحن جميعاً مشمولون بهذا العفو يا آنسة؟

لم ترد عليه، بل انطلقت ترقص بحماسة الأطفال، تاركة المركيز في حيرة، لاحظت أنه يتأملها وعلى وجهه مسحة من الكآبة، فأحنت رأسها بظرف ودلال، على قدر ما سمحت به قبة معطفها، ولم تبخل بأي حركة من حركات الإغراء وهي تتمايل بقدّها المياس. لقد كانت تجذب كالأمل وتهرب كالذكرى، ومن يراها هكذا يود امتلاكها بأية ثمن. لقد كانت تعرف ذلك ويقينها بسحر جمالها أضفى على وجهها جاذبية فوق الوصف...



ISBN 978-9953-28-107-6
9 789953 281070



